

نفوس

على جدران المنفى

سيرة بديع الزمان النورسي



وبرغم صدور برأيه من قبل حكومة ولاية أفيون، جرت هنا محاولة لاغتياله في أوائل
الأناضول وقد هبط على هذا المكان بطلان بطلان
لكنه نجا منها، وظل على الحكومة بالاتصال بطلان
١٩٤٧ حين سمحت له الحكومة بالاتصال بطلان
ولم يبع رسائله على الآلة
للحكومة برسالة عز
فيها محاولة الحكم
الإنسانية" وقال إن
أنواع الظلم، غير
سبيل دعوتهم
يعطيني
يعوضني
إن ملوك
التي انتشرت فيما بين
يسكتوا الناس فلن يستطيعوا إسكات
التي تصل إلى شفاف القلوب، ولن تسكتها أي قوة
على الأرض" (٧١)

سالم محمود سالم

دار سوزلر للنشر

Sözler
PUBLICATIONS

نقوش ...
على جدران المنفى

حقوق الطبع محفوظة

حقوق الطبع محفوظة © ٢٠١٣ م.
لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي
جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه
ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو الكتروني
يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء
منه. ولا يسمح باقتباس أي جزء من
الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون
الحصول على إذن خطي مسبق من المؤلف .

إسم المؤلف:

سالم محمود سالم

الناشر:

دار سوزلر للنشر

رقم الإيداع :

٢٠١٢/٢٢٣٣٥ م

الترقيم الدولي :

ISBN: ٩٧٨-٩٧٧-٧٠٨-٠١٥-٦

تاريخ النشر:

الطبعة الأولى ٢٠١٣

الإخراج الفني :

عبد العليم خضر

abdo_khedr@hotmail.com

الرسوم الداخلية

الفنان : خليل الخولي

١٩ أيت

نفوس

على جدران المنفى

سيرة جديع الزمان التورسي



سالم محمود سالم

دار سوزلر للنشر
Sözler
PUBLICATIONS



إهداء

إلى صاحب القبر المجهول
الذي لملم أحزان العالم ، ووضعتها على أحزانه
ثم فرقها في صمت أيامه
جعل من آلامه رسائل نور
أشرقت في عمق الكلمات، المكتوبات، اللمعات ؛
أيقظت المعنى ؛
روعت الطغاة
وشهدت عليهم
تُرى.. أين يوجد قبرك يا سيدي؟

سالم محمود سالم

أزاهير القمر

١

« قرية نورس - شرق الأناضول - ١٨٧٧ »

دخل الربيع واكتسى الفضاء بغلالة خضراء.

بزغت الشمس وغمر ضوءها الزاهي قرية «نورس»، تسلل الدفء والعطر إلى بيوتها الرمادية الصامته المنحوتة من الخشب والحجر، يحيط بها «درازينات» على أشكال هندسية مختلفة، تحفها الجبال الراسيات بقممها العالية وكهوفها الكثيرة والزراعات الكثيفة الممتدة إلى آخر المدى.

تتخللها دروب ملتوية ضيقة، تسع بالكاد المزارعين - من أهل القرية - الذين يسعون إلى مزارعهم، ومعهم مواشيهم مرورًا بالمدافن التي تحيط بها أشجار السرو، ينظرون إلى الطيور السابحة في الفضاء جماعات وفردى، يعرج كل مزارع على مزرعته، يدخل مواشيه إلى السقيفة ذات القوائم الخشبية المسقوفة بالقش، يغوص في زراعته، يقوم بتقصيب الحشائش المبللة بقطرات الندى الفضية، الشمس تبدأ في إرسال خيوطها الفضية الساخنة فيتبخر الماء مكونًا سحبًا ضبابية تتكاثف على قمم الجبال العرايا المرتفعة، يحملها على كتفه - الحشائش - ويلقيها أمام بهائمته التي تتابعه برأس مشرب وعيون

جاحظة ناهمة.. وما إن يلقاها حتى تلتهمها زافرة بخارًا أبيض، تلوك الحشائش وينسال من زاويتي فمها سائلًا لزجًا يساعد على انزلاق الطعام إلى جوفها، وبعد أن ينتهي من إفطار مواشيه يفكر في إفطاره.

يجمع بعض أعواد الحطب الجاف، يقوم بتكسيه على ركبتة ويكومه في حفرة صغيرة ثم يُضرم فيه النار، وبعد أن يخبو الوهج، يضع إناء به بعض الماء ليصنع شايًا، يتناول فطوره والشاي أمامه يقرقر في الإناء ثم يصبه في كوب صغير ويرشفه حسوة إثر أخرى، وبعد أن ينتهي. ينهض وينهمك في أعماله الزراعية حتى آخر ضوء للشمس.

وما إن تميل الشمس برأسها للغروب حتى يعود المزارعون إلى ديارهم متخللين الدروب الضيقة يجرجرون مواشيهم.

وعلى مشارف القرية الأطفال يلعبون ويمرحون كالفراشات في الأفق، ينداح صوتهم الطفولي الحاد في المدى الأسطوري حتى السحاب الفستقي الذي يداعب وجه السماء.

يرتفع القمر، وتبدو في ضوئه أشجار السرو الضخمة في المقابر، وإلى أعلى البيوت الناعسة. في أحضان القرية..

يتخللون الشوارع المترعة بالدواجن والحيوانات.

يمرون من أمام الحوانيت ذات الأروقة المرتفعة المحاطة بدرابزينات، وتطل على الوادي الغارق في الضباب، يداعبون ماء الجداول التي تحف بها الحشائش وأشجار الصنوبر والضوء الذي يصدر من خلف نوافذ البيوت.

النسوة معهن أطفالهن، سائرات لابتياح أغراضهن من المحال، عليهن

نقوش ... على جدران المنفى

غطاء الرأس المكون من غلالات مزدانة بنقط من الذهب، وعقصت على شكل عمامة، ينفلت من تحتها صفائر مجدولة غزيرة سوداء فاحمة تظهر جمال وجوههن، عيونهن المرسومات بخطوط الكحل الأسود لتزيد من اتساعها، وبطنون أياديهن البيض بلون الحناء.

هبت نسائم الربيع الناعمة على الأشجار المزهرة، فحملت رحيقها المنعش إلى الأجواء، وطال السهر.

تجمع الأولاد أمام أحد المنازل، يتشبهون بقضبان النافذة لمشاهدة الدراويش وهم منتشون، تسبح شعورهم الطويلة في الهواء وتغطي رقابهم ووجوههم.

يضحكون عندما تأخذ الجلالة أحدهم، وينهمك تمامًا مفصولاً عن الواقع، يتمايل بجرمه يميناً وشمالاً بسرعة فائقة، حتى تدور به الأرض فيقع مغشياً عليه وسط الصفوف.

عندئذ تتعالى الصيحات. دون أن يعيره أحد أدنى انتباه، كما لو أنه قد أتى بمعجزة، أو أنه نال الخطوة الكبرى، وأصبح من أقرب المقربين لهذا العالم الروحاني.

بينما يجلس الشيخ «ميرزا» في منزله بجلبابه الأبيض ولحيته المشربة بالصفرة القاتمة، بيده مسبحة طويلة، يفر حباتها، ويحرك شفثيه الرقيقتين بتبتلات وتسبيحات تملأ أفق المنزل، وحوله أولاده.

يهتف على زوجه «نورية» متوسطة العمر بجلبابها الأسود وعلى رأسها «طرحة تلي»، تتدلى على ظهرها وعلى بطنها لتواري حملها.

فترد عليه ابنته درية:

- إنها تتوضأ يا أبت.

فيردد بصوت خافت، باسمًا تعبيرًا عن امتنان صامت:

- إذن فهي ستعد لنا طعام العشاء.

لحظات وتنتهي من إعداد الطعام فتضعه وسطهم على سفرة من القماش الرقيق.

يلتف أولاده جميعهم حول الطعام، تغمرهم نفحات روحانية تضع في قلوبهم الرضا والسكينة، وما إن ينتهوا حتى يحمدوا الله عز وجل وترفع البنتان - درية وخانم - بقايا الطعام، وعندما تحاول زوجته النهوض وهي تتألم من أوجاع الحمل.

يقول لها حانيًا:

- استريح يا زوجتي العزيزة .. درية وخانم ستقومان بعمل اللازم.

سألت «خانم» مستفسرة وعلى وجهها براءة الطفولة:

- متى ستلدين يا أم؟

- عما قريب يا ابنتي.

صمتت الابنة قليلاً وهي متكئة على فخذ أمها، تنظر إلى بطنها البارز كأنها تراقب الجنين يداعبها. قالت:

- هل ما ببطنك ولدٌ أم بنتٌ؟

ضحك الشيخ «ميرزا» وغمرت وجهه الشاحب المستطيل بشاشة. قال:

- ولد أم بنت كله من فضل الله يابنتي.

جاء صوت من خارج الدار صائغًا:

- يا شيخ ميرزا.. يا شيخ ميرزا.

نهض الأولاد من الغرفة لكي يخلوها للضيوف الوافدين، وقام أخوهم «عبد الله» الذي لم يتجاوز عمره خمسة عشر عامًا. فتح الباب فدلف بعض من أهالي القرية كدأبهم يتجمعون معًا، يتكلمون في أمور حياتهم تارة والذكر والحكمة تارة، ويتسامرون تارة أخرى.

توجعت الأم إيدانًا بمولود جديد، واستحالت طلقات مخاضها إلى صرخات هزت القلوب، ما أيسر أن غمرتها بشاشة الغد السعيد، وهي تحدد في وليدها - قطعة اللحم الحمراء - الذي أتى من عالم الغيب إلى عالم الوجود، الحبور يحور في عمق عينيها الصافيتين.. متهللة الملامح فرحة.

أبوه يراقب صامتًا، تموج بداخله آيات الشكر والعرفان، تتحرك شفتاه بتمتمات روحانية ملؤها الشاء والشكر للواحد الأحد، يخالجه شعور بأن مولوده السعيد هو من سيحطم أسوار العجز، ويبدد غمام الظلمات التي سكنت القلوب والعقول، بل يكاد يوقن بأنه سيبدد الأوجاع ويحطم الصرخات وتفيض بين يديه الأساطير.

يحدد في قطعة اللحم الحمراء، المدثرة في ملاءة بيضاء:

- ستحيا هذه الزهرة الحمراء اليانعة رغمًا عن أجواء الكمد، ولن تحبو

خلف زلات البشر الملتفين حول جموع الأشياء.. هيا يا ولدي أنشد ترنيمات
الخصوبة في الأرض الجدباء، وقاوم هزات نفوسنا.. شق لك طريقاً إلى القلوب.
طرق أذنيه صوت:

- مبروك يا شيخ «ميرزا».. ماذا ستسميه؟
- سعيداً..

جاءه الرد سهلاً ميسوراً، كما لو أنه قد أُملي عليه، أو أمر بنطقه.. دونما
تفكير..

تردد الاسم كرجع الصدى في الفراغ: «سعيد» نعم سعيدٌ في دنياه
وأخراه.. هو «سعيد» لاريب.

شاع الخبر في أرجاء قرية «نورس»، الملفوفة في بساطها الأخضر، تحفها
الأشجار من كل جانب، ويحيط بها الجبل المترامي الأطراف في المدى..
خرج أهلها وفوداً من ديارهم الصامته مهرولين، مهللين، إلى دار الشيخ
«ميرزا».. يباركون.

النساء رافلات في زيهن المزركش الفضفاض، يضربن على وجوههن
بخرهن وبراقعهن.

كان القمر بدرًا، يرفرف بجناحين أبيضين، فتتزاح السحب الرمادية
المتكتلة من طريقه، ثم يُرسل بأزاهيره التي تُبدد الظلام الهاجع على أجواء
«نورس».. ثم يلفها في غلالة بيضاء شفافة.

نقوش ... على جدران المنفى

وأختاه «درية» و «خانم» مشغولتان بأعمال الدار، يقمن مع النسوة - من الجارات - بالتنظيف والترتيب لاستقبال الضيوف.

أخوه «عبد الله» يترنم بالتسابيح وتلاوة القرآن وهو يراقب مشدوهاً ويتفرس وجوه أهل القرية الملهوفين.

ومكثت القرية ساهرة طوال هذه الليلة، حتى لاحت في الأفق أسارير الفجر تحملها فيوضات السحر.

جلجل الأذان، توجه أهل «نورس» إلى الجامع، متخللين الشارع الضيق المحاط بأشجار السرو والصنوبر.

وبعد انتهاء الصلاة، عاد الشيخ «ميرزا» إلى الدار، يحدوه الشوق إلى رؤية وليده الذي فجر في قلبه الحنين، وهو يرمق الديار المتهللة، وهي تشرئب برءوسها بين زحام الشجر لتهنئ الشيخ بقدوم وليده السعيد، والشمس تكاد تطل برأسها من الأفق قرصاً أحمر، ترسل أشعتها البيضاء، لتزيح ستار الليل من على «نورس» ليبدأ صبح جديد لميلاد جديد...

كانت نورس تسبح في ظلال رمادية قائمة.

والقمر يتوسط السماء مخنوقاً، أضواؤه معتمة خافتة، تهتز فوق العقول السابحة فوق الخرافات والأوهام.

خرج الناس من ديارهم مأزومين، تكسو وجوههم مسحة من الحزن، وهم يحملون في القمر المخنوق.

أحضروا الدفوف والصفائح المعدنية، أخذوا يدقون عليها بضربات

غير منتظمة، «سعيد» يراقب مشدوهاً، ينظر إلى القمر تارة في رحم السماء، وإلى وجوه الناس المكفهرة تارة أخرى، ثم يشد أمه من طرف جلبابها.
يسألها:

- ماذا يحدث يا أم؟

أشارت بيدها إلى القمر المخسوف وقالت:

- لقد بلع ثعبان ضخمة القمر!

- ماذا؟

- نعم والقمر الآن يتألم يا ولدي!

- كيف يا أم والقمر لم يختف تماماً.. فيها هو قرص رمادي!

- هذا ما يحدث يا بني!

- وكيف سيصل الثعبان إلى هذا المدى؟

- يا ولدي لا تشغل بالك!

وشعرت بالحيرة وأن سعيداً لم يقتنع بما قالته، فتبادر إلى ذهنها أن تقول له
إجابة ترضيه.

فأردفت قائلة:

- الثعبان الذي ابتلع القمر شفاف مثل الزجاج، لذلك نستطيع أن نراه
غائصاً في بطنه..

نقوش ... على جدران المنفى

سكت «سعيد» عندما لاحظ بفطنته وذكائه الملهم حيرة أمه، فلم يُرد أن يشعرها بالحرج، برغم أنه لم يقتنع بما قالت.

ولكن هذه الظاهرة جعلته يفكر ملياً في هذه الظواهر الكونية التي اختزنها في لاوعيه إلى حين.

أطبقت على يده وعادت إلى الدار وهو يحاول التملص منها ليتابع الأهالي والأطفال وهم يترنمون بصوت حاد يشق المدى.

يتغنون بأغاني تراثية قديمة، علّ الثعبان يلفظ القمر ثانية من جراء غُصة قد يتسببون له فيها.



وشعرت بالحيرة وأن سعيداً لم يقتنع بما قالته
فتبادر إلى ذهنها أن تقول له إجابة ترضيه.

شُغل فكر الصبي بأشياء تفوق عمره.

دلفا معًا من باب الدار، فرمق «عبد الله» أخاه يجلس في غرفة الضيوف
وسط رهط من أهل القرية، يتحدث معهم، فانفلت من يد أمه وتوجه إليهم.
جلس يراقب الكبار وهم يتكلمون، يتفرس وجوههم وملاحظهم، ينصت
باهتمام بالغ إلى أحاديثهم وآرائهم.

يرمقه أبوه فيتسم، يشير إليه فيتقدم على استحياء ويفترش حجرة،
يتحسس الأب شعره ويربت على كتفه، الصبي تخامره أسئلة كثيرة تعتمل
في صدره، يريد لها أجوبة.. أسئلة عن الوجود والعدم، الموت والحياة أسئلة
فلسفية وفكرية تشغل عتاة الفلاسفة والفكر.

يحدث نفسه:

- «إن أي فكر أو فلسفة لا يستجيب لفطرة الإنسان، وحل قضايا الوجود
والعدم هي أفكار سطحية لا يمكن أن تساعد أو تطهر روحه».

بدأت على «سعيد» دلائل ملحة تدفعه إلى التفكير في كل ما حوله.. في التأمل، التمعن، والنظر في عمق الأشياء من حوله بنظرة مختلفة، هذه النظرات تتدفق لمعات إلى مصابيح عقله المفكر، أشياء تفوق مرحلته العمرية الصغيرة.

فلم يتجاوز السابعة بعد، بينما أخوه الكبير «عبد الله» قد أصبح دارساً في مدرسة دينية، لا يعود إلى «نورس» إلا أيام الجمع فقط، وبقيّة أيام الأسبوع يقضيها في مدينة أخرى يتلقى فيها تعليمه..

بينما «سعيد» يتلقى علومه في «كُتَّاب» قرية «طاغ» القرية من «نورس».. وينتهاز فرصة وجود أخيه «عبد الله» فيأخذ منه دروساً إضافية.. لكن ذكاه المُلهم جعل أقرانه يتربصون به ويثيرون له المشاكل.

ففي إحدى المرات عاد إلى الدار وعلى وجهه انفعالات قرأتها أمه بسهولة فبدت مضطربة. سألته ملهوفة:

- ماذا حدث يا بني؟

سمعها زوجها وكان يقوم بإصلاح بعض أدوات الزراعة.

نقوش ... على جدران المنفى

فتركها ودلف إلى وسط الدار وسعيد يقول:

- «لقد تشاجر معي أحد الطلاب ولن أعود إلى هذه المدرسة حتى أكبر».

- لم يا ولدي؟

- «لأن هذا الولد أكبر مني بعامين أو ثلاثة.. وعندما أعود له ثانيا سألقنه درساً لن ينساه».

- لا تغضب يا ولدي فأخوك سيعطيك دروسك في أثناء إجازته، وأنا سأذهب إلى «محمد أفندي» كي أجد معه حلاً لهذا الأمر.

وقد لاحظ الشيخ «ميرزا» أن ابنه غير مكثف بالدرس الأسبوعي الذي يأخذه عن أخيه «عبد الله»، وأنه يقضي وقته كله بعيداً عن الأولاد الذين يلعبون «الاستغماية».. يفرون من أمام الدار مذعورين، ضاحكين مهللين يصنعون سحابة من الأتربة في الشارع. وإذا لعب «سعيد» معهم مرة لا يلعب الثانية.. فأثر أن يأخذه إلى الشيخ «نور محمد» في مدرسة أخرى بقرية مجاورة لـ «نورس» لكن ذكاء «سعيد» وقوة حضوره وتمكنه الكبير من الإمساك بنواصي العلوم، جعل بعض الطلاب يحقدون عليه، فافتعلوا معه المشاكل وبدءوا يتحرشون به.. مما دعاه أن يشكو إلى الشيخ «نور محمد».

قال:

- «يا سيدي هناك طلاب أربعة يتحرشون بي دائماً».

تبسم الشيخ وقال:

- «هم أربعة وأنت واحد.. ولكنك تهزمهم».



- «كيف»؟

- «بذكائك.. وليس بقوتك».

- «ومع ذلك يتحرشون بي.. فإن كان فليأتوا إلي اثنين.. اثنين».

- لا تغضب أنت تلميذي النجيب ولن أدع أحداً يتعرض لك بعد اليوم.

شعر «سعيد» بالرضا.. خصوصاً أنه قد جذب انتباه أستاذه وتقديره له.

وقرر أستاذه أن يذهب لزيارة أسرته، ليرى كيف أنشأوا هذا الصبي بهذه الطريقة الفريدة.

كان الوقت عصرًا عندما أخذ الأستاذ «نور محمد» بعض أصدقائه وتوجهوا إلى قرية «نورس»..سألوا عن الشيخ «ميرزا» فدهم أحد الأطفال الذين يلعبون بالقرب من الدار.

استقبلتهم زوجته الست «نورية» مرحبة:

- تفضلوا..

كان الشيخ «ميرزا» يسعى في حقله، لذا فضلت أن تجلسهم تحت «شجرة الدلب» التي تفرش حوش الدار بظلها الظليل..

فرشت لهم الحصير الملون، وأحضرت لهم مساند وضعتها بجوار الحائط، ومن فوقهم النافذة الخضراء. المظلة على الحوش. المحاط بسور من الحجر المنحوت. له باب خشبي صغير، يفصله عن الشارع..

وبينما يشربون الشاي ويجلس معهم «عبد الله» وأخوه الصغير «سعيد».

دلف الشيخ «ميرزا» بجلبابه الأبيض الواسع، يلف رأسه بشال أبيض يبرز وجهه الملوّح ولحيته البيضاء الحائلة.

تعجب الشيخ «نور محمد» ، عندما رأى البهائم التي يسحبها مكمة.
نهض «عبد الله» وأخذها من أبيه وتوجه إلى حوض المياه في الجانب الآخر
من «الحوش»، ثم خلع عن أفواه البهائم «كمائها» وسقاها.
بينما قام الشيخ «ميرزا» بمصافحة «محمد أفندي» ورفقائه.
كادت الشمس أن تغطس في بحر من الظلام اللجي، عندئذ أسرجت
الست «نورية» المصباح ووضعت على منضدة أمامهم.
همس لها زوجها:

- جهزي العشاء..

ودّ أن يُضيفهم في هذه الليلة.. ودار بخلده أن أهل القرية سيجتمعون
عنده كدأهم يحكون عن مشاكلهم وهمومهم ويتسامرون..
قال:

- أهلا يا أستاذ «نور محمد».

- أهلا يا شيخ «ميرزا» .. قل لي بارك الله فيك؟

- نعم..؟

- كيف ربيتم صغيركم «سعيد»؟

ابتسم «ميرزا» وقال مزهواً:

- «عندما أصبحت أمه حاملاً به لم تطأ مكاناً من دون وضوء وعندما جاء
«سعيد» إلى الدنيا لم ترضعه دون وضوء أيضاً».

نقوش ... على جدران المنفى

هز الأستاذ رأسه إعجاباً وعلى وجهه نظرة امتنان.

قال باسمًا:

- قل لي لم تكلم مواشيك؟

- «إن مزرعتي بعيدة عن «نورس» بعض الشيء، وفي الذهاب والإياب لا سبيل أمامي سوى العبور من مزارع الجيران.. لذا أكرمهم لكي لا يأكلوا منها حتى لا يدخل الحرام إلى داري»..

وكانت الإجابة الشافية للأسئلة التي تدور برأسه.

كانت «نورية» قد انتهت من إعداد العشاء هي وابنتها «درية» و«خانم». فنهض «عبد الله» وقام بفرش السفرة وحرص الصحون عليها.. وما إن انتهوا.. وشربوا الشاي حتى فكر الشيخ «نور محمد» في الاستئذان.. وهو ينظر إلى النجوم تتلألأ في الأفق الأسود..

فرفض الشيخ «ميرزا» قائلاً:

- لا أتم ضيو في هذه الليلة.

جاء صوت من خارج الدار:

- يا شيخ ميرزا.. يا شيخ ميرزا.

نهض «سعيد» وفتح الباب الخشبي الصغير.. فصافحه بعض الجيران الذين أتوا لقضاء سهرتهم، خصوصاً أن معهم في هذه الليلة الشيخ «نور محمد».. وبعد أن قضى الضيوف ليلتهم عادوا في الصباح إلى قريتهم.

«رؤيا خالدة»

٥

وفي إحدى ليالي الشتاء، جثم الليل ثقيلاً على أضلع «نورس»..
تساقطت الثلوج على أعناق الزروع والأشجار، وتراكت في أنهار
الشوارع على الأرض، قطعت السبل وحُبس الناس في ديارهم قابعين.
يُشعلون مواقد التدفئة، يلتفون حولها يتسامرون ويحتسون الشاي المر. يهزجون
ويضحكون.

الشيخ «ميرزا» قابع بجوار المدفأة وعلى كتفيه عباءته السوداء و«سعيد»
مدثر بطرفها، يتلمس الدفء من أبيه وهو يجول يبصره بين الجالسين منصتاً
باهتمام بالغ، وما إن انتهت السهرة حتى هب الجيران من أماكنهم مستأذنين
للذهاب إلى ديارهم.

نهض الشيخ، «ميرزا» ليودعهم، فانفلت «سعيد» ومشى معهم، وقف
في الحوش متخذاً مكاناً في كتف الدار لكي يحميه من تساقط الثلوج.
أخذ يرنو إلى الأفق الغامض.
ذهبت رؤاه وأشواقه إلى المجهول.

نقوش ... على جدران المنفى

تساقط الجمال في قلبه الأخضر قطرات.

قطرات ترطب روحه الحائرة.

شرد:

- من ينجينا من العقاب؟

تجوب عينا الصبي المدى.

ها هي أرض العصاة..

أين الباحثون عن خلاص الإنسان وسط مستنقع الشر وساحات الألم؟..

أين أنتم يا ساكني القصور وتحت أرجلكم جواريكم وخدمكم..

يا من تنعمون بالدفء ورغد العيش، ورعاياكم يدفنون في أرض الثلج..

أين أنتم يا أرباب السلطة والمسئولية..؟

- هل أخذتكم الغفلة ونسيتم أنكم ستسألون عما تفعلون وما

لا تفعلون..؟

غطت الثلوج القرية الساكنة وامتد الصمت إلى ما لا نهاية..

والصبي يرنو إلى المدى.

يبحث عن السر الكامن وراء المعاني المتدفقة في قلبه الصغير.

على وجهه الشاحب ابتسامة ممزوجة بخليط من التحدي ومخاوف

الطفولة..

سبحانك ربي!

قلت للكون كن فكان؟

الضوء الخافت المتسرب من الأجرام اللامعة في رحم السماء تنعكس
أطرافه الهزيلة على كومات الثلج.

فتصنع غلالة من الصمت الأبيض. الذي يلف المدى ، ويحتضن «نورس»
بهموم أهلها.

وبأحلام العذارى..

وطموح الشباب.

وصبر الشيوخ.

وعبث الأولاد.

وخشونة الرجال.

بالحب النابض في ثنايا القلوب .

بالأمل المنتحر على الطرقات.

طرق أذنيه الصغيرتين صوت أبيه:

- أين «سعيد» يا «عبد الله».. يا «درية».. يا «خانم»... يا أولاد..

فزعت أمه:

- كان مدثراً معك بالعباءة !! لكنه انفلت في أثناء انصراف الضيوف!

نقوش ... على جدران المنفى

وعلى عجل قام «عبد الله» بفتح الباب وخرج. فوجده يقف في صدغ الباب.. يكفكف دموعه التي لمعت في الضوء الذي تسرب من الباب إلى الخارج.

صاح:

- ما يبكيك يا «سعيد»؟

صرخت أمه:

- يا ولدي!

أطبّق على يده الصغيرة، أخذه ودلف إلى الداخل.

تلقفته أمه في حضنها الدافئ، أخذته إلى السرير.. مسحت على رأسه.. قامت برقيقته وتدثيره.. حتى يتسلل الدفء إلى أوصاله المتجمدة.

اضطجع على شقه الأيمن ويده اليمنى أسفل خده.. شعره الكثيف الأسود الحالك منشور على جبهته العريضة.

وذّر سلطان النوم الطاغى الرمل الناعم في عينيه، فثقلت جفونه حتى راح ينشد النوم بكل طاقته.

انفلت من نفسه إلى أماكن لا يعلم شيئاً عنها..

بدا مرتاعاً.. خائفاً.. تتمم:

- يا ويحي.. ماذا أرى.. ما كل هذا الزحام؟

بدّت أمه كالمأخوذة، ربت على كتفه وهي تتلو آيات «الذكر الحكيم».

فوجدته يتسم ويتمم هاتفاً:

- يا سيدي.. يا حبيبي..

جال بخاطرها بأن هذا مجرد تنفيس عما يدور في «أعماقه نتيجة لعبه مع الأولاد.

وتمت:

- ما يفعله الأولاد في النهار.. يهزون به في الليل!

وما لبث أن قال «سعيد» بصوت متهدج:

- أريد العلم!!

وعندما سمعت هذا، سرت قشعريرة في بدنها الذي زحف إليه الخور..
ثم طبعت قبلة على جبينه الذي يتفصد منه العرق برغم هذا البرد القارس..
صارت تحملى في وجهه لحظات، ثم داعب عينيها سلطان النوم أيضاً
وأخذتها السنة وضمته في حنايا صدرها ونامت..

انبلج الصبح مظلاً بالسحب الرمادية التي حجبت ضوء الشمس .
تسلل إلى داخل الدار الهواء باردًا ناعمًا .
تقلب «سعيد» على جنبيه، وعلى وجهه مسحة نور وصدره منشرح .
قال:

- صباح الخير يا أمي... أين أبي؟
- ذهب إلى المزرعة ..
- في هذا البرد القارس؟
- سيحضر طعامًا للماشية ويعود على الفور ..
- كانت مشغولة بإعداد الفطور، قامت بصب كوب من الحليب
وأعطته إياه ..
- لم يمر وقت طويل حتى عاد أبوه . ملابسه مبتلة، على الشال الذي يلف به
رأسه حبات الثلج الماسي المشثور ..

أسرع إلى موقد النار ليحظى ببعض الدفء..

وكانت «نورية» قد انتهت من إعداد طعام الإفطار..

جلسوا جميعاً حول مائدة الطعام، وبينما سعيد يلوك الطعام في فيه، ويحرق في وجه أبيه، أمه تشعر بالسر الذي يحوم في صدر ابنها، لم تحدثه عن شيء بل شعرت بأنه هو الذي يود الكلام.

وما لبث أن قال:

- ماهو شكل الرسول يا أبي؟

جمدت أوصال الشيخ «ميرزا»، وتحجرت عينا أمه وسكنت في وجه «سعيد».

قال الشيخ «ميرزا» حانيا:

- لماذا يا ولدي؟

- «لقد رأيته في منامي».

تهلل أبوه وقال ملهوفاً:

- ماذا رأيت يا ولدي.. احك لي!!

نظر إلى وجه أمه الذي اشتعل احمراراً وحناناً..

قال:

- رأيت القيامة بأهوالها، تملكنتني رغبة شديدة في رؤية الرسول ﷺ ..

رد والداه في وقت واحد: ﷺ ..

نقوش ... على جدران المنفى

وأردف الأب ملهوفاً:

- وماذا بعد؟

فقال سعيد مردفاً:

- «كنت محشوراً في زحام الناس، أجول ببصري في وجوههم بحثاً عنه».

- صلى الله عليه وسلم.

- «ولكن الأمر بدا صعباً، ففكرت أن أذهب إلى الصراط.

أقف أتابع كل من يمر عليه، وحينئذ سأستطيع أن أراه».

ثم مر عليّ الأنبياء جميعهم، فقبّلت أياديهم جميعاً.. حتى لمحتة مقبلاً نحوي.. فهويت على يديه الكريمتين أقبلهما.

وقلت له:

- «أريد العلم يا سيدي؟»

فقال صلى الله عليه وسلم:

- «سيهب الله لك علم القرآن، شريطة ألا تسأل أحداً من أمتي سؤالاً!»!

- بشراك يا ولدي.. قد أوتيت علماً لدياً..؟

- ماذا يا أبي؟

- يجب أن لا تقتصص رؤياك على أحد.. الآن على أقل تقدير.

قرعت هذه الرؤيا الخالدة ناقوس خياله.
واختزنت في مصابيح مخه التي بدأت تزداد توهجاً.
بدأت تلوح في الأفق إرهاصات عهد جديد.
وبدأ يتساءل:

ما هو الوجه الحقيقي لهذه الحياة ؟

فقد أرسله أبوه لتلقي الدروس على يد الشيخ «أمين أفندي» في «بتليس». لكن الشيخ لم يبداه اهتماماً، وأوكل أمره إلى أحد الطلاب بالمدرسة، مما جعل «سعيد» يشعر بأنه لا طائل من وراء هذا، فأرسله أبوه إلى مدرسة «مير حسن ولي»، فلاقى عدم اكتراث، مما جعله يذهب به إلى «گواش» ثم إلى قصبة «بايزيد» التابعة لمحافظة «أرضروم»، وفيها شعر بالاهتمام وأن الدراسة الحقيقية لابد أن تبدأ من هنا.

انكب على دراسته في النحو والصرف على يد الشيخ «محمد جلاي» ووجد الفرصة سانحة لقراءة عشرات الكتب.

نقوش ... على جدران المنفى

عاش مرحلة زهد وتكشف متأثراً ببعض آراء الحكماء، كان عمره قد تجاوز الرابعة عشرة حينما أطلقوا عليه «المُلا سعيد».

ارتدى زي «ال دراويش» وعندما طلب منه أساتذته ارتداء زي العلماء رفض بحجة أنه لم يصل سن البلوغ بعد..

كان عندئذ يود الذهاب إلى «بغداد»، لكنه تردد في الطريق وعرج على مدينة «بتليس»، قابل أستاذه الشيخ «محمد أمين أفندي» قضى عنده يومين ثم استأذن متوجهاً إلى مدينة «شيران» لكي يرى أخاه الأكبر «عبد الله» الذي ما زال يدرس الدين،.. وكان لقاء حاراً بينهما.

«أطيف العزيمة»

٨

بدا «عبد الله» معجباً بأخيه، الذي تشكلت في جسمه ملامح الرجولة..
فأصبح فارع الطول.

نُحت وجهه الحنطي اللون، وبرقت في عينيه الفيروزيين أطيف الذكاء
والعزيمة، وخط شاربه.

قال «عبد الله»:

- لقد أنهيت «شرح الشمسية» للقزويني، وأنت ماذا تقرأ الآن؟

- قرأت ثمانين كتاباً!

تملك «عبد الله» الدهول وساوره بعض القلق.

قال:

- «إذن سأختبرك»!

- «سل ما بدا لك».

نقوش ... على جدران المنفى

وبدأ «عبد الله» يلقي على أخيه بعض الأسئلة، وسعيد يجيب بمتنهي اليسر والسهولة حتى أجاب عن الأسئلة التي يجهل إجابتها أخوه الأكبر.

دوت الكلمات في فراغ عقله:

- أخي الصغير الذي كان تلميذاً لي قبل فترة وجيزة.. الآن قد تفوق علي..

ثم محدثاً نفسه:

- نعم يا «عبد الله» قد تفوق التلميذ على أستاذه!

ثم قال مداعباً أخاه:

- «الآن أيها الملا «سعيد» قد أصبحت أنا تلميذك فهل تقبلني»؟

فضحك الأخوان وغمرتهما نشوة العلم اللذيذ وقضيا وقتاً يفيض محبة وسعادة.

«جذوة العلم»

٩

سعد

كان الشيخ «عبد الله» يعيش في دار متواضعة قد استأجرها من أحد أهالي «شيران»، يخدم نفسه بنفسه، القليل يرضيه وكذا أخوه «سعيد» الذي يقضي وقتاً طويلاً على قليل الطعام يسيره.

حياتها حياة طلاب علم حقيقيين لم يشغلها ملء بطنيهما، بل ملء عقليهما وفؤاديهما، بما يُسر لهما. وكان الزهد طريقتهما.. والعلم غايتها.

قال:

- ائذن لي يا أخي بالرحيل.

- إلى أين؟

- إلى سعد.. ففيها عالم مشهور.

وقبل أن يتم كلامه قال «عبد الله»:

- الشيخ «فتح الله أفندي».

نقوش ... على جدران المنفى

- نعم..وكان في السابق أستاذي! وقد فتح الآن مدرسة مشهورة في «سعد».

فكر «عبد الله» قليلاً ثم قال:

- سأفتقدك، لكنك طالب علم ولن أمنعك.

وزوده ببعض الأغراض التي تعينه على السفر إلى «سعد».

استقبله الشيخ «فتح الله» في مدرسته بترحاب بالغ. متوسماً فيه الخير الكثير.

أجلسه على مقعد بجواره وطلب له كوباً من الشاي.

سأله:

- «كنت في العام الماضي تقرأ ألفية «ابن مالك»..فهل تقرأ هذا العام «الجامي»؟»

- «لقد أنهيت قراءته».

تعجب الشيخ «فتح الله»..ودار بخلده أن يتأكد من بعض أشياء تجول بخاطره، وبدأ يستفسر منه عن بعض الكتب المعروفة والمهمة.

فبادره سعيد بأنه قد قرأها.. وكلما ذكر اسماً لكتاب، يقول: إني قد قرأته.....

بدأ يتملكه الشك.

كيف يستطيع أحد أن يقرأ كل هذه الكتب في هذه السن الصغيرة؟

نعم سعيد ذكي ومثلهم ولكن.. هل إلى هذا الحد؟

وبحكمة العقلاء بدا مازحاً قال:

- «لقد كنت مجنوناً في العام الماضي.. فهل لازلت مجنوناً؟»

- «يا سيدي.. إن الإنسان لكي يكسر كبرياء وغرور نفسه قد يكتسب الحقيقة عن الآخرين، ولكنه لا يستطيع سوى قول الحقيقة المحضة لأستاذه الذي تكون مكانته عنده أكبر من مكانة والده، وأنا الآن طوع أمرك وأرجو أن تمتحني في جميع الكتب التي ذكرتها».

دُهِش الأستاذ عندما رأى تلميذه يجيب عن أسئلته أفضل إجابة.

في نهاية الحوار الذي دار بينهما.

قال الشيخ «فتح الله»:

- «أنت تمتلك ذكاءً خارقاً، ولكن دعنا نرى قوة حفظك».

ومد له يده بكتاب قائلاً:

- خذ هذا كتاب «مقامات الحريري».

ثم صمت قليلاً وأردف:

- «اقرأ منه بضعة أسطر مرتين فقط وأرني إن كنت قادراً على حفظها».

تناول «سعيد» الكتاب، مرر شعاعه بصره على ما يقرب من نصف صفحة ولمرة واحدة.. ثم أعطى الكتاب لشيخه، وتلا عليه ما قرأ بالحرف الواحد.

تملك الشيخ إعجاب ممزوج بالدهشة وقال:

نقوش ... على جدران المنفى

- «إن الذكاء الخارق مع هذه القابلية الشديدة للحفظ إذا اجتمع في شخص واحد هو من الأمور النادرة».
- ومكث «سعيد» مع أستاذه فترة حفظ فيها كتاب «جمع الجوامع» في أسبوع، وعندما علم أستاذه بذلك كتب له في أول صفحة من الكتاب:
- «قد جمع في حفظه (جمع الجوامع) جميعه في جمعة».

وبدا أستاذه يتباهى بعلم تلميذه في أرجاء المدينة.
كلما ارتاد جلسة مع العلماء تغنى بذكاء «سعيد» وفطنته مما أثار حفيظة
العلماء وتحفزهم لإجراء اختبار له.
يضمرون أن يكون الأستاذ مخطئاً في رأيه من ناحية، ومن ناحية أخرى
كسر شكيمة التلميذ الذي تفوق على كثير من العلماء.
وعرضوا هذا الاقتراح على الأستاذ الذي شعر أنه تحد..
فحدد معهم موعداً اصطحب فيه «سعيدا». وكانت الجلسة مشوبة بالتوتر
والترقب وهم يحورون ويدورون و«سعيد» رابط الجأش، ثابت الفرائس.
مما أثار حيرتهم.
انتقوا له أصعب الأسئلة، لكن سعيداً لم يخيب ظن أستاذه فيه إذ أجاب
عن كل أسئلتهم ببراعة فائقة.
وأستاذه يهز رأسه متشياً مباهياً.

نقوش ... على جدران المنفى

غمر العلماء مزيج من الحيرة والتقدير والإعجاب بهذا العالم القادم بقوة.
وما لبث أن شاع أمره بين الأوساط العلمية وطلاب المدارس الدينية
بل والأهالي.

كان ينبغي أن يفخر به الجميع، ولكن بدأ طلاب العلم يحقدون عليه..
هكذا سكن الحقد قلوب طلاب العلم..
حزن أستاذه:

- يا ويحنا إذا ابتلينا بحقد علمائنا.. فإن أيامنا كلها ستكون معتمدة وهماً
ثقيلاً. هل أخذوا العلم حكرًا عليهم؟
تفاقم حقدهم إذ كيف يأتي طالب غريب ويتفوق علينا.
شرد يحدث نفسه:

- آه يا سعيد قد شققت على نفسك كثيرًا وتحملت عبء الأيام الثقيل
مع هؤلاء البلهاء، منذ أن رحلت وأنت حائرٌ لا تعرف لك وطنًا أو عنوانًا...!
فقد لاحت الأسافل وكثرت. ولم يجدوا غير القوة سبيلاً لإيذاك.
هزمهم في ميدان العلم.. ففكروا أن يهزموه في الظلام.
تربصوا به في ليلة ظلماء في أثناء عودته من عند أستاذه.
هجموا عليه وطفقوا يتناوبون عليه الضرب بكل قسوة.
لولا أن بعض الأهالي أدركوه وخلصوه من بين أياديهم.
أخذه أحدهم إلى بيته.

قام بعمل الإسعافات وإزالة الهم عنه، ثم قام بإبلاغ رئيس الشرطة الذي أرسل قوة من العسكر، بحثت عن هؤلاء الطلاب وتم القبض عليهم. وأصدر قراراً بنفيهم لولا أن تدخل «سعيد» مهوناً من الأمر. قال:

- «نحن طلاب مدرسة قد يختلف أحدنا مع الآخر.. ثم نتصافى لذا لا أرى من المناسب أن يتدخل بيننا أحد خارج مسلكنا هذا». أيقن رئيس الشرطة أن «سعيد» - الذي قد ذاعت شهرته - لا يريد أن يتأذى أحد بسببه.

ومن أجل هذا قد عفا عنهم.

وفكر «سعيد» أن يذهب إلى «بتليس» مرة أخرى، ولا يعلم بأن شهرته قد سبقته إلى هناك.

مكث في مدينة «بتليس» فترة قصيرة لأن الناس فيها قد انقسموا إلى قسمين. قسم من أنصاره وقد أطلقوا عليه «سعيد المشهور»، وقسم يتبع عالم المدينة الذي كان أستاذه يومًا الشيخ «أمين أفندي».

وأخذ الفريقان في صراع كصراع الديكة في الميدان.. يتناحran تارة ويتشاجران تارة أخرى.
صارت بلبله كبيرة.

هاب عمدة المدينة أن يقع احتكاك بين الجماعتين.. فأصدر أمرًا بنفي «سعيد» إلى مدينة «شيران»، وفي هذه المدينة جاء رجل من إحدى قرى «سعد».

قال:

- «لقد ظهر في «سعد» عالم شاب يتراوح عمره ما بين ١٥-١٦ عامًا، لكنه هزم كل علماء المدينة.. لذا أرجو منك أن تذهب إلى هذه المدينة لمناظرته»..
لبى سعيد الدعوة وتيأ للسفر.

وبعد أن ترك المدينة بقليل.. أخذ يفكر ترى من يكون هذا الشاب؟
فأنا كنت فيها..! ومعظمهم طلاب بلهاء كادوا يفتكون بي..

ثم سأل الرجل:

- «ما هي أوصاف هذا الشاب»؟

- لا أعرف اسمه.. ولكنه كان يلبس ملابس «الدراويش» عند قدومه
ثم ارتدى لباس طلاب العلم بالمدارس الدينية، وأفحم جميع العلماء.

عندئذ علم «سعيد» بأن ذلك العالم الشاب ما هو إلا نفسه.

أي أنه كان في طريقه لمناظرة نفسه فقال:

- «أعلم يا أخي بأمر هذا الشاب وقد فزت عليه من زمن طويل»!

- كيف..؟

- «لأن هذا الشخص هو أنا»!

- أنت..؟ أنت من قمت بمناظرة علماء «سعد»؟

- نعم..وقد أتيت منها للتو!

- ولكنك تقول بأنك فزت عليه!

- «نعم فأنا دائماً أناظر نفسي وأروضاها»..

- اعذرني يا أخي فقد سمعت عنك كثير ولكن لم أرك سوى الآن.

«جمهورية النمل»

قام بوداع الرجل على الطريق.
وعاد إلى «شيروان»، مكث فيها فترة، ثم قصد «تيلو» إحدى قصبات
مدينة «سعد».
كانت نفسه ترنو إلى التأمل وتهتف روحه بالمناجاة.
لزم الزهد فوقر الإيمان في قلبه واستقر.
دائماً ما تُحرك ذاته المكدورة كل الموجودات التي تعكس قدرة الخالق
العظيم.

يرى عيوننا تطل عليه من الأفق. تبعث فيه الرهبة والامثال.
بعدما تفاقمت خطايا البشر.. الذين دائماً ما يشعرون بالأخطار التي
تزحف نحو الحلم الذي يحوم فوق رأسه.. وطالما ودَّ أن يتحقق.
كان أخوه اليافع «محمد» يجلب له الطعام في أثناء فترة اعتكافه التي حفظ
فيها كتاب «القاموس المحيط»، وعندما سأله أحد العلماء عن سبب قيامه بذلك..

أجاب قائلاً:

- «إن القاموس يورد أشكالاً من المعاني لكل كلمة، وقد خطر ببالي أن أضع قاموساً أنحو فيه عكس هذا المنحى أي أورد فيه الكلمات المختلفة التي تشير إلى المعنى نفسه».

مكث في غرفته التي استأجرها بطرف القرية، يرى أسراب النمل وهي تعمل وترفع أثقالاً أضعاف وزنها.

فيلقي لها حبات العدس متأملاً.

وعندما سأله أحد زملائه عن هذا التصرف.

أجابه:

- «إنني معجب بالحياة الاجتماعية للنمل وبنشاطها وجَدِّها ومثابرتها في العمل، وأنا أريد أن أكافئها على نظامها «الجمهوري» وأن أعاونها عليه».

«هتف هاتف»

بات في هذه الليلة تغمره تجليات الصمت التي تحيش في صدره.

جاءه هاتف في المنام يقول له:

- «اذهب إلى «مصطفى باشا» رئيس عشيرة «ميران»، وادعُهُ إلى الهداية وترك الظلم وإلى أداء الصلاة وأوصه بالأمر بالمعروف، فإن لم يستجب لك فاقتله».

وفي الصباح تهباً للسفر متوجّهاً إلى «الجزيرة».

كانت خيمة «الباشا» منصوبةً على قمة تلٍّ ومن حولها المزرعة المترعة بالخضرة والأشجار المثمرة.

يجلس داخلها مجموعة من الرجال طرقت أسماعهم شهرة «سعيد».

سألهم:

- أين «مصطفى باشا» ؟

- يتريض في المزرعة.. تفضل.. سيأتي عما قريب.

وبدأ يتسامر مع الموجودين.

لكنهم كانوا ينظرون إلى بعضهم بعضاً متوجسين من هذه الزيارة المفاجئة.
دلف عليهم «مصطفى باشا»، فهب الجميع وقوفاً عدا «سعيد».
لاحظ «الباشا» ذلك، لكنه كظم غيظه..

جلس وسأل أحد رفاقه:

- من يكون هذا الشاب؟

- إنه «سعيد المشهور» يا سيدي.

سأله متجهماً:

- لما أتيت إلى هنا؟

- لأدعوك إلى الهداية!

تملك الغضب من «الباشا»:

- وإن لم أفعل ما تقول؟

- سأقتلك!

خيم صمت ثقيل على الموجودين.

وأيقن أكثرهم بأن هذه هي نهاية الشاب المتهور.

تمالك الباشا نفسه بجهد جهيد، لكنه لم يتحمل الجلوس في الخيمة أكثر
من هذا.

فخرج يتمتم:

- هذا الولد مجنون لا ريب.

نقوش ... على جدران المنفى

أخذ يتجول في الحديقة غير مصدق ما يحدث ثم عاد ثانيًا إلى الخيمة وسأله
ثانيًا:

- لماذا جئت إلى هنا؟
- «لقد ذكرت لك سبب مجيئي» !
- أشار الباشا إلى سيف «سعيد» المعلق على عماد الخيمة وقال ساخرًا:
- «أتقتلني بهذا السيف القذر» ؟
- «السيف لا يقطع.. اليد هي التي تقطع».
- خرج «الباشا» مرة أخرى من الخيمة وهو يفور من الغضب..
- يحدث نفسه:
- «لم يتجرأ علي أحد من قبل بهذه الصورة. كما أنني لم أقم بإيذاء عالم..
- ولكن هذا الشاب المغرور سيجعلني أغمس يدي في دماء عالم دين، لكن المشكلة
- أنه لم يكن عالمًا عاديًا فهو ذائع الصيت، بدأ الناس يتكلمون عنه بتقدير واحترام،
- وإن قتله سيثير مشاكل كثيرة ضدي» !!
- ثم تفتق ذهنه عن فكرة فرجع إلى الخيمة.
- قال:
- «إن لي علماء وسأهين منازرة بينهم وبينك، فإن غلبتهم فعلت ما قلته
- لي، وإذا لم تستطع سألقيك في النهر»!
- اتجهت العيون وتسمرت على وجه العالم الشاب منتظرين رده.

فأجاب:

- «إنني لا أملك حق الادعاء بأنني سأغلب العلماء جميعًا، كما أنك لا تملك حق إلقائي في النهر، فإن استطعت أن أجيب جميع هؤلاء العلماء، فإني أطلب منك إعطائي «بندقية ماوزر».. لأنني سأقوم بقتلك بتلك البندقية إن لم تحافظ على وعدك».

تمتم الباشا وهز رأسه متعجبًا:

- شاب مغرور.. أنا لا أملك حق إلقائه في النهر وهو يملك حق قتلي..
عجبًا..!

نزل الجميع من المزرعة إلى المدينة في خان «باني خاني» على نهر دجلة- حيث ستجرى فيه المناظرة- وأرسل الباشا رجاله إلى العلماء المعروفين.

وطلبوا منهم التهيؤ واختيار أصعب الأسئلة.

أما «سعيد» فقد دخل غرفته، واستغرق في سُبات عميق ولم يبال بما يحدث من حوله..

فقد أضمّر «الباشا» أن ينزع عنه هالة الشهرة هذه، ويكسر شكيمة.. وبالتالي ينزل عليه عقوبة صارمة.

وبعد ساعات قلائل، عندما فتح «سعيد» عينيه، أبلغوه بأن المجلس منعقد و«الباشا» بانتظاره..

دخل المجلس وسلم على كل الحاضرين ثم جلس.

وبدأت أقذاح الشاي تدور عليهم، وهم مستغرقون في صفحات الكتب، يتهامسون، «سعيد» ينظر إليهم باسماً.

وما إن انتهى من شرب قدح الشاي الخاص به حتى تناول أقداح الموجودين قدحاً تلو الآخر..

و«الباشا» يراقب ما يحدث مذهولاً من هدوء «سعيد»، وتوتر كل هؤلاء العلماء.

قال الباشا ساخراً:

- أيها السادة الشيخ «سعيد» قد شرب قدحه بل وشرب أقداحكم أيضاً..
أتبقون هكذا كثيراً؟

أراد سعيد ألا يخرج «الشيخ» فقال:

- «أيها السادة لقد وعدت ألا أطرح أي سؤال.. لذا أنا موجود للإجابة
عن أسئلتكم فقط».

شعر «الشيخ» براحة من هذا الكلام.. فأقبلوا بطرح أسئلتهم التي
اختاروها بدقة..

وقام سعيد بالإجابة عليها كلها ببراعة فائقة ما عدا سؤالاً واحداً قد أخطأ
في الإجابة عليه ولم يشعروا بذلك..

وعندما انفض المجلس كان قد تذكر الجواب.

فاستوقفهم قائلاً:

- «عذراً يا سادة.. لقد سهوت عن إجابة أحد الأسئلة، الجواب الصحيح
هو كذا وكذا».

نقوش ... على جدران المنفى

وافقوه مذهبولين، وطلب منه بعضهم إلقاء بعض الدروس عليهم..
أما «مصطفى باشا» فقد وفى بعهده وأعطاه البندقية.. ووعدته بالمعاملة
الحسنة..

غير أنه عاد بعد فترة إلى عاداته القديمة.

كان الوقت ضحى والجو غائم.

ضوء الشمس تحجبه غمامات داكنة ثقيلة، وهو يتوجه إلى مدينة «ماردين»، في يده حقيبة سوداء صغيرة فيها متعلقاته، وكانت شهرته دائما تسبقه إلى أي بلد يذهب إليه.

وما إن رأوه، حتى تلقفوه مرحبين ومحتفين، بات حديث المدينة ومثارا لكثير من الآراء منها الصائبة ومنها غير ذلك..

وما لبث أن وشى به أحد الحاقدين عليه عند «نادر بك» حاكم المدينة فخشي أن يتطور الأمر وتنتشر الفتنة بين الأهالي فأرسل في طلبه..

كان «سعيد» يعرف مسبقا ما سيقوله الحاكم..

ولكنه دخل عليه قائلا:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.. تفضل يا شيخ «سعيد».

نقوش ... على جدران المنفى

أجلسه واحترار كيف سيبلغه بأمر إخراجه من البلد.. درءاً للمشاكل ولكنه
تصنع الجراءة.
قال:

- لا بد يا شيخ «سعيد» أن تترك «ماردين»!
- كيف.. هل هي إرث عن أبيك وقد ملكتها أنت الآن؟
- أرجوك يا «شيخ» أنا المسئول هنا عن أمن العباد.
- كلها بلاد الله.. هل تكره العلم والعلماء إلى درجة أن تحكر عليهم
..وتصادر آراءهم..؟

تركه وانصرف معه مجموعة من مريديه من طلبة العلم.
دار بخلده أن يذهب إلى «بتليس» فإن واليها «عمر باشا» محب للعلم
والعلماء وهو رجل مثقف واسع الإطلاع..
ودَّعه أصحابه حتى أول الطريق المؤدي إلى «بتليس»..
وعندما وصل، وعَلِمَ الوالي بوصولِه، أرسلَ في طلبه فتوجه إليه..
ومنذ اللقاء الأول أعجب به وبعلمه.. وأيقن أنه أمام شخص نادر.
أسكنه غرفةً فخمةً في قصره بعد إلحاح منه، أخبره بأن لديه مكتبةً فخمة
كبيرة فيها من كل أصناف الكتب ما يشتهيهِ أي طالب علم..
فمكث «سعيد» عنده عامين استطاع خلالها مطالعة أمهات الكتب
في المنطق وعلم الكلام والتفسير والحديث والنحو والفقه.
ولقدرته الفائقة قد حفظ تسعين كتابًا عن ظهر قلب، كان يراجعها كل
ثلاثة أشهر.

«تجليات الحلم الحائم»

وان «١٨٩٧»

وصلت إليه دعوة من «حسن باشا» والي «وان»، للإقامة في «المدينة» ليستفيد أهلها من علمه الغزير.

وعندما علم «طاهر باشا» بقدمه، توجه إليه على الفور، ورجاه أن يقيم عنده فهو - «طاهر باشا» - يمتلك المكتبة الكبيرة التي تحوي كتب العلوم الحديثة مثل الكيمياء والفيزياء والرياضيات علاوة على الكتب الإسلامية، كما يمتلك مختبراً علمياً، لأنه شغوف بالعلم، ودائماً ما كان مجلسه ملتقى العلماء، وفي هذا المنزل تيسرت له - لأول مرة - كتب العلوم، فأقبل على دراستها بنهم..

وبينما يجلس على مقعد بجانب الأرفف العالية المترعة بالكتب، المرصوفة بعناية فائقة داخل المكتبة الواسعة.

تذكر عندما دخل ذات مرة في نقاش علمي مع أحد أساتذة المدارس، إذ شعر أنه مقصر في هذا المجال - مجال العلوم الحديثة - لذا فقد انكب عليها وأحاط بأسسها.

وساعده ذلك على تأليف كتاب في الرياضيات.. أكلته النار بعد فترة وجيزة من تأليفه.

كان يتناول كل المواضيع العلمية - وليست الدينية فقط - في المجالس التي كانت تُعقد في قصر «طاهر باشا»، وفي المجالس الأخرى، ويجيب عن جميع الأسئلة التي توجه إليه.

ازدادت شهرته لتعدد مواهبه ولذكائه الخارق وقوة ذاكرته حتى أُطلق عليه لقب «بديع الزمان».

ومدينة «وان» مدينة ممتدة.. آفاقها متموجة.. مساجدها شديدة الأناقة بقبابها ومآذنها الرفيعة ودروبها المتشابكة ومنازلها الحجرية والخشبية ذات الأروقة التي يحيط بها دربزيئات من الخشب السميك.

اختر «بديع الزمان» الجامع الكبير الذي يتوسط المدينة، وصنع حلقة للتدريس وكان الطلاب يأتون إليه من كل فج عميق.

كان منهجه في التدريس منهجاً حديثاً إذ كان يستخدم العلوم الحديثة في تقوية براهينه ويوصل معلوماته إلى تلاميذه - الذين يلتفون حوله منصتين - بطرق سهلة غير معقدة.

كان له موعد محدد لا يخلفه، اعتاد تلاميذه عليه، فكان يجلس في وسطهم مرفلاً في جلبابه الأبيض الواسع وعباءته السوداء التي تقصر جلبابه بقليل يعتجر عمامة بنية اللون، تُبرز وجهه الناحل وعينه اللوزتين اللتين تلقيان نظرة صافية عميقة من خلال أهداب كحلاء تشعر في عمقها بحسن طوية، قامته ممشوقة وهيئته هادئة.

يرى أن الخطوة الأولى للإصلاح تبدأ بإصلاح التعليم.. لأنه يرى أن المدارس العادية تدرس القوانين العلمية دون التأكيد على النواميس الإلهية، والمدارس الدينية تدرس العلوم الدينية دون الإشارة إلى العلوم الحديثة؛ لذلك يرى أنه يجب تدريس الدين بجانب العلم لكي لا ينحرف الطلاب إلى الشك والإلحاد- لذا أصبح إنشاء مدرسة إسلامية تجمع بين تدريس الدين والعلوم الحديثة مطمحاً وأمله.

وكان يريد إنشاء هذه المدرسة في مدينة «وان» أوفي «ديار بكر» باسم «مدرسة الزهراء» لتكون شقيقة «للجامع الأزهر» في مصر المحروسة.

كانت القبائل في «وان» في نزاعات مستمرة، يؤدي هذا النزاع إلى إراقة الدماء، وانتشار العداوة والبغضاء، ودائماً تحاول الإدارة الحكومية الصلح بينها لكنها تفشل، لذا كان «النورسي» بما له من محبة في قلوب الناس وتوقير لدى رؤساء القبائل، ينجح في إزالة الخصومات وإرساء الصلح والتفاهم بين الجميع. كان «طاهر باشا» قد عمل على راحته، ووفر له كل السبل التي تساعد على تعليم طلابه والاستفادة من علمه.

فقد هياً له حجرة فخمة في داره تشتمل على أغراض الإعاشة التي تليق بعالم جليل، ودائماً ما كان يخصص وقتاً يجلس فيه معه، يتحاوران ويتناقشان في أمورٍ كثيرة.

كانت «الجرائد» تأتي إلى «طاهر باشا» تباعاً فيتصفحانها ويتابعان الأخبار هنا وهناك ويتناقشان فيها..

وفي إحدى المرات احتقن وجه «طاهر باشا» وأصبح بلون طربوشه الأحمر.

بينما يجلسان في صبح أحد الأيام بعد الإفطار، أغلق الجريدة مستاءً.
فسأله «النورسي»:

- ماذا يوجد في هذه الجريدة يا «باشا» ؟

- إلى هذا الحد وصلت بذاة الرجل ؟

- من هو ؟

- «جلا دستون» !

ومديده بالجريدة إلى «النورسي» ليقرأ الخبر... الذي صرح به «جلا دستون» في مجلس النواب البريطاني.

بيده «مصحفٌ» يلوح به في الهواء ويقول:

- ما دام هذا القرآن في يد المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم، فإما أن نأخذه من أيديهم أو نقطع صلتهم به.

ثارت ثائرة «النورسي» وأعطى عهداً بأن يكرس جهده لإظهار إعجاز «القرآن الكريم» للعالم.

قال بحدة:

- «لأبرهنن للعالم بأن «القرآن» شمس معنوية لا يخبو سناها، ولا يمكن إطفاء نورها».

نقوش ... على جدران المنفى

وزاد هذا الخبر من عزمه على إنشاء «مدرسة الزهراء» التي يستطيع من خلالها تحقيق هذا العهد.

فتهيأ للسفر إلى «استانبول» لعله يقابل المسؤولين ويقنعهم بإنشائها.

وعلى الفور توجه إلى استانبول حاملاً في قلبه الأمل.

أخذ معه رسالة توصية من «يحيى نزهت باشا» إلى أحد الأشخاص القريبين من السلطان.

لكنه ما لبث أن عاد إلى «وان» بعد أن فشل مسعاه، ومكث فيها حتى عام ١٩٠٧ يتابع تحصيله للعلوم الحديثة والدينية والصلح بين العشائر، واستطاع الصلح بين «شكر أغا» و«مصطفى باشا»، وأجل فكرته إلى الوقت الذي يراه ملائماً.

بدأ حلمه الحائم فوق رأسه يتضخم في تجليات الصمت.
مكث طويلاً يفكر في إنشاء «مدرسة الزهراء».
ذهب إلى «استانبول» يطرق الأبواب عليها تفتح له..
عليها تحتضن فكرته..

فكرته التي ستحقق حلمه المحشور داخل تجليات الصمت..
كان الوقت عصراً عندما وصل إلى «استانبول» قاصداً حي «الفتاح».
المساكن ذات القباب معدة إعداداً واحداً، المباني معظمها من الحجارة. المدينة
مزدانة بالأضواء المتألثة، وشوارعها أكثر رونقاً، جميع الحوانيت مفتوحة، مزينة
بأكاليل الزهور ومتألقة من الداخل بالمرايا.

البضائع مرتبة في فن، والمصابيح الملونة تتدلى من الخارج.
التجار يعرضون ما لديهم من لعب أطفال وفطائر وحلوى.
ومحال المجوهرات تتألاً بحليها وتحفها.

نقوش ... على جدران المنفى

الشوارع تعج بالناس.. أطفالاً ونساءً.. الرجال قليلون لأن معظمهم كان في هذا الوقت في المساجد لصلاة المغرب.
تراود أنفه رائحة التوابل والأصباغ والمنتجات التي تزدحم بها الخانات المصرية..

كان قد اقترب من جامع «الفتاح».
لمح الدراويش يدلّفون جماعات إلى الداخل.
وكلما هبط الظلام كلما لاحت أحبال اللمبات المتراسة الزاهية بالألوان، تُحدد ملامح القباب والمآذن المخروطية الرشيقة.
و«استانبول» في حضن الأفق تتألأ بالضيء، والطابع الشرقي هو السائد على كل بيوتها ومنشآتها.
كان متوجساً أن سحر الشرق هذا - مضرب الأمثال - سيتقوض متأثراً بضربات الحضارة.

دلف خلف «الدراويش» من الباب الكبير المواجه للشارع الرئيسي.. وضع حقيبته جانباً.. ثم ركن نعليه في المكان المخصص لذلك، توضأ، خرج والماء يتساقط من وجهه قطرات فضية، وبعد انتهاء الصلاة خرج متوجّهاً إلى فندق «شكرجي» القريب من الجامع.
دفع الباب الزجاجي متخللاً البهو الفسيح المفروش بالسجاد الأزمرلي الأحمر.

به المقاعد الوثيرة المبطنّة بالقטיפيّة الحمراء متراسة بعضها بجانب بعض في نظام وفخامة.

رمى مدير الفندق. بطربوشه الأحمر. وجلبابه الأخضر الموشى بخيوط
لامعة عند الرقبة.

ألقى عليه التحية قائلاً:

- من فضلك أريد غرفة يا أخي.

- ما اسمك؟

- «سعيد النورسي»!

بدا الرجل كالمأخوذ:

- أنت «بديع الزمان» من قرية «نورس».

- «نعم يا أخي.. أتعرفني»؟

- ومن في بلاد الأناضول كلها لا يعرفك.. هاك يا أخي مفتاح غرفتك.

نهض الرجل من مكانه، صافحه مرحباً ومهلاً..

الأضواء تتألق في أركان الفندق وفي ممراته الممتدة يمينا وشمالاً.

سأله:

- ما مدة الإقامة عندنا يا «مولانا»؟

- العلم عند الله.

أشار بيده على إحدى الغرف التي تتوسط الممر بالدور الثاني، ثم فتح
الباب ودلفا معاً.

وقال:

- هذه يا سيدي أفضل غرفة بالفندق فهي تطل على .. ونوافذها..
وشكلها..

قاطعها «الإمام» :

- «يا أخي لا تشغل بالك.. أشكرك على كل حال».

دلف إلى غرفته، هادئة، وفيها الصمت عميقاً، يتوسطها سرير فُرشه
مطرزة مدلى من الأجناب يكاد يلامس الأرض، على الجانب منضدة ومقعدان
من الخشب البلوط.

بدل ملابسه ... ثم أخرج ورقة وضعها على المنضدة، وأخذ يجوب ببصره
جنيات الغرفة.

ثم أمسك بالقلم وكتب عليها: «هنا نُحل كل معضلة ويجاب عن كل
سؤال من دون توجيه سؤال لأحد».

كان هذا الإعلان تصرفاً فيه تحدٍ مثير خصوصاً للعلماء والمفكرين الذين
تعجب بهم «استانبول»..

وبدأ الناس يتوافدون عليه ما بين مصدق ومكذب.

صارت بلبله كبيرة مثيرة...

منهم من يقول بأن هذا الرجل مغرور.

ومنهم من اتهمه بالخبيل قائلاً:

- بأن الإنسان مهما أوتي من علم فهو علم ناقص لأن الكمال لله وحده.

ومنهم من يقول:

- بما أنه لا يوجد إنسان كامل .. غير محمد ﷺ إذن لا يوجد علم كامل .
ولكن الانطباع الذي أجمعوا عليه جميعاً - بعد خروجهم من عنده -
هو أن هذا الشخص عالم غريب نادر لم يروا مثله من قبل .

ذاع صيته، ووصل الخبر إلى «حسن فهمي أوغلو» وهو طالب في مدرسة
«الفتاح» ومن المتفوقين، وقد علم بأمر اللافتة المعلقة على باب غرفته، ظناً
منه بأنه رجل مجنون لاريب، لكن كثرة زواره عليه ولذدت عنده رغبة ملحّة
في زيارته، فقرر أن يختار أصعب وأعقد الأسئلة من علوم العقائد .. وتوجه إليه .
كان الوقت عصرًا عندما فتح «بديع الزمان» النافذة ليطل منها على
الشارع الذي يعج بالمارة، ويتأمل الحوانيت الجانية والتجار والصبيان الذين
يجرون وراء بعضهم يلعبون ويمرحون .

سمع دقًا خفيفًا على الباب ..

وضع طرف الستارة واستدار قائلاً:

- تفضل .

دخل عليه «حسن فهمي أوغلو»، وخلع عن رأسه الطربوش الأحمر،
وضعه على صدره الموشى بصفرة زاهية .

قال:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

- «وعليك السلام يا أخي .. تفضل» !!

نقوش ... على جدران المنفى

جلس «الشاب» على مقعد بجوار الباب، يحدق في «بديع الزمان»، تدور في رأسه أشياء لا يعلم لها تفسيرًا.

حدث نفسه:

- هذا الرجل استشعر فيه الصفاء النفسي والطمأنينة.. هل يمكن أن يكون مجنونًا؟ لا أظن!!

قطع «النورسي» شروده:

- ما هو الموضوع يا أخي؟

- عندي لك بعض الأسئلة!

بدأ يسأل، و«بديع الزمان» يجيب بمنتهى السلاسة.

شعر «حسن أوغلو».. وكأنه قد لازمه في أثناء إعداد الأسئلة، فأجوبته كاملة، وبدأت الطمأنينة تسري في كيانه.

حدث نفسه:

- هذا الرجل علمه ليس كعلمنا.. بل هو علم لديني!

أخرج بديع الزمان خريطة عليها حلمه الحائم فوق رأسه - مدرسة الزهراء- ومكث يتحدث معه عن كيفية تحقيق هذا الحلم.

قال:

- «الدين هو ضياء القلوب، أما العلوم المدنية فهي نور العقول»..

وصلت الإشاعة إلى «مدرسة القضاء». وسرت بين الطلاب بضراوة.

فتوجه «علي همت مصطفى» - الطالب بمدرسة القضاء - إلى الخان الذي يقيم فيه، فوجده متسربلاً في زي غريب.

يقتعد مقعداً بجوار نافذة، يتسرب منها الضوء إلى داخل الغرفة، ليستعين به على القراءة والاطلاع، أمامه على المنضدة كومة كبيرة من الكتب، فأخذ يتناقش معه في الفلسفة وعلوم الكلام.

فاكتشف أنه لا حدود لمعلوماته في الفلسفة الإسلامية. فشهد بأن هذا الرجل جدير بلقب «بديع الزمان».

وما زالت الزيارات تتدفق عليه في الخان. ما إن يخرج من عنده عالم أو طالب علم حتى يدخل غيره، ومن هؤلاء الذين زاروه العالم «حسن أفندي». وبعد أن عاد من عنده قال لطلابه متعجباً:

- لم أشاهد أحد مثله، فهو من نوادر الخلق.

اندس وسط هؤلاء العلماء شخص يلقب «بالزهري»، معروف عنه بأنه يتلذذ بإحراج العلماء بأسئلته السمجة. وبدأ معه بطرح هذه الأسئلة، كان يتلقى الإجابات الشافية عليها.. ومكث هكذا حتى نفذت كل أسئلته. فهب من مجلسه إلى الخارج. خشية أن يطرح عليه «بديع الزمان» أحد الأسئلة.

وقبل أن يصل إلى الباب. سأل «بديع الزمان»:

- «يا أخي لم تذكر لي أنت طالب أم أستاذ؟»

- «إنني طالب يا سيدي».

وانفلت من الباب مسرعاً إلى الردهة وهبط درجات السلم إلى الشارع لا يدري بنفسه.

«الأمَل المُحتَضِر»

١٩

قرر «النورسي» أن يوقظ المعنى الكامن وراء تحقيق أمله في مقابلته
للسلطان.

ألقى بنفسه في كنف الوهم.

تخطمت صرخاته على أعتاب القصر / القهر.

صرخت ذاته:

- «إن مقام الخلافة لا ينحصر في إقامة صلاة الجمعة، فكما إن للخلافة
قدرة وقوة معنوية، فيجب أن تكون لها المقدرة المادية التي تكفل مصالح الأمة
المحمدية في أقطار الأرض جميعاً».

وبعدئذ جاءت التصاريح اللاذعة متدفقة على صفحات الجرائد والمجلات.

جاء الشيخ «جمال الدين أفندي» يقول:

«إنني لم أرَ حتى ذلك اليوم من استطاع أن يشرح رأيه بهذه الشجاعة في حضرة السلطان».

وتساءل أحدهم متهمكاً :

وما معنى هذا ؟ ألا يجب أن تكون هناك شجاعة في حضرة عظمته ؟ هل يجب أن ينظم فيه الشعر ويمجد في شخصه، ثم تُقبل عطاياه وتُقبل الأيادي ويتقهقر الإنسان محني الظهر مطأطئ الرأس أمام سلطانيته ؟ ألم يقرأ عظمته هذه التصريحات في الجرائد.. ألم يشعر بالغيرة عظمته وهو سلطان البلاد والعباد ؟ مثلما حدث مع هذا العبد الفقير إلى الله «بديع الزمان» ؟ ويتحمس لرأي عالم من علماء الأمة الأجلاء ؟ أم هو زهو السلطة.. فقط حضور الحفلات..؟

واعتبرت الحاشية أن هذا الطلب جرأة من رجل مجنون لا بد أن يودع في مستشفى الأمراض العقلية.

«نواقيس الخطر»

كانت الشمس مشتعلة في الفضاء.. في الشوارع، في الخانات والحوانيت،
وهم يأخذونه في حراسة مشددة إلى المستشفى.

يزفون حلمه الوليد إلى الهلاك. ويقولونه:

«ها أنت رجلٌ عالمٌ إذن فأنت مجنون وخطر على الأمة».

بينما «بديع الزمان» يُزف في شوارع استانبول إلى مستشفى الأمراض
العقلية.

قال أحدهم:

- أعجب بها من حقيقة !

يتخللون التلال إلى شارع المساجد، الذي يشكل الشريان الرئيسي
للمدينة وينتهي بالأسواق الكبيرة، وعلى طوله حدائق رائعة، وأروقة متقطعة،
ونافورات رخامية ذات سياج مذهب، وبوابات، ومآذن دبوسية عديدة، تلوح
تحت ضوء النهار المائل للزرقة بلون البحر.. وتتألق أمام عينيه - التي تجوب
الشارع كمن يبحث عن شيء قد فقده - الكتابات الذهبية، والرسوم المطلية

بالألوان، والزينات التي تعلوها أكاليل الورود، مضافية بهجة على الحداثق، ذات اللون الأخضر القاتم، التي تتمايل فيها أغصان الكروم، المعلقة على التكايب العالية.

قال أحد الحراس:

- تفضل يا سيدي.

- ماذا؟

- من فضلك.. ادخل كي يقوم الطبيب بإجراء الكشف عليك!

دلف «بديع الزمان» إلى غرفة هادئة ساكنة، جلس أمام الطبيب وقد تجلت في عينيه نظرة حزينة:

- ما اسمك..؟

- «بديع الزمان سعيد النورسي».

نظر الطبيب إلى الحارس، واحتقن وجهه وقال بلهجة عنيفة:

- من فضلك.. انتظر بالخارج!

خرج الحارس وهو يبرطم، تركهم بالداخل ووقف أمام الباب قلقاً.. لحظات ثم فتح الباب فجأة.

فنهزه الطبيب وقال:

- ماذا تريد؟

- أن أبقى معكم!

- لا يصح.. من فضلك حتى أنتهي من كتابة التقرير.
خرج الحارس ثانية ثم عاد وقد كتب الطبيب التقرير وأودعه في مظروف
وأعطاه إلى الحارس.

وتتم:

- قبحكم الله.. وهل تنهض الأمم إلا بمثل هؤلاء الرجال!

- ماذا تقول؟

- من فضلك أعط هذا التقرير إلى حاشية السلطان.

وجاء في هذا التقرير ما يلي:

- «لو كانت هناك ذرة واحدة من الجنون عند «بديع الزمان»، فمعنى ذلك
أنه لا يوجد على وجه الأرض كلها عاقل واحد».

ومكث «النورسي» شاردًا كالمأخوذ:

- ها أنت يا «بديع الزمان» تطرق شوارع أوهامك وأحلامك.. تنظر
في وجوه شائثة.. مسوخ جوفاء، لا يتعظون من تجاربهم ولا من تجارب الآخرين.
هذه الرحلة هل هي وهم؟ هل ستنتهي أيضا إلى الوهم؟ أم إلى أحضان الألم؟
وشعر بناقوس الخطر يطل عليه من عيون المدى الغامض!!

أرسلوه إلى «لجنة التفتيش العسكري».

حيث جرت هذه المحاوراة بينه وبين «شفيق باشا» الذي يجلس مباهياً في إيوانه أمام مكتب كبير، ويضع عليه طربوشه الأحمر ذا الزر الأخضر الزاهي، وعلى صدريته المقفولة حتى الرقبة صفان من الأزرار والنياشين المذهبة اللامعة وعلى أكتافه الرتب تضوي في الضوء المتسرب من النافذة الكبيرة المطلة على بهو فسيح في رواق القصر.

اتكأ بظهره وقال بأنفة:

- «إن السلطان يخصك بالسلام مع مرتب بمبلغ ألف قرش وعندما تعود إلى بلدك يجعل مرتبك ثلاثين ليرة كما أرسل لك هدية ثمانين ليرة»..

ومد يده بكيس تصلصل بداخله النقود

نظر إليه «بديع الزمان» مستاءً وتجلت في عينيه الصافيتين نظرة متحدية.

قال:

- «أنا لم أكن أبداً متسول مرتب، ولن أقبله ولو كان ألف ليرة،

نقوش ... على جدران المنفى

لأنني لم آت لغرض شخصي وإنما لمصلحة البلد، فما تعرضون عليّ ليس سوى رشوة السكوت».

قال «شفيق باشا» بصوت تشوبه نبرة تهديد ووعيد:

- إنك بهذا ترد الإرادة السلطانية..والإرادة السلطانية لا ترد.

هز «بديع الزمان» رأسه وقال بثقة بالغة:

- «نعم.. إنني أرد كي يستاء «السلطان» ويستدعيني، عندئذ أستطيع أن أقول له الحقيقة»

قال «شفيق باشا» بنبرة ملؤها التهديد :

- إذن العاقبة ستكون غير سارة !

أراد «بديع الزمان» أن يفحمه ويكسر شكيمته.

فقال:

- «تعددت الأسباب والموت واحد، فلئن أُعْدم فسوف أرقد في قلب الأمة، علما بأنني عندما جئت إلى «استانبول» كنت واضعاً روعي على كفي».

ثم أشاح في وجه «الباشا» الذي احتقن وجهه وأكل الغيظ قلبه.

وقال مردفاً:

- «اعملوا ما شئتم فإنني أعني ما أقول.. إنني أريد أن أوقظ أبناء الأمة وأقوم بهذا العمل لأنني فرد في هذا البلد».

ثم أردف ساخراً:

- «لا لأقتطف من ورائه مرتبًا، لأن خدمة رجل مثلي للدولة لا تكون إلا بإسداء النصائح، وهذه لا تتم إلا بحسن تأثيرها، وهذا لا يتم إلا بترك المصالح الشخصية، فإني معذور إذن عندما أرفض الراتب».

بدا الباشا متوددًا:

- «إن ما ترمي إليه من نشر المعارف في بلدك هو موضع دراسة في مجلس الوزراء حاليًا».

قال بديع الزمان بهدوء:

- «إذن فلم يتأخر نشر المعارف ويُستعجل في أمر الراتب، لماذا تؤثرن منفعتي الشخصية على المنفعة العامة للأمة؟»

وفي هذه الفترة ظهرت آراؤه بوضوح في الإصلاح والدعوة، ولآرائه تلك حاولت جمعية «الاتحاد والترقي» الاتصال به وكسبه إلى صفها، إلا أنه فوت عليهم الفرصة، ووصفهم بأنهم المعتدون على الدين والدائرون بظهورهم إلى الشريعة.

وعندما أعلنت «المشروطة الثانية» ألقى خطبة شهيرة في ميدان «الحرية» في «سيلانيك» شرح فيها المفهوم الصحيح للحرية، وأنها الحرية الشرعية، أي الحرية التي يرسم الشرع حدودها، وليست الحرية الفوضوية التي لا ضابط لها. مؤكداً اقتباس العلوم التي تغذي التقدم دون أخذ الجوانب السلبية في الحياة الاجتماعية للغرب.

وفي «استانبول» طلب «عمانويل قره صوه» - رئيس «المحفل الماسوني» وعضو مجلس النواب العثماني - مقابلته طمعاً في التأثير عليه وجره إلى صفه باعتباره شخصية مشهورة وقبل «بديع الزمان» مقابلته، ولكن ما لبث أن خرج من عنده قائلاً:

- «لقد كاد هذا الرجل العجيب أن يزجني بحديثه في الإسلام».

حضر إلى «استانبول» في هذا الوقت العالم المعروف الشيخ «بخيت المطيعي» مفتي الديار المصرية، وظن البعض أنه سيكون من الظريف أن يقوم - هذا العالم الجليل - بمناظرة «بديع الزمان» فلعله ينجح فيما لم ينجح فيه علماء «استانبول» فيلزمه الحجة.

وعرض هذا الأمر على الشيخ «بخيت المطيعي» فلم يمانع، وفي أحد الأيام في مقهى قرب جامع «آيا صوفيا» بعد صلاة العصر ذهب الشيخ إلى هذا المقهى، وكان «النورسي» موجودًا به ومعه لفيف كبير من العلماء..

ألقى عليهم التحية، فهبوا جميعًا لاستقباله بحفاوة، أجلسوه وسطهم، منتظرين نتيجة هذا اللقاء.

قال الشيخ «بخيت» موجهًا كلامه لـ «بديع الزمان»:

- «ما قولك عن الحرية الموجودة الآن في الدولة العثمانية وعن المدنية الأوربية؟»

فأجابه «بديع الزمان»:

- «إن الدولة العثمانية الآن حبلى بجنين أوروبا، وستلد يومًا حكومة مثلها،
أما أوروبا فهي حامل بالإسلام وستلد يومًا ما».

أعجب العالم المصري بهذا الجواب الدقيق والعميق.

والتفت ليقول إلى من حوله:

- «إنني أوافق على ما قال، لأنني أحمل القناعة نفسها، ولا يمكن
المناظرة مع مثل هذا الشاب، لأن مثل هذا الجواب الوجيز والبلغ خاص
بـ«بديع الزمان».

«خروج يأجوج ومأجوج»

«حادثة ٣١ مارس ١٩٠٩»

كان الليل قد انتصف، ولف الظلام «استانبول» في طياته الحالكة. عندما انفجر الجنود المتربصون في معسكر «طاش قشله» المحاط بأسواره العالية، المحصنة بأبراج في زواياه، يقبع فيها جنود مدججون بالسلاح، وعليه لمبات كاشفة، ترسل ضوءاً كثيفاً في الفراغ، مخنوقاً بسبب سحب الضباب الهابط بضراوة على التكنات المستطيلة والأسطوانية المسقوفة بالصاج المضلع.

انتفض «الجنود» نفضة واحدة مرتبة ومُتفقاً عليها. شاهرين أسلحتهم، على رؤوسهم خوذات من الحديد رافلين في زيهم الأخضر المرقط ببقع داكنة، يتعللون أحذية سوداء برقبة طويلة.

هشموا أبواب الغرف، انقضوا على مبيت الضباط والقواد وهم يغطون في سبات عميق، متحررين من زيهم الرسمي وأسلحتهم.

كان الضوء في الغرف خافتاً والسكون عميقاً، غير أن هناك صفيراً يتداعى من المدى للصرابير ونباح الكلاب التي تملأ الشوارع. سعيًا وراء رزقها في أكوام القمامة.

نقوش ... على جدران المنفى

قسموا أنفسهم مجموعات، دلفت كل منها غرفة، بعضهم شهر سلاحه، والبعض الآخر قام بتكبييل أيديهم خلف ظهورهم، غير أن هناك البعض «ناضورية» على الأسوار والبوابات، دفعوا الضباط أمامهم متوجهين إلى سجن المعسكر العمومي.

ساقوهم أمامهم، يلکزون من يتقهقر بفوهة البندقية في ظهره، فينكب على وجهه أو يسقط مغشياً عليه من هول المفاجأة.

حبسهم جميعاً، فامتلاً السجن بهم، وتزاحموا فوق بعضهم البعض. تغورهم مفتوحة مذهولون مما يحدث، أغلقوا عليهم الباب الحديد الكبير الأسود.

يقبع في الداخل بعض الجنود الذين ينفذون عقوبة المخالفات التي ارتكبوها في المعسكر.

كان السجن مضاء بلمبة صغيرة، مدلاة من السقف، تبعث ضوءاً داكناً، يصبغ الحيطان بلون الدم الفاسد، يثير قشعريرة في النفس والبدن، وما إن انتهوا من حبسهم جميعاً حتى تدفقوا إلى ساحة «سلطان أحمد».

الريح تعصف بالأشجار، والسحب الداكنة تُحلّق فوق رؤوسهم، منذرة بهطول المطر الأسود، على كل أسطح المدينة الساكنة، التي تقف مبانيها في جمود وترقب، كما لو كانت لها عيون حجرية ترقب الخطر الزاحف عليها من المدى.

وما إن انشق الليل عن ضوء خافت يرتعش، ممزوج مع أبخرة كثيفة تلف ضوء الأعمدة المتناثرة في الساحة وتخنقها، حتى تجمع جنود «أوجي طابوري» في وسطها، ورفعوا فوهات بنادقهم في المدى، وانطلقت دفعات من النيران

العشوائي، كسر حدة الصمت الذي يلف المدينة في غلالة رمادية مشبعة
برائحة البحر.

فُزع الأهالي على دوي الطلقات. انتابهم ذعر وهلع، طففوا يتخبطون،
لا يدرون ماذا يحدث في المدينة الخالدة.

يقول أحدهم:

- هؤلاء هم الروس.. نعم فالروس يتحرشون بنا ويؤلبون علينا العشائر
على الحدود.

ويقول آخر:

- لا... الغرب بأكمله قد هجم علينا، فهم يريدون تفتيت دولتنا المترامية
الأطراف.. حتى يسهل عليهم تمزيق أوصالها ورسم حدود جديدة.. حسب
أهوائهم وأطماعهم.

ارتفعت الشمس برأسها في الأفق، ولاحت الوجوه الشاحبة تظللها
الغيوم التي تحجب ضوء الشمس.

خرجت الأصوات من الحناجر متحشجة صائحة:

- نريد الشريعة... نريد الشريعة.

عندئذ أيقن الأهالي أن «يأجوج ومأجوج» ما يزالون في محبسهم، ولم يأت
الروس بعد.

وقال أحدهم:

نقوش ... على جدران المنفى

- أن هؤلاء ما هم إلا بعض من ذوينا وإخواننا، الذين يتألمون من الأمان والسكينة، ويفرحون لإراقة الدماء والسعي إلى ارتداء عباءة الذل والهوان، وإشعال الفتن والمكائد.

سمعتة الناس فلبثوا في ديارهم جاثمين.

قام المتمردون بإرسال وفود منهم إلى معسكرات الجيش الأخرى في أطراف المدينة وخارجها يطلبون منهم الالتحاق الفوري بهم.

بالفعل تم التأثير على بعضهم والتحقوا بهم. كما التحق بهم بعض المدنيين وطلبة المدارس الدينية والصوفية.

وما كاد ينتصف النهار حتى طار الخبر إلى القصر، وعلم السلطان «عبد الحميد» بالأمر.. فزع وحزن من هذا التصرف الأهوج وأرسل لهم كبير كتّابه، وكان رجل فطن يرتدي زيه الرسمي، يعتجر طربوشه الأحمر ذا الزر الحريري الأخضر.

توجه من فوره إلى ساحة «سلطان أحمد» على ظهر عربة يجرها زوج من الخيل يججلون واحدًا بجانب الآخر.. ومعه بعض الحرس يلتفون حوله، وما إن لمح المتمردون حتى سكن كل في مكانه..

تقدم رهط منهم، وجوهم عبوسة، عيونهم منهكة حمراء .

قال قائدهم متجهماً:

- من أنت ؟

- أنا كبير كتّاب القصر.

- ماذا تريد ؟

- أرسلني السلطان «عبد الحميد» لأبلغكم بأن الشريعة بخير، ولم يجرؤ أحد على مسها أو التقليل من شأنها، ويجب أن تطمئنوا وتؤمنوا بذلك.. ويرجوكم أن لا تثيروا الشغب والمشاكل في البلد حتى لا تسري النار في الهشيم. حلقوا في وجوه بعضهم البعض. قال قائدهم بحدة :

- لا.. لا توجد شريعة والسلطان هو السبب في إثارة هذه المشاكل. بدأ الغضب يتملك الرجل.. قال:

- ومن تكونون أنتم.. هل أنتم حراس الشريعة..؟
- ماذا؟

- نعم هناك علماء ورجال دين هم الذين يحرسونها أما أنتم فلستم حراسها.

أشهر القائد سلاحه في وجه الرجل وصاح:
- اسمع أيها «الكاتب». نحن لنا مطالب يجب أن تتحقق، تذهب على الفور إلى «السلطان» تبلغه بها!
- ماذا تريدون؟

أخرج من جيبه ورقة وتلا عليه قائلاً:
- أولاً- «تغيير الصدر الأعظم «حسين حلمي باشا».
ثانياً- «تغيير وزير الحربية «على رضا باشا».
ثالثاً- «تغيير قائد الفرقة الأولى «محمود باشا مختار».

رابعاً- «تغيير رئيس مجلس المبعوثان «أحمد رضا».
خامساً- «نفي الاتحاديين من البلد وإعادة ضباط «آلايلي» إلى الخدمة».
سادساً- «العفو عن جميع المشتركين في التمرد لأنهم لا يقصدون سوءاً»!..
تملك الانفعال من الرجل، وتحجر سواد عينيه وصك نواجزه.. قال:
- حسنا سأبلغ «عظمة السلطان». وهو من يرى الأمر فيها يحدث الآن.
وأشاح عنهم بوجهه ونظر إلى حُراسه، أوماً إليهم بالانصراف.
اعتلى ظهر عربته ذات الفرسين، جذب السائق سير السرعة، انطلق في
الشارع تدق العجلات الخشبية قطع البازلت الأسود المرصوص بعناية فائقة،
ومن خلفه عربات الحرس متوجهين إلى القصر.
لم يكن عند المتمردين مثقال ذرة من صبر حتى يعلموا برد السلطان على
مطالبهم.

فانتشروا يفتشون عن رئيس مجلس المبعوثان وعن الصحفي
«حسين مجاهد يالжин»، لكنهم ضلوا وغشيت أبصارهم غمامات، جعلتهم
يقتلون وزير العدل «ناظم باشا» عندما خيل إليهم بأنه «أحمد رضا باشا».
وقتلوا الأمير «محمد أرسلان» نائب «اللاذقية» عندما خيل إليهم
أنه «حسين مجاهد».

حلقت في سماء «استانبول» طيور سوداء شوهدت الصور.

دقت في الأفق نواقيس الخطر.

هبّت رياح مسمومة أعمت العيون والبصائر.

نصب المتمرّدون «الأكمّنة» على منعطفات الطرق، وفي أنهار الشوارع المترعة بالسيارة.

وضعوا كُتلاً من المتاريس بغير الشارع عدا فتحة صغيرة لا تسمح سوى بمرور فرد واحد، وعلى إثر ذلك امتدت الطوابير بطول الشارع، وازدحم بالمارة الذين انتابهم الهلع والتوجس.

خلف هذه المتاريس يقبع المتمرّدون مدجّجين بأسلحتهم متحفزين. يقف على هذه الفتحة الصغيرة أحدهم يحرق في وجوه الناس المتراسة من الأطفال والنساء والرجال والهلع يكسوها. فكانت النساء والأطفال يُسمح لهم بالمرور دون أن يسألهن عن أي شيء أما الرجال فيوقفهم سائلاً:

- «هل أنت ضابط متخرج في الكلية الحربية» ؟

- نعم.!

نقوش ... على جدران المنفى

فينظر إلى أحد القابعين خلف المتاريس ويومئ برأسه في إشارة متفق عليها، فيصوب على رأسه أو صدره فيرديه صريعاً، ويأتي اثنان يجرونه من يديه ويلقونه في مكان مخصص لتجميع القتلى.

وعندما تصير كومة كبيرة. تأتي عربة تحملهم إلى مشواهم الأخير..

أما إذا كان السؤال:

- «هل أنت ضابط من خدمة «آلايلي» ؟

وجاء الجواب:

- نعم.

فإنه يمر بسلام مصحوباً بدعوات الشكالى المرتجفات..

مكثوا على هذا الحال حتى ضاقت الشوارع بجثث الصرعى، من ضباط «الكلية الحربية» .

تملك الغضب الجارف من «السلطان» عندما علم بأمرهم.
ارتفع صوته يدوي في جنبات القصر وثار تائرتة..
الضوء ساطع في غرفات القصر وأروقتة، الوزراء والأمرء وكل المسؤولين
يدلفون مهرولين ويخرجون مذعورين.
امتلاً «الجراچ» بعرباتهم.

بات «السلطان» صاحب العصمة والكلمة محمومًا بالشك القاتل
والسخط.. اقتعد مقعده العالي على رأس منضدة مستطيلة، يجلس حولها
أصحاب السلطة والمتحكمون في شئون البلاد والعباد يتشاورون، يفكرون ماذا
سيفعلون لإخماد هذا التمرد الذي جاء على حين غرة!!
فكان رجال مخابراته يأتونه بأخبار كاذبة عن الرعية وشئون البلاد، ويشعر
بأنهم ليسوا أهلاً لثقتة، لذا كان في أغلب الأحوال لا ينصت إلى أقوالهم.

لكن حُضور السلطان الفَطن جعله يكبح جماح ثورته، ويخمد النار المضرمة في صدره ويلبي لهم مطالبهم، حقناً للدماء التي فارت، وملاّت أنهار الشوارع. أسفرت الجلسة الطارئة - التي عقدوها في القصر - عن بعض التنازلات. بدل «الصدر الأعظم»، قام بتعيين «توفيق باشا» بدلاً منه. غيرَ «وزير الحربية» بل وقائد «الفرقة الأولى» نزولاً على رغبة المتمردين.. بعث إليهم رسولاً يبلغهم، وانتظر متوجساً وقلقاً. لم تستجب قوات المتمردين لما فعل «السلطان». ولم تلبث مدينة «سلانيك» أن انهالت على قصر «يلدز» بالبرقيات التي تتهم «السلطان» بأنه هو المدبر لهذا التمرد للقضاء على «المشروطة الثانية» التي تحميها «جمعية الاتحاد والترقي». اشتعلت الفتنة واستشق سُمها الجميع. فقد وجدت - جمعية الاتحاد والترقي - المناخ مهياً تماماً بأنه يجب عليها حماية المشروطة لإثارة القلاقل ضد السلطان.

لم يجد السلطان مفرًا من إرسال قوة من «سلانيك» للقضاء على هذا التمرد، أطلق عليها اسم «جيش الحركة» تحت قيادة «محمود شوكت باشا» لم تكن جيشًا نظاميًا. برغم وجود الجنود الأتراك. غير أنها كانت تضم جنسيات مختلفة من «البلغاريين والألبانيين ومن يهود مدينة السيلايك».. ولم يكونوا سوى أعضاء للعصابات المقدونية. التي مكثت تحارب «الدولة العثمانية» طوال سنوات عديدة..

غشي القلوب هم وكآبة بعدما لاحت في الأفق إشارات الخطر.

اعتلى «الاتحاديون» الكرسي. وتمكن بعض أتباعهم من نخر هيكل
الإمبراطورية لكي توزع أملاكها على الدول الاستعمارية، حتى تأتي الفرصة
سانحة لتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين..

وبات سلطان الزمان مهير سلطانه، وتلاشت معارضته المستميتة لهذه
الأطماع..

اتخذت حركة التمرد هذه ذريعة لرفض طلبه في تأليف لجنة تقوم
بالتحقيق، وجاءوا بأخيه.. سلطاناً جديداً للبلاد والعباد، وجلس «محمد رشاد»
على الكرسي يأتمر بأمرهم.

توارت نفسه تحت وطأة شرهم المستطير، واستلم بقايا إرث قديم.

«الأنشودة البائسة»

٣٠

عندما مات السر بين يدي السلطان، بدؤوا يتخلصون من خصومهم بعدما اتخذوا لهم لغة مشوهة وجماهير تصفق.

قام «النورسي» بنصح الجنود باحترام أوامر ضباطهم، نجح في عودة بعضهم إلى الرشد، ولكنهم قد حلوا «الاتحاد المحمدي» الذي قد تكون في السابق.

كانت مقالاته في جريدة «وولقان» تلهبهم وتكشف ما يسترونه.. لذا كان في مقدمة الأنشودة البائسة التي أعدوها له.

دبروا له محاكمة فريدة من نوعها.. محاكمة في قاع الجحيم.

ومكث يحاكي الفضيلة في كل ما يرى، وهم يعدون له المصيدة المروعة.

وقرروا أن يزينوها له بالجنث التي تتأرجح في أعمدة المشانق.

أردوا أن يروعوه وهو يُحاكم.. حتى ينهار ويحبو أمامهم لتنفذ رغباتهم المحمومة.

وأضحت الديار أمامه صامته وحزينة.

تحرك الأنين بداخله:

- يا ويحنا .. نحن من نقتل أنفسنا بأيادينا، ونحن أيضا من نحزن لقتلنا أنفسنا.

لا بد وأن هناك كابوسًا يسيطر على الجميع.

وفي هذه الليلة التي سقطت من حساب الزمان.

انقضوا عليه في مهجعه.

هب فزعًا:

- ماذا تريدون؟

- هلم معنا دون أي كلام.

صمت قليلًا وهو يتسهم ساخرًا وقال بحكمة العقلاء:

- نعم أعرفكم فأنتم أيادي الموت.. الأيدي النابتة من أجسام غير أجسامكم.. تستمدون الأوامر من أدمغة غير أدمغتكم.. هيا إذن ولكن اتركوني حتى ألمم أشلائي..

نقوش ... على جدران المنفى

بدون وعي تقهقروا للوراء وقال رئيسهم وقد زاغت عيناه:

- أجل يا سيدي.. ارتد ملابسك وها نحن بانتظارك!

نهض «بديع الزمان»، توضأ وصلى ركعتين ثم ارتدى ملابسه.

وهامت نفسه في سحابات المدى:

- «من يستطيع أن يكشف الأسرار.. غير الواحد القهار» ؟



- نعم أعرّفكم بأنتم أيادي الموت..
هيا إذن ولكن اتركوني حتى أُللم أشلائي.

نقوش ... على جدران المنفى

من ينجينا من أنفسنا إن لم نلتزم بأمور ديننا ؟
الصمت يتمدد، ويلف المدينة في ثوب خرق.. الليل رطب، والسحب
تزحف كالقطيع الهائم على وجهه دونما توقف.
قال بتؤدة ووقار:

- قد انتهيت.

أخرج أحدهم قيدًا حديدًا يصلصل.
مد «النورسي» يديه، أدخلهما الجندي داخل الأساور وأغلقهما. قال:
- هيا بنا.

ركبوا عربة تجرها الخيول كانت قابعة في انتظارهم..
هو في الوسط وأحدهم عن اليمين والآخر عن الشمال وخلفه ثلاثة
عيونهم ترقب كل كبيرة وصغيرة تحدث أمامهم.
صرخت ذاته:

- «أواه..من يمسك بهذه السماء التي تظلنا ؟

الشوارع رطبة ومبللة بالندى، الضباب المتكاثر يهبط بضراوة، يغطي
واجهات الخانات والمنازل، ويتلع رءوس أعمدة الإنارة، فيخنق الضوء المنبعث
من اللمبات الصفراء الباهتة.

الكلاب تسعى لاهثة تتشمم رزقها في الأزقة والدروب..

جذب قائد العربة السُرْع فوقفت أمام باب المحكمة العسكرية..

هبطوا جميعاً متخللين الرواق المحاط بأشجار السرو.
ارتقوا درجات السلم المهشمة إلى داخل البهو.
أخرج أحدهم من جيبه مفتاحاً وهُرع أمامهم يفتح باباً أسود كبيراً.
دلفوا جميعاً إلى داخل القاعة الفسيحة.
فتح أحدهم القفص الحديدي، زج به داخله ثم أغلق الباب.
جلس «الإمام» على دكة خشبية، يرنو إلى القاعة.. أعمدة منحوتة وأخرى
مبنية، وأروقة كثيرة.. المقاعد متراصة، السقف قبو عميق، والحيطان مصبوغة
بلون داكن، النوافذ مُسلحة بقضبان حديدية سميكة.
كانوا قد خرجوا وتركوه في القفص حتى ينبلج الصباح وتنعقد الجلسة
العسكرية.
طافت خواطره جنبات القاعة الساكنة.
ملأت تبتلاته رحابة الأفق..
تَكَشَّف الظلام وهو يرنو ببصره من النافذة.
هب من مكانه فزعاً حينما رأى الجثث مدلاة من أعمدة المشانق في ساحة
المحكمة.
صارت عيونهم جاحظة ورءوسهم منكفئة.
يا ويحنا.. هل هذا هو الإنسان؟

«دوامات الصمت»

تردد السر الغامض في فراغ روحه:

- «هل صُمَّتْ آذان قلوبهم؟

هكذا تمزق المستور أمامه.

تدفقت بداخله تجليات الصمت المريع:

- «يا ويحنا كيف نللم أشلاءنا من القفار؟

خرجت الشمس من بحر الظلام اللجي، وأرسلت خيوطها في المدى،
عانقت السر الأبدي في دوامات الصمت، وتفتحت الدنيا في رفق.

وهنا في هذه المحكمة تتداعى أحداث التاريخ والحكمة.

بدأت المدينة تنبض بالحياة الرتيبة.

شعر بدبيب الأقدام في الأروقة المجاورة..

أصوات تتعالى وهمسات متداخلة.

فُتِحَ باب القاعة على مصراعيه.

بدأ الناس يتوافدون، منهم من يلقي عليه التحية وهو منكمش داخل القفص، ومنهم من يدور ببصره بحثاً عن مقعد في المواجهة كي يرى ويسمع بوضوح..

اكتظت القاعة عن آخرها..

أتاه زملاؤه وطلبته يعضدونه، معهم بعض المحامين الذين تطوعوا للدفاع عنه.

غمغمات الناس تدوي، يهمسون، يتكلمون بكلمات غير مفهومة.

هاهي أفواه تُفتح وتُغلق يتطاير منها الرزاز الأبيض.

وهاهي الرؤوس قد تراصت معتجرة بطرايش حمراء.

الأجسام محشورة في أزياء ملونة على اختلافها..

صخب وضجة لا تخمد لمدة ليست قصيرة.

زعق الحاجب :

- محكمة..؟

انتفض الجالسون وقوفاً..

وعاد الصمت يرفرف بأجنحته على رؤوس الناس حتى انكمشوا في مقاعدهم مبهورين.

دخل أعضاء المحكمة صفّاً.. رافلين في زيهم الأسود، وعلى صدورهم أوشحة خضراء، وعلى أكتافهم الرتب تضوي في الضوء الهزيل المتسرب من النوافذ الواسعة، ممزوجاً بذرات الحق المسلوب التي تتطاير من عيونهم الحارقة.

نقوش ... على جدران المنفى

جلس «خورشيد باشا» في المنتصف، وعن يمينه مستشاره الأول،
وعن يساره مستشاره الثاني، وأمين السر جلس في ركن قصي.

أمامهم على المنصة أوراق وملفات القضية، يحملق فيهم «النورسي» بثقة
بالغة وشفته تتمم بآيات «الذكر الحكيم».

سمت نفسه حباً إلى ما فوق السحاب.

رأى في عيونهم آثار شريعة الغاب.

تلوح على وجوههم سحبات رمادية.

«أين أنت أيها السر الكامن وراء المعاني الغامضة».

نعم فالأحرار قد روعوا كل الطغاة على مر العصور.

وفي كل مكان على ظهر الأرض.

وكم من محاكمات نصبت.

ومشائق أعدت.

ومقاصل فصلت.

ورصاصات اخترقت أجساداً خلد أصحابها في أسفار التاريخ.. وورد

ذكرهم جميعاً في حكايات الأولين».

وقف مواجهًا لهيئة المحكمة ثابتًا واثقًا..

فقد تملك حسن الظن «بالعلي القدير» من كل ذرات جسمه الواهن..
خرجت من عينيه نظرات التحدي إلى المنصة أحرقت جلودهم، كشفت الوجوه
الشائهة التي تواري عبوسهم.

حدجه «خورشيد باشا» ثم نظر يمينًا ومال برأسه على مستشاره وغمغم في
أذنه، ثم مال بجسمه على الشمال وغمغم في أذنه أيضًا، ارتسمت على وجوههم
الثلاثة ابتسامة بلهاء، اعتدل في جلسته ونظر إلى «النورسي».

قال متهكمًا ومتوعدًا:

- أنت كنت تطالب بالشرعية؟

وأشار بيده إلى النافذة حيث الجثث تتدلى على المشانق.

وتصرخ لاعنة إياهم.

وأردف قائلاً:

- انظر.. من يطالب بها يشنق هكذا!

نهض بعض الجالسین فی مواجهة المنصة وقدم نفسه على أنه جاهز للدفاع عن السيد «بدیع الزمان سعید النورسی»، فلم یرد علیه «خورشید باشا».

فنهض «النورسی» یشیر بأصبعه إشارة تعني: بأنني أنا من سيدافع عن نفسه. وقال:

- أشکرك يا سيدي.

وأردف:

- «إنني طالب علم، لذا فإنني أزن كل شيء بميزان الشريعة، والإسلام وحده هو ملتي، لذا فإنني أقيم كل شيء من وجهة النظر الإسلامية».

ثم صمت برهة وأردف:

- «إنني إذ أقف في عالم البرزخ الذي تدعونه «السجن» منتظرًا قطار الآخرة في محطة أعواد المشانق، منتقدًا الأحوال الغادرة للمجتمع الإنساني».

«فإنني هنا لأخاطبكم وحدكم بل لعلّي أخاطب بني الإنسان أجمعهم».

وتدفقت الفيوضات على حضوره الذكي، وشعر بأصداء كلماته تتعانق مع السر الأبدي في المدى الأسطوري.

وأردف متحفزًا:

- «إنني متهيئ وبكل شوق للرحيل إلى الآخرة».

وأشار بيده إلى الجثث المدلاة على أعواد المشانق من خلال النافذة. قال:

- «ومستعد لأن أرحل مع هؤلاء المشنوقين»..

«فمثلي هو مثل البدوي الذي سمع عن «استانبول» وعن مباهجها، لكنه لم تتيسر له رؤيتها، فهو في شوق شديد إليها».

ثم أكمل متأثراً وترقرقت الدموع في عينيه:

- «كذلك فأنا في شوق لرؤية الآخرة وعالمها العجيب».

وأشار بيده إلى فضاء قاعة المحكمة:

- «إرسالي إليها لا يعد بالنسبة لي عقاباً ولا تعذيباً.

«ولكن إن كان في مقدوركم تعذيبي وإيقاع العقوبة بي فعليكم أن تجدوا لي عذاباً قلبياً وعذاباً ضميرياً».

ثم قال بثقة بالغة :

- «وإلا فإن أي عقاب آخر لن يكون عقاباً لي بل فخراً».

يخرج الكلام من فمه مفنداً كحلّم رائع يتجسد، وهو ينظر إلى جمهور القابعين في مقاعدهم مندهشين، ينصتون إلى ما يقوله باهتمام بالغ.

وأعضاء هيئة المحكمة وعلى رأسهم «خورشيد باشا» منكمشون في مقاعدهم مذهولين حدقاتهم مفتوحة، مكبلون بسحر الكلمات التي يقولها، فتهبط على أجسامهم تلهبها كالصواعق.

نظر إليهم وهم مشدوهون، وتجددت كلماته الجريئة:

- «إن هذه الحكومة - وقتذاك - كانت تعادي العقل.

أما الآن فإنها تعادي الحياة بأكملها، فإذا كان هذا هو شكل الحكومة ومنطقها».

ودق بيده على قضبان الحديد السوداء المحيطة به وهو داخل القفص:

نقوش ... على جدران المنفى

- «فليعيش الجنون»، «وليعش الموت»، «ولتعش جهنم للظالمين و للطاغين».

كانت كلماته تقرع عقولهم وأذهانهم.
كبلتهم المفاجأة فلم يستطع أحدهم أن يستوقفه.. بل أنصتوا إليه باهتمام.
ثم قال مردفًا:

- تقولون: «لقد دعوت أنت أيضا إلى الشريعة»..
وأشار بأصبعه على صدره:

- وأنا أقول: «بأنه لو كان لي ألف روح لكنت مستعدًا للفداء بها في سبيل حقيقة شرعية واحدة».

«ذلك لأن الشريعة هي السبيل الوحيد للسعادة وهي العدالة المحضّة وهي الفضيلة».

«الشريعة الحقّة وليست الشريعة التي طالب بها المتمردون».
ثم أخذ نفسًا عميقًا:

- «تقولون: هل انضممت إلى «الاتحاد المحمدي»؟ وأقول:
نعم «وبكل فخر، فأنا أصغر فرد من أفراد هذا الاتحاد، ولكن بالصيغة التي أعرفها، ومن الذي يرضى أن يبقى خارج هذا الاتحاد سوى الملحدّين..
أروني من؟»

ثم استشهد بهذه البيت الشعري العربي:
إذا محاسني اللاتي أدلُّ بها كانت ذنوبي فقل كيف أعتر؟

وشعر «بديع الزمان» بأنه خارج قضبان الأسر، يعتلي المنصة، وجاءت مجموعة من الجنود الانكشارية. زجوا بـ «خورشيد باشا» و«مستشاريه» بل وبأعضاء الحكومة جميعاً داخل القفص، وضع على صدره الوشاح الأخضر. قال:

- «إن كانت «المشروطة» تعني مخالفة الشريعة واستبداد جماعة معينة». ودوى صوته في المدى، أيقظ على إثره الرائح والغادي. قال:

- «فليشهد الثقلان أني رجعي ذلك لأن الاتحاد القائم على الكذب، كذب أيضاً، والمشروطة القائمة على أسس فاسدة ومفسدة، مشروطة فاسدة، ذلك لأن المشروطة الحققة التي لها الدوام هي المشروطة القائمة على الحق والصدق والمحبة وعلى أساس لا امتيازات فيه»..

انقشعت رائحة الليل من على المدينة.

تلاشت سحببات الضباب من على الأشياء في الخارج وفي الداخل أيضا.

شعر أن فيوضات إيمانية تدفقت عليهم داخل القفص الذي زج بهم داخله.. وتقرفصوا فيه مذعورين.. ينتظرون مصيرهم المجهول، وأن أعواد المشانق المنصوبة في الخارج ستطوق حبالها رقابهم الغلاظ.

مزقتهم أسوار العجز وهم يطرقون شوارع الوهم الذي يجول بخواطهم التي تتخبط في دياجير كلماته التي تلسع عقولهم..

ولا يزال السر يعانق الحقيقة، وتغمر القاعة نفحات إيمانية جعلت قلوب الجماهير وجلة، وأبدانهم مقشعة، وعيونهم حبلى بالدموع الفضية الالهية.

قال واثقا:

- «سوف أقول الحقيقة فقط، ولن أجنب الحق أبداً، ذلك لأن مقام الحق سام ولن أضحي به لخاطر أحد، لذا لن يصرفني عن ذكر الحق لومة لائم..

لقد كانت هذه الحركة موجهة على الأكثر ضد «الاتحاد والترقي» وضد استبدادهم ودكتاتوريتهم، كما كانت ترمي إلى تبديل وتغير الوزراء الذين كانوا محل نقاش وجدال بين الفرقاء والأحزاب، وإنقاذ السلطان المظلوم من الخلع الذي قد تقرر وصمم عليه».

تملكهم الهول مما يقول.. بعدما ألبسهم عباات موشاة بذنوب اقترفوها في حق البلاد والعباد، متجمدين في أماكنهم، يتبعون كلامه الذي يدوي في قاعة المحكمة.

قال مردفاً :

- «منع وإنهاء التعليمات والتلقينات التي لا تليق مع الآداب العسكرية ومع الآداب الدينية.

»والكشف عن قاتل السيد «حسن فهمي» بعد أن تم تضخيم موضوع اغتياله».

«وتسوية موضوع الضباط «الايلي» الذين أخرجوا من الخدمة العسكرية وإنصافهم. ثم الوقوف ضد التصرفات السفهية ضمن مفهوم الحرية، أي تحديد الحرية بالآداب الشرعية، ثم القيام بتطبيق الحدود الشرعية التي لا يفهم العوام منها سوى قطع اليد».

ثم جال بخاطره أن يكشف المستور ويجلي الحقائق التي قام بها «الاتحاد والترقي» باسم المدنية.

ولتعرف الجماهير شيئاً عن هذه الحقيقة:

نقوش ... على جدران المنفى

- «إذا كانت المدينة هي التطرفات التي تمس الكرامة الإنسانية وتعتدي عليها، وهي هذه الافتراءات التي تؤدي إلى النفاق، وهي هذه الأفكار التي تغذي الحق والانتقام وهي هذه المغالطات الشيطانية والتحلل من الآداب الدينية، إذا كانت هذه هي المدينة»..

وأشار بيده على رءوس الأشهاد:

- «فليشهد الجميع بأنني أرجح وأفضل قمم الجبال الشاهقة في الشرق في بلدي، وأفضل حياة البداوة في تلك البلاد.. حيث الحرية المطلقة على موطن النفاق الذي تسمونه أنتم قصر المدينة».

واستحضر بعضاً من الشعر العربي فقال:

ولولا تكاليف العُلا ومقاصد غوال وأعقاب الأحاديث في غدٍ
لأعطيت نفسي في التخلي مُرادها وذاك مرادي مذ نشأت ومقصدي
وأكتم أشياء ولو شئت قُلتها ولو قُلتها لم أبقٍ للصالح موضعاً

شعر أعضاء هيئة المحكمة بالخزي أمام «بديع الزمان».

فقد اتهمهم بجرأة وبدل الأمكنة..

فقال «خورشيد باشا» خاشعاً:

- الحكم بعد المداولة..

وهب عن مكانه نافرًا متوجهًا إلى غرفة المداولة وفي إثره مستشاريه وعيون
الناس تُراقبهم وجلة.

خرجوا بعد لحظات وجلسوا في أماكنهم وهم ينظرون إلى الأوراق التي
أمامهم، يقلبون فيها بعشوائية..

لحظات ونطق «خورشيد باشا» بالحكم قائلاً:

- أيها السادة.. بعد ما قيل من السيد «بديع الزمان سعيد النورسي» أشهد
أمامكم بأنني اقتصعت بما عرضه على هيئة المحكمة.. مما جعلني أدين له بالاعتذار
وبناءً على ما تقدم..

«قد حكمت المحكمة بموافقة جميع أعضائها على براءة السيد
«بديع الزمان سعيد النورسي» من جميع التهم الموجهة إليه، ويخلى سبيله فوراً».
رفعت الجلسة.

تعطرت أجواء القاعة بكلمات ولفترات الود بين الناس.
زينت الابتسامات الوجوه، وتسربل الناس بغلالة حلم جميل.
عناق حميم في المدى، وغمغيمات التهليل والرضا..
وما إن انفرجت قضبان الأسر وتحرر «النورسي» حتى تلقفته الأحضان
وتساقطت عليه ابتسامات الصدق والطيبة.



شعر أعضاء هيئة المحكمة بالخزي أمام «بديع الزمان»، فقد اتهمهم بجرأة وبدل الأمانة.

«عيون الحياة»

«وان ١٩١٠»

تفتحت عيون الحياة أمام ناظريه في رفق.

وهو يغادر «استانبول» متوجهاً إلى مدينة «وان» ، فالدفء يسري في كل الأشياء من حوله، تجليات الصمت تعتمل في صدره الرحب. نظرات عينيه الفيروزييتين العميقتين تودع المدينة الخالدة. تسايح الأشجار والكائنات تندفق في أذنيه فينشرح صدره، وتعلو وجهه بشاشة وثقة بالنفس.

أصبح ضيفاً عزيزاً على العشائر في «وان».. يلقي عليهم دروساً، يرد على أسئلتهم، يصحح بعض المفاهيم البالية.

يعلمهم أمور دينهم.

تفتق ذهنه عن فكرة جمع هذه الأسئلة وشروحها وأجوبتها ووضعها في كتاب يُطبع ويتنفع به الناس موقناً بأن عمر الكتاب أطول من عمر صاحبه.

وهكذا يستفيد منه من لم يستمع إلى كلام صاحبه.

وبالفعل أطلق عليه اسم «المناظرات» .

كان موسم الشتاء يلقي بظلاله على كل شيء عندما فكر أن يتوجه إلى الشام لزيارة شقيقته وزوجها، وكانت زيارة ميمونة..

لم يكن يتوقع بمجرد أن يبيت أولى لياليه أن الخبر سيطير إلى أهل «الشام» جميعاً، ويتقابل مع العلماء ويحتفون به أيما احتفاء.

قاموا بدعوته لزيارتهم، وعندما يحل المساء تُعقد جلسات العلم الذي يذهب بهم جميعاً كل مذهب..

فتفتق ذهن أحدهم عن أن يستفيد أكبر عدد من أهل الشام من علم هذا الرجل الذي أوتي حسن الكلم وأوتي تفسير الأشياء بأسلوب لم يعهده أحد.

وكان الموعد قبل صلاة الجمعة والمكان «الجامع الأموي» بساحته الواسعة وأشجاره الظليلة وأقبيته ومآذنه الشاحخة.. وقف «بديع الزمان» على منبره المزركش بتؤدة ووقار غير متهيّب من الجمع الخفير الذي يتجاوز العشرة آلاف أمامه..

حمد الله وأثنى على رسوله الكريم.

ثم قال:

- لقد تعلمت من واقع الحياة الاجتماعية، ومن الواقع الذي تعيشه البشرية في يومنا هذا، أن هناك ستة أمراض قاتلة، جعلتنا نقف على أعتاب القرون الوسطى ونتوه في مسالكها المظلمة، في الوقت الذي طار فيه الأجانب - ولاسيما الأوربيون - بخطى سريعة نحو المستقبل، وهم يتسابقون في ميادين الرقي والتقدم العلمي.

ثم سكت لحظات وهو يحول ببصره في أرجاء المسجد الفسيح ويرنو إلى صفوف الجالسين المنصتين بهلع الاشتياق إلى كلمات الرجل الأسطورة الذي تسبقه شهرته إلى أي مكان يذهب إليه.

تنهد وأردف:

- وهذه الأمراض هي..

أولاً- «حياة اليأس الذي يجد فينا أسبابه وبعثه».

ثانياً- «موت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية».

ثالثاً- «حب العداوة».

رابعاً- «الجهل بالروابط النورانية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض».

خامساً- «سريان الاستبداد، سريان الأمراض المعدية المتنوعة».

سادساً- «حصر الهمة في المنفعة الشخصية».

واستطرد في خطبته حتى النهاية، وبعد ذلك.. قاموا بطباعتها في كراسة
باسم «الخطبة الشامية».

عاد إلى منزل زوج أخته في لفيف من العلماء الذين علموا بأنه سيغادر
في الصباح إلى «استانبول».. فكانت فكرة إنشاء «مدرسة الزهراء» تراوده
وتتوحش بداخله.

«استانبول (١٩١١)»

٤٠

توجه بعد صلاة الفجر إلى «بيروت».. ومنها إلى «استانبول» عن طريق البحر.. جلس على ظهر المركب يراقب الطيور الشريفة التي تحوم في الأفق، والأمواج تتلاطم وتدفع برائحة اليود المشبع بشذى الرطوبة إلى صدره، كان الجو مضيقاً، المركب يمتدح عباب البحر إلى تحقيق حلمه الحائم فوق رأسه ولم يفارقه قط .

كان الوقت عصراً عندما وصل، وبدأ اتصالاته مع الجهات المعنية بتحقيق حلمه.

وبالفعل قد أخذ وعداً من السلطان «محمد رشاد» حيث خصص تسعة عشر ألف ليرة ذهبية لإنشاء «مدرسة الزهراء» وأرسيّت قواعدها. وكان قد أُنتخب «بديع الزمان» ممثلاً عن الأقاليم الشرقية ليتمكن من مصاحبة السلطان في سفره إلى «رومي».

«الذي يرى الحرب العالمية، لا بد أن يشيب»

لم تكن أمانيه في قبضته.

بدأ لهيب الأيام يتبلور قطعاً من جمرات الغضب تثور في ثنايا الوطن.

اشتعلت الحدود وهبت رياح الخطر من المدى تنذر بالويلات.

أجهضوا أمله في إنشاء «مدرسة الزهراء». المدرسة التي طالما حلم بها،
شقيقة «للجامع الأزهر».

تبدد حلمه فوق الغيوم .

المعنى الذي طالما سعى إلى تجسيده تلاشي..

قال أحدهم:

- كيف يتجسد الحلم ؟ وذرات الحقد تنمو.. وجرثومة الحرب ترقص

على الحدود رقصتها الأبدية !!

حقاً ما أكثر التعساء الذين صنعوا بأياديهم جبال مشانقهم!

نقوش ... على جدران المنفى

وما أعجبها من حقيقة !!

أن نكون نحن من نجلد أنفسنا بأيدينا...!!

وما أسهل أن نبدد آمالنا وأحلامنا!! ثم نصرخ.. أغيثونا...!!

وما أكثر أيادي الموت التي تمتد، لتحطم طموحنا بعدما سيطرت علينا
آلامنا!!

تتدافع بداخله الفيوضات لتحرك تجليات الصمت.. حتى ينطق بالكلمات
والمكتوبات واللمعات والغايات النبيلة..
هتف أحدهم:

- هيا اجمعوا كل الباحثين عن خلاص الإنسان في كل مكان، واحبسوهم
داخل ساحات الشر وغابات الألم..حتى ينفرد الطغاة بالمقهورين ويزيدون من
قهرهم وألمهم !! وهم ينطلقون إلى السماء، على أمل أن تكون العاجلة قريبة..
لأنها هي الخلاص الوحيد أمامهم. بعدما امتدت أيادي الموت لتخطف آمالهم.

عُين «بديع الزمان» قائداً للفدائيين عندما هبت رياح الخطر.
ترنحت السياسة الخارجية، ثم تفاقمت الأحقاد وصارت طاعونا يلتهم
الكل.

اعتجر قلنسوته وانتعل حذاءه الأسود ذا الرقبة الطويلة على حلته
العسكرية ذات البنطال الواسع ذي الكسرات، المغروس في رقبة حذائه الواسعة،
والسترة الطويلة السوداء الموشاة بزخارف على الصدر والأكمام. والحربة المعلقة
على خصره.. يمتطي جواداً أبيض بلون الثلج.

بدأت عصابات الأرمن تتلظى بنار الحقد. يغيرون على القرى والقبائل،
يذبحون الناس جميعاً، وينهبون كل ما تقع عليه أعينهم، يحرقون الأخضر
واليابس، عمت الفوضى القرى والدروب.

علت ألسنة الدخان لتعانق غمام القهر الذي يجثو فوق الصدور.

نقوش ... على جدران المنفى

كانوا يكونون سحابات كالجراد في المدى وينقضون على الديار الصامته..
يبطشون ويسطون.

وكان «النورسي» قد عين في مؤسسة عسكرية سرية، اسمها «التشكيلات
الخاصة» بأمر السلطان، تضم أشهر رجال الفكر.
وما لبثت أن أصدرت هذه المؤسسة فتوى الجهاد بعدما اجتمع أعضاؤها
الخمس، وكان أحدهم «بديع الزمان».

أرسل «أنور باشا» في طلب «النورسي» على وجه السرعة بعدما تفاقمت أخطار الأرمن المغيرين على العشائر في الشرق.

توجه إليه من فوره مع صديقه «الشيخ حبيب»، طلب منهم تكوين جبهات لصد هؤلاء الأرمن.

فجمع طلابه حوله وجمعاً غفيراً من الأهالي الذين يتلظون بنار الانتقام من جراء الخراب الذي ألم بهم، وكانت مدرسة «خورخو» هي قلعتهم التي يحتمون بها ويتدربون فيها على فنون القتال..

كان الشيخ «حبيب» يصنع لهم علامات يصوبون عليها حتى أتقنوا التصويب.

يجلسون في المساء في إحدى الغرف المترعة بالجند ويأخذ «النورسي» يشرح لهم تفاصيل خطة لتلقين الأرمن درساً قاسياً..

تهياً طلابه.. وكان أمامه - «بديع الزمان» - على الجهة الأخرى جيوش الروس الذين لا حصر لهم، ففكر أن يبدأ بإيقاف عصابات الأرمن.

نقوش ... على جدران المنفى

نصبوا لهم أكمة متفرقة وأعدوا لهم حُفراً، وأكواما من الحطب الغارق بالنفط، وما إن سمعوا ديب خيولهم وصخب فرسانهم حتى تهيئوا، في انتظار إشارة «النورسي».

انزلقوا إلى الفخ، انقض عليهم الفدائيون وحمل الوطيس.

طارت الرؤوس، انهمرت دماؤهم كالشلال على أكوام الثلوج المتراكمة.. قتلوا منهم الكثير وأسروا الباقي، وقرر فرسانه قطع رقابهم، فهرول «النورسي» مدعوراً ومنعهم حتى أرسل إلى كبيرهم ليتسلمهم، وفي جلسة صلح مهينة كان «النورسي» فيها هو الأعلى، أمر زعيمهم بوقف القتال، فوافق ممتناً له وبهذا قد تمكن - النورسي - من حقن الدماء.

وبرغم هذه الظروف التي يقاسيها قام بتأليف كتاب «إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز» باللغة العربية. وهو يمتطي سهوة جواده.

ويملي على الشيخ «حبيب» هذه التجليات التي تأتيه من عمق الصمت ترنيمات نورانية، تعانق السر الأبدي، والفيوضات تتدافع بداخله.. تمزق المستور في أرض المخلوقات العجيبة.

أنهى كتابة جزء من هذا الكتاب.. ثم أنهى الجزء الباقي في الخندق، بينما طلابه يعتلون قمم الجبال في نوبات الحراسة الليلية.

دخلت الدولة العثمانية بجانب ألمانيا في مواجهة الروس، وقد أعلنت الحرب العالمية الأولى.. وكانت قوات «النورسي» قد بلغت خمسة آلاف جندي من المتطوعين - بخلاف الجيش النظامي - الذين قاموا بالتدرب الشاق من أجل مواجهة الروس على جبهة «القفقاس».

«الشر المستطير»

٤٤

«جبهة القفقاس - الحرب العالمية الأولى - ١٩١٥»

تطايرت الشرور وتفاقت الأخطار.
وأُنذر المجهول بأهوال ونفثات الأبالسة والشياطين.
وبدأت ظلال الكوايبس الراقصة في المدى على أكوام الثلوج التي فرشت
الأرض بياضاً.
ها هي الأيام القادمة تنذر بهول الألم.
زحفت الجيوش سحابات زرقاء، متدفقة على الجبهة الثلجية، متحصنة
بأعدادها الغفيرة، ومعداتها الثقيلة وتركيزها المتدفق.
أمامها فرق صغيرة من المتطوعين وبعض الفرق المنظمة التي تفرق
بقيتها في جبهات شتى لكن «الجيش العثماني» أبدى بطولة في المقاومة أمام هذه
الحشود الطاغية.
تعانق الأئين مع السر الأبدي الذي يبحث عن الحقيقة الكامنة في عمق
الأشياء..

نقوش ... على جدران المنفى

الحقيقة الكامنة في عمق الكلمات.

الحقيقة الكامنة في عمق اللمعات.

تلاشت البشاشة من على وجه الأيام.

ذهب الغد السعيد إلى ما وراء الشفق الأحمر.

ينتظر قدوم الفارس الذي يمتطي صهوة جواده الأبيض ذي الأجنحة،
تطير عمامته البيضاء في الهواء، وهو يشق المدى كالسهم، تتساقط حبات عرقه
الماسية اللاهبة على كومات الثلوج، وهو ينفث زفيره المشبع ببخار الماء لهيباً..
وبيده بندقية، وعلى وسطه سيف يتأرجح داخل غمده.

هتف الأنين بداخله:

- ألم يفكر هؤلاء في الغذاء والكساء؟ ألم يخطر ببالهم أن الأمهات الثكلى
ستنفطر كمدًا على أولادها الذين ستغطيهم الثلوج حتى يوم الفزع الأعظم؟
لم هذا البذخ على الحروب وهناك في شعوبهم من لم يجد ثمن الدواء،
وأطفالهم محرومون من ثمن لعبة تفرحهم.

هل هذا من وصايا آدم لأولاده؟.. أو هو إرث عن «قابيل» ذاك القاتل
العريب؟ الذي احتار في أن يوارى سوء أخيه!

وما إن تهتز بداخلهم جرثومة السفاح حتى تجد العدة والعتاد جاهزة
لسفك الدماء وهتك العرض!

كان الفدائيون والجيش والأهالي يؤخرون الاندفاع إلى العمق، وما لبثوا أن دخلوا إلى مدينة «أرضروم».

كان برفقة صديقه الشيخ «حبيب» داخل الخندق على مشارف المدينة، ممسكًا بسلاحه، جالسًا القرفصاء ورفيقه يحتضن بندقيته.

كانت النجوم تتلألأ في الظلمة الثقيلة، والمدى يشتعل بدوي طلقات المدافع التي تتداعى فوق رؤوسهم بكثافة.

الجنود القابعون في الخنادق المتناثرة من حولهما يتقهقرون.

كان الجو يشتعل بإضاءة القذائف التي تهبط بجوارهم في بعض الخنادق تحصد جموع الفدائيين من تلاميذه ومن الأهالي.

يشعرون بالغبطة عندما تذهب إحداها سدى بعد أن تُلقِي في قلوبهم الرعب.

تعلو وجه الشيخ «حبيب» شوائب سوداء من آثار المعركة.

تبسم «النورسي» وهو يرت على كتفه.

قال:

- «ماذا تقول يا شيخ «حبيب»؟ .. إنني لن أختبئ من هؤلاء الملعونين!!»

شعر الشيخ «حبيب» بأنه يث القوة في عضده.

فقال بنبرة فيها إخلاص :

- «وأنا لم أتخل عنك، ولن أراجع».

وبينما يتبادلان أطراف الحديث، سقطت قذيفة على مقربة منهما.

حملقا فيها وقال النورسي:

- «هيا نتقدم إلى الأمام.. إن قذائف هؤلاء لن تستطيع قتلنا، لن نتدنى إلى

درك التقهقر إلى الخلف».

وعقد العزم هو وتلاميذه أن لا يتركوا المدينة أو يهلكوا دونها.

ولكن القيادة العسكرية الرسمية أمرتهم بترك هذا المكان والانسحاب

إلى قصبة «كواش».. لحماية الأهالي الفارين من مدينة «وان» إثر هجوم فرسان

«القازاق» المغيرين عليهم.



ينتظر قدوم الفارس الذي يمتطي صهوة جواده الأبيض ذي الأجنحة.
تتطاير عمامته البيضاء في الهواء ، وهو يشق المدى كالسهم.

امتطى صهوة جواده وسابق الريح إلى مدينة «وان» عندما علم بوجهة الروس إليها.. واتخذ قرارًا بإخلاء المدينة قبل أن يدخلوها وبذلك يكون قد أنقذهم من مذبحة محققة على أيدي الروس.

وبدأت الفلول تتجه إلى المدينة وكان قد لحق به زملاؤه.. يحمون الأهالي ويزودون عنهم.

وعلى حين غرة جاءت رصاصة الغدر لتأخذ في طريقها الشيخ «حبيب» فخر شهيدًا أمام عيني «بديع الزمان» الذي احتضن رفيق دربه وخضب دمه ملابسه.

أنطقت ذاته المكدورة.

أخذ يبكيه خلف أسوار العمر والسنين:

- «يا إلهي من يستطيع أن يكشف الضر»؟

مات كثير من طلابه الذين حملوا القلم والسلاح.

أقسم برب السماوات والأرض وما بينهما لألقنهم درسًا لن ينسوه.

وأمر الفدائيين أن يتظاهروا بالهزيمة ويفروا منسحبين أمامهم، مما أغرى الفلول الروسية بالتقدم خلفهم تطاردهم.. وإذا ما اطمأن الفدائيون إلى أن عدوهم قد دخل المنطقة السهلة التي تحيط بها الجبال من كل جانب.. حتى استداروا وأحاطوا بهم ليبيدوهم عن بكرة أبيهم.

شعر الرجال بزهو الانتصار، وجاء أحد الفدائيين ليبلغ «بديع الزمان» بأن الجيش الروسي قد استولى على ثلاثين مدفعًا من مدافع الجيش المتقهقر.. وعلى الفور جمع رجاله.

سألهم:

- «من يأتي معي لاستخلاص هذه المدافع من أيدي الروس»؟

تطوع ثلاثمائة شخص معه.. وانتظروا حتى يغطي الظلام كل شيء وانقضوا على موقعهم.. وخلصوا المدافع..

فداعت شهرة «بديع الزمان» وجاء ذكره في كل الكتب الأجنبية التي تابعت تلك المواقع الحربية التي نقشَت بطولة هؤلاء الرجال على جدران الزمن المنهار.

بدأت جحافل الروس تتقدم للاستيلاء على بعض المناطق حتى وصلوا إلى مشارف «بتليس»، وبدأت الحكومة بإخلاء الدوائر الرسمية ونقلها إلى أماكن أخرى.

انتاب الأهالي ذعر شديد، وبدءوا أيضا يفرون ويهاجرون إلى الأماكن الآمنة البعيدة من هول هذه الحرب الضروس.

كانت الثلوج قد تراكمت وأصبحت عائقاً كبيراً خصوصاً للأهالي المذعورين، وأصبحت الأمور خارجة عن السيطرة.

بعض الأهالي يتركون أولادهم تحت أقبية الجسور، معهم بعض الطعام لعجزهم عن مواصلة المسير بهم.

وهكذا فرقتهم أسوار العجز.

تمزقت قلوب الأمهات بين دموع الأطفال وصراخهم، وهم يتركونهم يواجهون مصيرهم وحدهم وسط هذا الجليد المترام.

كانت الطرق وعرة وحوافر الخيول تغوص في الثلج، أصبحت عائقاً أمام الأهالي.

جحافل الروس تتقدم نحو «بتليس» من ناحية، والأهالي يفرون من ناحية أخرى.

عمت الفوضى وهم يحملون أثقالهم وأطفالهم.
يساعدون الشيوخ والأطفال والنساء.. كانت الثلوج تجمد أطرافهم وهم ملفوفون في كومات من الملابس على أجسامهم وعلى رؤوسهم.
«النورسي» يمتطي صهوة جواده، يراقب هو وطلابه المشهد القاسي، يحاولون مساعدتهم، وتخفيف العبء عنهم بل ويدودون عنهم إذا ما تعرضوا لغارة أو هجمة.

وبينما يسيرون صفًا طويلاً على الطريق.. لمح النورسي إحدى الأمهات تحمل في صدرها طفلة، ويتشبث في ثوبها آخرون.. وكلما تقدم للأمام كلما رأى على جانبي الطريق أطفالاً تصرخ وتبكي، وآخرون يمسكون في أيديهم كسرات الخبز يقضمونها مبلة بدموعهم، وعيونهم تراقب فقط، لا يفقهون مما يحدث أمامهم شيئاً.

بدأ الناس يتخففون من أثقالهم / أطفالهم..

أوقف جواده بجانب أحد الجسور الذي يتفرع منه الطريق الرئيسي إلى طريقين أحدهما إلى اليمين والآخر إلى اليسار.

وجد أمامه أسرة كبيرة يبلغ عدد أطفالها سبعة مع أمهم وأبيهم وامرأة عجوز، من الجائز أن تكون جدتهم.

فتح الأب حقيبته، أخرج منها بعض الطعام، وزعه على خمسة من الأطفال، رفع أصغرهم على كتفيه وجرجر الأكبر بقليل من يده، وترك الخمسة

نقوش ... على جدران المنفى

أطفال تحت قبة الجسر معتقداً بأن هذه القبة ستحميهم من الثلوج أو أنه لا بد أن يأتي لهم من سينقذهم.

وهم يصرخون وعلى وجوههم هلع الفراق:

-أبي..أبي.. لا تتركنا هنا يا أبي!

عينا الأم تنزف دموعاً حارقة وهي ترنو إليهم عاجزة، وهم يمدون أياديهم الصغيرة.

- أُمي..أُمي لا تتركينا يا أُمي نحن خائفون..

واصلوا سيرهم وتركوا الأطفال تحت قبة الجسر يصرخون، يدوي صراخهم في المدى، الأمهات ينتحبن.

تفجر الأنين بداخله هاتفا:

- من ينجيننا من الهلاك؟ من يستطيع أن يكشف السر؟

وفرقتهم أسوار العجز والحرمان.
 مزقتهم أيادي الموت التي تطال كل شيء.
 ندت عن أحدهم صرخة:
 - يا ويحنا إن لم نبحث عن الخلاص!..
 بل ما أتعسنا إن لم نحطم غمام القهر القابع فوق صدورنا، الرابض لنا على
 منعطفات الطرق، وفي الهواء الذي يخترق أجسامنا.
 - أين هم الباحثون عن الخلاص؟..
 - لماذا لا يهربون من حدائق الشيطان، وغابات الشر التي حُبسوا فيها؟
 - هل هم أيضا عاجزون؟ صامتون؟
 بقي «النورسي» في «بتليس» مع طلابه للذود عنها..
 اتخذوا لهم مبنى قديما، له سراديب تحت الأرض جدرانها من الحجارة
 الكبيرة، وله غرف واسعة تسع الخيول والعتاد.. الإضاءة فيه خافتة حرصًا
 منهم، حتى لا يتمكن الروس من كشف مخبئهم..
 وزعوا أنفسهم على عدة مخابئ في المدينة الصامتة إلا من دوي طلقات
 المدافع ونباح الكلاب.

جلس «النورسي» بين طلابه.. يشرح لهم كيفية الانقضاض على الجيش المنظم، وأيقن أن هؤلاء - الروس - لا يمكن أن يتلاحم معهم في قتال مواجه.. بل هو قتال متفرق ومفاجئ..

ينقضون كالصقور على الدوريات في الشوارع وعلى مخازن المؤن التي اتخذوها من بيوت المدينة.. إذن فهي حرب شوارع.. حرب عصابات متفرقة. تعتمد على الكر والفر.

وبالفعل أخذ طلاب «النورسي» مواقعهم في مساء هذه الليلة، التي يتحرك فيها القمر مظللاً بالغيوم الرمادية.. يتحسس طريقه لينفذ بين الثغرات فتزداد المدينة ضياءً مختلطاً مع ضياء طلقات المدافع..

اعتلوا الأسطح، تربصوا خلف النوافذ.. وانطلقت فرقة منهم في الشارع الطويل.. أثارت زوبعة بديب خيولها..

انتبه الروس، التقموا الطعام، وبدءوا يطاردونهم في الشارع، وفي لحظة متفق على إشارة معينة فيها، انطلقت الأعيرة كسهام الغضب، من النوافذ، ومن أعلى الأسطح، كالسيول المتدفقة، جعلت جثثهم تملأ نهر الشارع وفر الباقون مخلفين وراءهم العتاد والسلاح..

فهبط «الطلاب» من مكانهم، حملوا ما يقدررون على حمله واختفوا جميعاً في أثناء الظلام.

انبلج الصبح على المدينة الصامته.

وسكن الألم كل شيء.

عدا الأشباح التي تتقاذف هنا وهناك.

دوت بداخله صرخات الصمت:

- هل يكون هذا هو الإنسان؟ الإنسان الذي يتشابك بالقنابل والأنين
مع أخيه الإنسان.

- الإنسان الذي أوقع بنفسه تحت وطأة القهر ونير الطغيان.

صارت المدينة ساحات للألم..!.

- آه.. أين أطفالنا الذين كانوا يملأون الميادين صخبًا ويمرحون بألعابهم
في الشوارع والأروقة؟

- ها هي أشجار السرو ترتجف.

نقوش ... على جدران المنفى

تنطلق أصداء الأساطير السكرى.. من الحداثق، ومن الأغصان التي
تحتضن الشرفات.

لا يمكن أن يكون هذا هو الإنسان!! هذا مخلوق تعس.. أرهق نفسه
بنفسه.. حول ساحات الأمل المترعة بضحكات العذارى إلى ساحات للألم
وسكن الحزن قلوب الصغار!

هبط الليل بضراوة قطعاً سوداء..
 وبدا ضوء القمر هزياً محزوناً.
 اشتعلت المدينة أنينا وحزناً!
 تدفقت النيران من كل صوب وحذب.
 أصبحت الجدران مشوهة والنوافذ مهشمة.. والجدر هاوية.
 يهرول «بديع الزمان» مع أحد أصدقائه متوايين.. يصوبان بنادقهم وسط
 الوطيس الذي ألقى بظلاله الكثيفة.
 اتخذوا موقعاً لهما بجوار خزان المياه الذي يتوسط المدينة البائسة.
 أمام إحدى البنايات التي احتلها الروس..
 انهالت النيران كثيفة في اتجاههما..
 لم تسعفهما بندقيتهما أمام عشرات البنادق المصوبة نحوهما..
 أصيب «بديع الزمان» ووقع في حفرة مليئة بالماء المتجمد أسفل الجسر.

صرخت ذاته المكدورة عندما كسرت ساقه ونزف الدم الأحمر القاني من
جرح عميق في كتفه..

سكنا.. خلع صديقه قميصه بعدما ركن بندقيته جانباً.

اتخذنا ساتراً، أخذ يللملم آهاته وتوجعاته.

مكثا هكذا محاصرين لمدة يومين لم يستطيعا أن يهربا..

طلب «النورسي» من صديقه أن ينجو بنفسه فرفض الرجل..

تجمد «النورسي»، راح في غيبوبة عميقة..

صديقه يدلك له في جسمه ولا جدوى، وفي أثناء مرور إحدى الدوريات
وجدتهما ملقيين فقبضوا عليهما، ساقوهما أسرى تمكن صديقه من الفرار، جاءت
الإسعاف وأخذت «النورسي»، قاموا بعلاجه وتضميد جراحه.

بعد أن سُفي النورسي..

عامله «الروس» على أنه قائد له مهابة واحترام.

أسكنوه إحدى الغرف النظيفة ممددا على أحد الأسرة البيضاء.

دخل عليه القائد الروسي طمعًا في استمالته إلى جانبه، ليستفيد من شهرته وتأثيره على الناس.

قال يُكبله بالجميل والعرفان:

- «أنت قائد ذائع الصيت.. ويجب أن تدعو العشائر وتطلب منهم تسليم أسلحتهم.. حتى يجلوا عن الأرض».

قال النورسي متحديًا:

- «بل أرى أن تقوموا أنتم بجمع الأسلحة من الأرمن، فإذا دخلوا في حمايتنا.. عندئذ نستطيع التفاهم معكم».

قال القائد الروسي معترضًا على هذا الاقتراح:

- «هناك خمسة وثلاثون ألفا في «بتليس» و«موش» ومن المستحيل جمع أسلحتهم».

هز النورسي رأسه وقال أسفا:

- «مع أننا أعطينا «الأرمن» كل هذه الحرية فإنهم جلبوا علينا هذه المآسي، إذ قاموا بمذبحة عامة لم ينج منها حتى الأطفال، وأنتم ترغبون -بدسائسكم- القضاء على البقية الباقية من السكان بوساطة هؤلاء الأرمن».

ثم أشار بيده نحو الأفق من حوله ونظر إلى القائد وأردف:

- «وأنا أقول لك.. لو امتلأت الجبال والسهول والوديان بجنودك، فإنك لن تستطيع تجاوز وتخطي ممر «ديكيلي طاش».

وبعد معاناة ومجاهدة مع النورسي، لم يستطع القائد الروسي أن يصل معه إلى شيء.

فتملكه الغضب وأمر جنوده أن يبعثوا به مع رفاقه الآخرين إلى معسكر الأسرى في مدينة «قوصتورمة» في شمال شرقي روسيا.

«شفير الهاوية»

«سببيرا ١٩١٦»

بدأ يكابد حياة رتيبة.

أيام يحفها التربص الرابض على شفير الهاوية.

اهتزت بداخله ذرات الأزاهير وربت في عمق الصمت.

بدأ يجتاح صدره انفعال عنيف.. الغربة.. الشتات اتخذها مفردات مشوهة
لأيامه.

فهذه هي نفسه العليلة المتوارية.. الخانعة تحت تأثير الصدمة.

بدأت الكلمات، المكتوبات، اللمعات الآهات تقرر ناقوس خياله وتعمل
في ثناياه.

نعم.. فجسده مقيد الحركة لكن لا أحد يستطيع أن يأسر خياله، طموحه.

تملكته قوة خارقة وأصر أن لا تتحطم أمانيه.

أزاح الخوف الرابض على منعطفات أيامه.

معسكر الأسر قريب من نهر «فولجا»، على مرمى بصره رمق مسجداً
صغيراً على الشاطئ، على مقربة منه قرية صغيرة.

بدا زاهداً خاشعاً لا يبالي بما يرى..

نقوش ... على جدران المنفى

يجتمع بالضباط في إحدى الممرات، يلقي عليهم دروسًا في موضوعات شتى.

ترصده قائد المعسكر.. حضر معهم إحدى الجلسات..

راوده شك في أنه من الجائز أن يكون هذا الرجل، القائد ييث في الأسرى روح التمرد على الروس، فمنعه عن مزاوله القاء دروسه.. حتى أخبره أحدهم بأنها مجرد دروس علمية ودينية وأن هذا الرجل هو عالم في بلده له شأن عظيم.. فتركه يعطي دروسه، بل جعله يذهب إلى الصلاة في المسجد القابع على ضفة النهر - مسجدًا صغيرًا له مئذنة رفيعة - يتجمع فيه بعض المصلين من أهل القرية.

وبعد أن ينتهوا من تأدية صلاتهم، يجلس في وسطهم، يلقي عليهم الدروس الدينية، يستمتعون، به ويأمنون له.

وفي أحد الأيام ذهب كبير هذه القرية ومعه رهط من عائلته إلى قائد المعسكر الروسي - كان لهم سلطة ونفوذ في منطقتهم هذه - وطلبوا منه أن يعفي «النورسي» من المبيت في المعسكر.

ولكنه رفض بشدة قائلاً:

- هذا ممنوع..!

- لم..؟

- لأنه أسير حرب!

قال «كبيرهم» وقد بدا عليه بعض الانفعال:



تملكته قوة خارقة وأصر أن لا تتحطم أمانيه.

نقوش ... على جدران المنفى

- هذا الرجل إمام كبير وحامل علم ولا يمكن أن يُعامل معاملة الأسرى.
- لا أستطيع أيها الرجل.
- كيف ترفض لنا طلبا وأنت نفسك وكل معسكرك هذا في أراضينا؟
- أنا تحت حماية الجيش الروسي.
- هل ينفعك الجيش الروسي.. إذا وقع لك ضرر؟
- بدأ الخوف يتسرب إلى لهجة «الرجل» المشوبة بالتهديد والوعيد.
- وقال القائد متراجعا عن إصراره:
- ولكن هذه مسئولية.. من يكون ضامنا؟
- أنا أضمنه.
- فكر «القائد الروسي» قليلاً. قال:
- سأجعله يذهب إلى الجامع ويبيت فيه من أجل خاطركم، لكن خذوا حذركم منه!!
- لا تشغل بالك أيها القائد.
- إذن فليذهب في المساء، ولكن طيلة النهار يكون أمامي في المعسكر.
- وافق الطرفان على هذا الاقتراح، وبدأ النورسي يمارس حياة الأسر والوحشة والبعد عن الأهل والأوطان.
- تلوح أمامه الغيوم كقطيع ضال.

الضباب المتكاثف الهابط بضراوة على المعسكر يحجب الرؤيا.
توقفت بداخله الذكريات على أطراف المدى الثلجي الممتد الذي يحتضن
معسكر الأسرى.

لم يكن الزمن في يد أحد!.. وكلُّ لابد وأن يواجه مصيره..
وهكذا أثر النورسي العزلة.
فاضت بين يديه تجليات الصمت.
أثمرت أزاهير نورانية، تُجلي الظلام الوحشي الذي ينفث زمهريًا.

تطارده الأفكار.

جاهد وهو ينشد النوم.

قيدوا حركته من دون إذن، أيامه تمضي بطيئة كسلحفاة.

جاء الربيع، رأى الأشجار من حوله تتفتح في أسي .. وخرير مياه نهر
«الفولجا» يطن في أذنيه خاملاً مهدوداً.

المعسكر محاط بسياج عال عليه حراس كالأشباح مدججون بالسلاح.

يرنو إليه الأسرى فتزداد كآبتهم وهمومهم.

فكان - النورسي - بصيص النور المتبقي لهم حتى بالنسبة للأسرى من
الألمان والنمساويين، يأنسون لكلامه على الرغم من أنهم لا يفهمون مما يقول
شيئاً، ولكن البشاشة التي تغمر وجهه كانت تريحهم.

كان الوقت ضحى في يوم من أيام الربيع وهو يسلي نفسه بالمشي الوئيد في خلاء المعسكر..

بدا الجو دافئاً بعض الشيء، فجلس على حافة سياج من الخشب وهو غارق في تأملاته مبتتلاً بكلمات نورانية من «الذكر الحكيم».

سمع «البروجي» يقرع الأذان بصوت مدو، صُعق له جميع من في معسكر الأسر.

حدث زعر بين الغادي والرائح.

دخلت عربة مصفحة من عربات الجيش الروسي إلى فناء المعسكر.

فاصطف جميع الجنود وعلى رأسهم القائد العام للمعسكر.

سمع أحدهم يهمس للآخر:

- من يكون هذا؟

رد آخر:

- هذا خال قيصر روسيا!

- من..؟

- نعم القائد العام للجبهة الروسية!

- ماذا جاء به..؟

- ليتفق أحوال المعسكر..

رمقوه يتوجه نحوهما.. فقال هامسًا:

- انتبه فهو يأتي نحونا.

بدأ كل من في المعسكر يعطيه التحية، رافعين أياديهم المشدودة بجانب
جبهاتهم، عدا «النورسي».. لا يزال جالسًا لا يلوي على شيء.

فقال الرجل متممًا:

- ويحك يا «نورسي».

رد الآخر:

- سيحقيق به الأذى.. لا ريب.

- هو وحده؟.. من الجائز أن يحقيق الأذى بكل الأسرى.

واصل القائد «نيكولا نيكولا فيج» سيره مزهوًا، على رأسه قلنسوة
من الفراء، تتلأأ على أكتافه الرتب العسكرية، وتزين سترته بالنياشين. المدلاة..
عصاه تحت إبطه، يجيل الطرف هنا وهناك.

رمى «بديع الزمان» جالساً متكئاً بظهره على عمود من الخشب..
فتملكه الغضب واحتقن وجهه، وتفلت الشرر من عينيه الزرقاوين.
فمر من أمامه ليختبره.
ولكي تكتمل دائرة إرضائه لغروره.. فلم يعره «النورسي» أي انتباه..
فعاد ثانية من أمامه عله -النورسي- ينهض ويؤدي له التحية مثل
الباقيين.. لكن لا جدوى.
فاستدار نحوه وارتسمت على وجهه ابتسامة صفراء. قال:
- «أظنك لا تعرفني»!
نظر إليه «النورسي» ولمعت عيناه الصافيتان وقال باسمًا:
- «بل لقد عرفتك إنك «نيكولا نيكولا فيج» خال القيصر، والقائد العام
في جبهة القفقاس».
فقال مؤنبًا:
- «إذن فلم تستهين بي»؟
رد عليه بثقة:
- «كلا، إنني لم أستهين بأحد، وإنما فعلت ما تأمرني به عقيدتي».
- «وماذا تأمرك عقيدتك»؟
- «إني عالم مسلم، أحمل في قلبي الإيمان، فالذي يحمل الإيمان في قلبه

نقوش ... على جدران المنفى

أفضل ممن لا يحمله، ولو أنني قمت لك لكنت إذن قليل الاحترام لعقيدتي ومقدساتي، لذلك فإنني لم أقم لك».

- إنك قد أطلقت على صفة عدم الإيمان وبهذا تكون قد أهنتني، وأهنت جيشي بل وأمتي والقيصر كذلك!

ثم زفر زفرة ملتهبة، وأردف موجهًا كلامه إلى قائد المعسكر الذي يرتجف وينظر إلى «النورسي» حانقًا.

وقال:

- يجب تشكيل محكمة عسكرية للنظر في هذا الأمر.

أدى قائد المعسكر التحية وقال بصوت مرتفع:

- أجل يا سيدي.

وانصرف من أمامه متوجهًا إلى مكتب قيادة المعسكر وهو يتوعد.

ألم الحزن والأسى بكل أفراد الأسرى في المعسكر من أترك وألمان ونمساويين، يرجون النورسي ويلحون عليه بأن ينهض في إثرهما ليطلب الصفح.. إلا أنه رفض بإصرار.

قال:

- «إنني أرغب في الرحيل إلى الآخرة والمثول بين يدي رسول الله ﷺ.. لذلك فإنني بحاجة فقط إلى جواز سفر للآخرة، وأنا لا أستطيع أن أعمل بما يخالف إيماني».

ودلف إلى ثكته لا يلوي على شيء وتركهم مكبلين في ذهولهم.
مكثوا طيلة هذه الليلة متيقظين قلقين.. يتطلعون إلى المصير الذي ألقى نفسه إليه.

فمنهم من يقول:

- سيجبونه في سجن انفرادي.

نقوش ... على جدران المنفى

ومنهم من يقول:

- سيعذبونه..

وقال آخر منفلاً:

- بل قولوا سيعدمونه!

حلق في وجوههم جميعاً، فاغرين أفواههم.. يهابون أن يحدث هذا فعلاً
ويُعدم «النورسي»، خصوصاً أنهم أسرى حرب.. والحرب لا تبقي ولا تذر.

وفي الصباح كان الضباب كثيفاً والطيور السابحة في المدى تصدر أصواتاً كالأنين.

تشكلت محكمة عسكرية روسية لمحاكمة «بديع الزمان» قوامها مجموعة من الضباط، يجلسون على منصة عالية في داخل قاعة صغيرة مصنوعة من الخشب المضلع.. يرتدون الزي العسكري المهنـدم..

وفي القاعة عدة مقاعد خشبية يقتعدها ضباط وجنود المعسكر الروسي. بينما توجه اثنان من الحرس إلى «النورسي»، يأمرانه بالنهوض للمثول أمام هيئة المحكمة.

فنهض معهم بثقة بالغة.

تموج نفسه العليـلة.

وتدفقت عليه ذكرياته كالسيل فتذكر أهله وبني وطنه.

زج به الحرس داخل القاعة مكبلاً في أغلاله..

نقوش ... على جدران المنفى

نظر في وجوههم نظرة عميقة وصمت.

ودون سماع الدفاع عنه، أو إعطائه فرصة ليدافع هو عن نفسه..

انتصب أحد الضباط واقفاً وطفق يتلو في الاتهامات الموجهة إليه.

وقال بحدة:

- نظراً للتهمة الموجهة للمتهم «بديع الزمان سعيد النورسي» وهي:

إهانة القيصر والجيش الروسي بأسره.

لذا:

- حكمت المحكمة العسكرية المكلفة من قيصر روسيا والمشكلة من..

وأخذ يتلو أسماء هيئة القضاء من الضباط الجالسين على المنصة..

وأردف:

- «بالإعدام شتقاً مع التنفيذ الفوري».

وعلى وجه السرعة أخذه الحراس مصفداً في قيوده الحديدية، توجهوا به

إلى ساحة الإعدام.

تبعهم رهط من الضباط لتنفيذ الحكم.

قال «النورسي» للضابط:

- «أرجو أن تسمح لي بوقت قليل لأؤدي واجبي الأخير».

- ما هو..؟

- «الصلاة».

سمح له الضابط.. فذهب لكي يتوضأ ويصلي ركعتين، وبينما هو ساجد متبتل لمح القائد العام «نيكولا نيكولا فيج» فهامت روحه الوجلة لخشوع الرجل أمامه، وتأكد بأنه فعلاً لم يقصد أن يقلل من شأنه، بل هو يتبع عقيدته كما قال له.

أتى إليه ومكث خلفه واقفاً حتى ينتهي من صلاته.

قال له:

- أرجو منك المذرة. كنت أظنك تقصد إهانتني.. ولكنك... ونظر إلى الحرس وقال:

- «اتركوه فهو بريء».

انشرح صدره.

وتهلل الأسرى فرحين. والقائد يراقبهم متعجباً، ثم هز رأسه وانصرف
موقناً بأن هذا الرجل له قيمة كبيرة في أهله وبني وطنه.

بدأ يتفاقم شعوره بالرتابة.

ترددت أفكاره في عمق السكون/ في أسره وعجزه وانفراده.

ترقرقت عيناه بالدموع:

- «أنا غريب.. أنا ضعيف.. أنا عاجز.. أنشد الأمان.. أطلب العفو..
أخطب العون في بابك يا إلهي».

وعندما تخيل موته في بلاد الغرب، راح ينشد «أبيات شعرية» لـ «نيازي
المصري».

ويقول:

- مررت بأحزان الدنيا.. وأطلقت جناحي نحو العدم.

طائرًا في شوق.. صائغًا في كل لحظة.

صديق.. صديق..

فاضت عليه دفقات نورانية.. حركت وجدانه..

نطقت ذاته المكلومة.

رنت إلى المدد:

- نعم.. إذا أدركت مفردات حياتك فإنك تستطيع أن تجد لنفسك مكانًا فيها..

سمع همسا رفيقا يداعب ناقوس خياله:

- من يستطيع أن يكشف السر؟

- من يستطيع أن يكشف الضر؟

- من أمر الكون بكن.. فكان؟

- رحلت آلامه فوق غمام القهر

- ترنمت أصداء الأئين الصامت الملاصق للزمن المسحور.

- سمت روحه حبًا إلى ما وراء الكون.

- ملأت تبتلاته رحابة المدى.

وصل تأثير الثورة البلشفية، إلى غابات سيبيريا.. حيث ليالي العجز
والحرمان

توقف الزمن وفرد ذراعيه.. ثم حطم بقبضته القاسية أسوار العجز
الشاهقة.

انفلت «بديع الزمان» خارج الأسوار.. خارج الإطار التقليدي لمجريات
الأمر..

قال أحدهم:

- لا يجب في هذه الحالة أن نأخذ بالأسباب.. بل نأخذ بالكرامات،
فالأولياء لا خوف عليهم.

قال آخر:

- العناية الإلهية ليس لها حدود.

ركب بساط الريح إلى «وارسو».

استقبلوه استقبالا يليق بالبطل العائد في ربوع ألمانيا.. كان هناك جند
مقيدون لمساعدته..

وها هو طريق العودة من الأسر إلى الوطن يطوي تحت قدميه طيًا.
سافر إلى ما وراء الشفق الأحمر.

قال تغمره الدهشة:

- «إنني لا أزال مندهشا.. كيف استطعت - بعد أيام قليلة - الفرار،
وأقطع بصورة غير متوقعة مسافة لا يمكن قطعها مشيًا على الأقدام إلا في عام
كامل، علما بأنني لست ملماً باللغة الروسية، فلقد تخلصت من الأسر بصورة
عجيبة محيرة بفضل العناية الإلهية التي أدركتني».

استانبول - مدينة الأصداء السكرى ١٩١٨

٦٠

وصل إلى المدينة السكرى التي أصيبت بالدوار.

تساءل:

- هل تغير الزمن وغير معه سحر الشرق؟

كانت الشمس قد مالت برأسها للغروب، وكلما هبط الظلام كلما لاحت أضواء المدينة.. بقباب ومآذن جوامعها في المدى..

الشوارع مترعة بالمقاهي ذات الأروقة المحاطة بدرابزين، تطل على ساحات ملفوفة بالضباب والخضرة الطافية من أشجار الصنوبر.

والضوء ينبعث من خصائص النوافذ ذات القضبان الحديدية..

توجه إلى منزل «عبد الرحمن».. ابن أخيه. منزل فخم على قمة جبل «جاملجة».

انتشر خبر فراره من الأسر ووصله إلى «استانبول» بين الأهالي.

توالت وفود المهنيين، تلقته في أحضانها بحرارة الاشتياق. كما تتلقى ابناً لها
جاء بعد سفر طويل من بلاد الغرب..

ومكث يستقبل الناس منذ أن تبرغ الشمس حتى يخلد إلى النوم، وكذا
الطلبة الذين كانوا على شفا التخط، وعندما علموا بخبر وصوله.. ذهبوا إليه
فرحين.

وظل هكذا عدة أيام في استقبال وفود المهنيين.

كان الوقت ضحى عندما دخل عليه مندوب من الخليفة يستدعيه للحضور إلى القصر.

تهياً وارتدى حلة لائقة، أخذ ابن أخيه، توجهها إلى القصر.. حيث استقبله الخليفة استقبال الفارس المظفر وهنأه بسلامة الوصول، وكذا القائد العام وشيخ الإسلام..

كانت بداخله أشياء ملحة تهتف إلى التغير منذ وصوله إلى «استانبول».
وفي أحد الأيام أرسل إليه «أنور باشا».. هنأه بسلامة الوصول واطمأن على أحواله.. ثم طلب منه أن يقبل إحدى الوظائف.
فرفض قائلاً:

- «إن كنتم ترومون إعطائي وظيفة كي أتدبر بها أمور معيشتي، فإني لا أرغب في ذلك ولا أستطيع قبوله، أما إن كانت الخدمة المنتظرة مني تتعلق بالخدمة العلمية فلا بأس، ولكنني أحتاج حالياً إلى الراحة لأنني عانيت كثيراً من الظلم والمشقة في أثناء الأسر».

ولم تمر فترة قليلة حتى أعدت له وزارة الحربية حفل تكريم في إحدى قاعات «استانبول»، حيث احتشد الناس.

وما إن لمحوه يدلف من الباب الرئيسي حتى دوى تصفيق حاد، وقام «القائد العام» بمصافحته وتقديم ميدالية الشرق الحربية ومكافأة مائة وخمسون ليرة..

غمرته نشوة الفرح التي ضمدت جراح الأيام الكئيبة التي عاناها في الأسر في جبال «سيبيريا» الموحشة.

«همس المشيب»

٦٢

وكان الوقت صباحًا عندما دخل عليه أحد تلاميذه وأبلغه بأنه تم تعيينه عضوًا في «دار الحكمة».. تقديرًا له وامتنانًا فنظر إليه متعجبًا.
وابتسم «عبد الرحمن» ابن أخيه ذلك الشاب المليح الغض الذي مازال يدرس، وهنأ عمه الذي هز رأسه صامتًا ولم يعقب.
لم يشارك في اجتماعات «دار الحكمة»، وعندما تكرر غيابه أرسل طلبًا يرجو إعفائه من هذه العضوية.
فقد كان دائم الاتهام لنفسه.. دائم المراقبة.. كان الشيب قد دب في جانبي شعره.

ها هو زحف العمر من أمام عينيه هاتفًا:

- «لقد تعمقت في النوم، أصابتك الغفلة، يجب أن تراجع نفسك، تذكرها بالموت، بالحياة الفانية، لأنه كلما شعر الشخص بكيانه وذاته. صعب عليه الفناء ووداع هذا الكيان».

ثم واسته ذاته المكدودة:

- «هيا.. لا تيأس فالموت ليس نهاية كل حي.. فهناك حياة أخرى هي التي يجب أن تسعى إليها».

تحسس شعره الأبيض:

- «هذه هي العلامة التي وضعها الزمن.. بصمته التي تحرك القلوب والعقول.. تصورت أن الدنيا دائمة باقية، رأيت نفسي في حالة التصاق بها كأنني لا أموت».

ثم أخبر «عبد الرحمن» بأنه ذاهب لقضاء بعض الأشياء.

كان الوقت ضحى والسكون يلف البيت.

توجه إلى جامع «با يزيد» - في شهر رمضان - استمع إلى آيات «الذكر الحكيم».

أذعن إلى الخطاب السماوي الرفيع في موت الإنسان وزواله.

نفذت آياته إلى أعماق قلبه ومزقت طبقات النوم الكثيفة والغفلة والسكره التي أملت به..

بل رأى نفسه كأن إعصاراً هائلاً يضطرم في رأسه أو كالسفينة التائهة بين أمواج البحر المضطربة.

كان شعره الأبيض يخاطبه:

نقوش ... على جدران المنفى

- «انتبه إن الشباب الذي كنت تغتر به كثيرًا.. يقول لك وداعًا وأن الدنيا التي ترتبط بها ستنطفئ جذوتها، وهي تودعك.. بل إن البشرية كلها كالنفس الواحدة.. ستموت كي تبعث من جديد، والكرة الأرضية نفسها ستموت ويصيبها البواركي تتخذ هيئة البقاء وصورة الخلود، وأن الدنيا أيضًا نفسها ستموت كي تتشكل بصورة أخرى».

وهكذا ظل همس الشعيرات البيض ييثر رؤاه وأشواقه إلى المجهول.

طفت الأساطير على هذا الهمس تقول محذرة:

- «أرأيت أن رياءً ثقيلاً، وأثرة باردة، وحيرة مؤقتة، تكمن تحت الستار المزركش للإعجاب بالنفس، التي هي المثل الأعلى لأرباب الشهرة. وعشاقها؟ هل فهمت أن هذه الأمور التي خدعتك حتى الآن لن تمنحك أي سلوان؟ ولا يمكن أن تتلمس فيها أي قبس من نور».

كان الشيوخ لا يزالون يتلون آيات «الذكر الحكيم» التي أيقظته من غفلته. حفزت قريحته إلى بشارات ذلك الإرشاد السماوي من خلال الأوامر الربانية المقدسة.

دلف إليه «عبد الرحمن» ابن أخيه هذا الفتى المفعم بالحوية والنشاط،
فنظر إلى عمه، فوجده ملفوفاً في غلالة من الأسى والحزن.

قال:

- لقد تأخرت في الخارج كثيراً يا عم.. أين كنت؟

- ذهبت إلى جامع «بايزيد».. ثم إلى مقبرة «أبو أيوب الأنصاري».

- وماذا حدث..؟

كان جالسا ويده كتاب فوضعه ونظر في عيني «عبد الرحمن» الصافيتين

وقال:

- «كنت جالسا عند المقبرة على مرتفع يطل على وادٍ سحيق، وبينما كنت

مستغرقاً في تأمل الآفاق المحيطة بـ «استانبول»، إذا بي أرى كأن دنياي الخاصة
أوشكت على الوفاة».

بُهِت عبد الرحمن وهتف:

- ماذا تقول يا عم؟

نظر إليه وقال مردفا:

- «شعرت كأن الروح تنسل مني انسلالاً من بعض جوارحي وكياني»

- فقلت:

- «تري هل الكتابات الموجودة على شواهد هذه القبور هي التي دعيتي

إلى هذا الخيال»؟

واستطرد:

- «أشحت بناظري إلى الخارج وأمعنت النظر في المقبرة دون الآفاق

البعيدة فألقى في روحي»....

سأله عبد الرحمن بلهفة:

- ماذا؟

- قال:

- «أن هذه المقبرة المحيطة بي تضم مائة «استانبول»، حيث إن «استانبول»

قد أفرغت فيها مائة مرة».

وسكت برهة ثم قال:

- فقلت لنفسي: فلم تستثني أنت من حكم الحكيم القدير الذي أفرغ

جميع أهالي «استانبول» هنا.. فأنت راحل مثلهم لا محالة».

ثم قال:

- «غادرت المقبرة وأنا أحمل هذا الخيال الثقيل، ودخلت إلى الغرفة

الصغيرة في محفل جامع «أبو أيوب الأنصاري»، كنت أدخلها مراراً في السابق

نقوش ... على جدران المنفى

فاستغرقت في التفكير في نفسي فوجدتها في منتهى العجز عندما صرخت روحي وهي التي تنشد البقاء دون الفناء، وتتشبث بالأشياء الفانية متوهمة فيها البقاء.

ثم صرخت من أعماقها روحه:

- «ما دمت فانية -جسمًا - فأني فائدة أرجوها من هذه الفانيات؟ وما دمت عاجزة.. فماذا أنتظر من العاجزين؟ فليس لدائي دواء إلا عند الباقي السرمدي وإلا عند القدير الأزلي».

قال عبد الرحمن باشفاق:

- أرجوك يا عم لا تبتئس هكذا..

انداحت في عينيه أصداء الأسئلة الحيرى:

- «يا ترى هل أنا منخدع كليًا؟ فأرى الكثيرين ينظرون إلى حياتنا - التي يرثى لها من زاوية الحقيقة - نظر الحسد والغبطة؟ فهل جن جنون هؤلاء الناس؟»

- أم أنا في طريقي إلى الجنون، لرؤيتي هؤلاء المفتونين. البلهاء؟

ثم تنهد:

«وعلى أي حال فالصحوة التي صحوتها برؤية الشيب جعلتني أرى فناء أرتبط به من الأشياء المعرضة إلى الزوال».

كان الليل قد انتصف ولمح «النورسي» عيون ابن أخيه تذرف الدمع فنهض من مقعده وكفكف دموعه وأخذه في أحضانه إلى ما وراء المدى.

بعد دخول أمريكا الحرب العالمية في صف إنجلترا وفرنسا وروسيا، تغيرت الصورة، صارت قوات المحور تمنى بالهزائم في جميع الجبهات، وهُزعت إيطاليا إلى دول الحلفاء، وثار الجيش البلغاري حليف ألمانيا، انقض على بلجراد فاضطر «الملك فرديناند» إلى الفرار، أعلنت النمسا استسلامها، تراجعت الجيوش الألمانية أمام القوات الأمريكية نحو برلين، تراجعت الجيوش العثمانية في فلسطين وسوريا أمام قوات إنجلترا، أُسر الجيش الثامن بكامله، فقدت الدولة العثمانية وحلفاءها الحرب، صارت «استانبول» نفسها قاب قوسين أو أدنى من الاحتلال.

لاحت الغيوم الداكنة في سماء استانبول، منذرة بهطول المطر الأسود، باتت مدينة الأحلام والأساطير تراودها أشباح الظلام.

خيمت أطياف الكآبة على أهلها الذين عاشوا أيامًا حزينة.

دخلت أعداد غفيرة من السفن الحربية إلى خليج البسفور.

وقفت مواجهة لقصر «دولة باغجة».

وجهت فوهات مدافعها نحو الخليفة الذي بات في حكم الأسر.
اخترق الجنرال «فرانس ديبرس» شارع «بك أوغلو» متوجّهاً إلى بناية
السفارة الفرنسية ممتطياً جواداً أبيض، ملوحاً بيديه لهؤلاء المستقبلين، مقلداً
الفاحين العظماء، وطء العلم العثماني بحوافر جواده.. خيم الحزن على المدينة.
وبعد أيام جاء خبر للخليفة «وحيد الدين» الخانع في قصره مرعوباً
بأن سلطات الاحتلال عازمة على جلب نواقيس كبيرة لتعليقها على جامع
«أيا صوفيا» رمز الفتح «لاستانبول» فلم يتحمل حدة هذا الخبر.
فأمر وحدة حرسه الخاص بالذهاب إلى الجامع وحاول منعهم بالقوة.
وعندما علم قادة الجيوش بالخبر تراجعوا عن قرارهم خوفاً من حدوث
حركة مقاومة شعبية لا يعرفون مداها.

كان القمر قد ارتفع إلى كبد السماء وغمر ضوءه أشجار السرو والضخمة
والبيوت الملونة، والممرات الطويلة التي تحفها أشجار الشربين.

امتلأت شوارع «استانبول» بالجنود السكارى.

امتلأت الملاهي بالعربدة، خيم الصمت العميق على الأحياء الإسلامية.

كان «النورسي» يتجول في المدينة ومعه «عبد الرحمن» ابن أخيه، يرتدي
ردنجوتا مزرراً وبنطالاً واسعاً، على صدره نيشان، يعتجر على رأسه شالاً أبيض.

وابن أخيه يرتدي مثلما يرتدي عمه.

تساءل:

- كيف نرى حياة الآخر الذي لا نعرفه؟..

قال لابن أخيه:

- «آه يا ولدي..إني أستطيع أن أتحمل آلامي الشخصية، ولكن آلام الأمة
الإسلامية سحقتني، وإنني أشعر بأن الطعنات التي وجهت إلى العالم الإسلامي
كأنها وجهت إلى قلبي أولاً»..

وبدا مسحوق الفؤاد وهو على أبواب الليل الملتهب.
يجوب الشوارع الحزينة:
هذه أشلاؤنا.. هؤلاء الأشباح هم قضبان الأسر.
هكذا هبت رياح الغضب على المدينة الثكلي.
توارت في جراحهما آلام التمني.
يجول يبصره الأفق الحزين.
يبحث عن السر الكامن وراء الحقيقة.. الحقيقة الكلية لما يحدث.
بدأ يتقلب في اضطراب شديد.. هذيان محموم..
الأشباح تتصارع على منعطفات الشوارع.
تعالّت ضحكات نساء الليل في أحضان السكّري:
- أين أنت أيها النور المتواري خلف الظلمات المتكاثفة؟
انتحيا جانبا واتخذوا ممراً ضيقاً إلى الخلاء.
الهموم أثقلت كاهلها.. رائحة الليل العفنة تراودهما.
الأجسام العارية ترتعش أمامهما على الطرقات.

دخلا إلى أبواب الفجر الكاذب.
 يرنوان إلى الأفق.
 وقطيع السحاب الذي يسوق القمر أمامه إلى الزوال.
 فيخفت ضوءه.. ويتسربل بغلاله باهتة.
 جلسا بجوار منزل مهجور.. على أريكة خشبية بالية.
 قال عبد الرحمن:
 - أراك شاردًا..
 هز رأسه آسفا:
 - «لا أدري يا ولدي.. ما أرى هل هو حلم أم يقظة.. أم حلم يقظ»!
 ونظر إلى ابن أخيه صامتًا، لكنه قد فتح أمامه عالم المثال.
 مكث يحاكيه قائلاً:

نقوش ... على جدران المنفى

- جاءني أحدهم وقال: «يدعوك مجلس موقر مهيب منعقد لبحث مقدرات العالم الإسلامي، وما آلت إليه حاله».

صمت قليلا ثم قال مردفاً:

- «فذهبت ورأيت مجلساً منوراً قد حضره السلف الصالحون، وممثلون من العصور، من كل عصر ممثل.. لم أر مثيلهم في الدنيا.. فتهيئت، ووقفت في الباب تأدباً وإجلالاً».

ثم تنهد وقال:

- قال أحدهم موجهاً كلامه لي: «يا رجل القدر.. يا رجل عصر النكبة والفتنة والهلاك.. ماذا ترى؟» فإن لك رأياً!

حدجه «عبد الرحمن» بنظرة فاحصة ثم خفض رأسه.. بينما تابع عمه قائلاً:

- قلت وأنا لازلت واقفاً: «سلوني أجب» فقال أحدهم:

- «ماذا ترى في عاقبة هذه الهزيمة التي آلت إليها الدولة العثمانية؟»

- «وماذا كنت تتوقع أن يؤول إليه أمر الدولة لو قدر لها الانتصار؟»

شعر «عبد الرحمن» أن هناك حرارة تُشعل حمية عمه دون أن تحرقه.
 والهواء الذي يداعب وجهيهما خفيف لطيف، وكانت ثمة قوة لا تقاوم
 تجره نحو هذا العالم المثالي الذي فتح عمه ستائره.
 تتمم «عبد الرحمن»:
 - أين أنا.. إلى أين تذهب بي يا عم.. إلى باطن الأرض أم إلى عنان السماء؟
 - ماذا يا ولدي..؟
 - لقد أوغلت في عالم السكون والليل قد أوشك على الرحيل! خضعت
 روحك الكليّة.. لهذا التأثير العجيب.. والغوص إلى أعماق المجهول.
 صمت «بديع الزمان» لحظة ثم قال:
 - «قلت لهم إن المصيبة ليست شرًّا محضًا، فقد تنشأ السعادة من النكبة
 والبلاء، مثلما تفضي - السعادة - إلى بلاء.. فهذه الدولة أخذت على عاتقها
 فريضة الجهاد فرض كفاية حفاظا عليها.. وحملت راية الخلافة».

نقوش ... على جدران المنفى

ومكثت كلماته تدوي في أفق السّحر.
و«عبد الرحمن» ينظر إليه شارد الذهن..
حتى أنهى الكلام مع بزوغ الشمس..
أخذه من يده وتوجّها إلى المنزل في «جاملجة»، وبدأ في نشر كتابه
«الخطوات الست» باللغة التركية والعربية.

احتلت جيوش الاحتلال والعصابات الأرمنية مدنًا تركية كثيرة.
 خيم اليأس والقنوط على الناس الذين رضعوا بؤس أيامهم.
 وبدءوا يطرقون شوارع الأوهام والأحلام مستغيثين بمن سينقذهم من
 هذه الوجوه الشائثة، التي سفحت حياتهم.
 تساءل:

- هل هذا هو الإنسان؟.. يترك بلاده وذويه ثم يأتي ليعربد في بلاد
 غيره؟..

بدأ الأهالي يغضبون غضبة جارفة.
 انفجرت البراكين في الأناضول.
 حمل الشعب ما تبقى لديه من سلاح، كونوا من أنفسهم فرقًا للمقاومة..
 تربصوا بهم في الأماكن الظلماء، ينقضون عليهم فيجعلونهم يلعنون اليوم الذي
 تركوا فيه بلدهم وذويهم!

ردد أحدهم:

- نعم.. هل يقبلون أن يُفعل بهم ما يفعلون بنا؟.. إذن فليذوقوا وبال ما فعلوا..

أجبر الغزاة الشيخ «عبد الله أفندي» على إصدار فتوى ضد حركة المقاومة، وسرعان ما هب العلماء باستنكار هذه الفتوى، وأصدروا فتوى مضادة تعضد الحركة وكان «النورسي» ضمن هؤلاء العلماء.

تعددت الفرق، جمعوا الجنود الفارين في الشتات.

شكلوا منهم جيشاً منظماً تحت إمرة ضباطهم..

وزعوا الأدوار..

تعددت الأكمنة..

دوت إنجازات دباباتهم وعرباتهم المصفحة..

تناثرت أشلاء عدوهم.

كانت حركة الفدائيين الدءوبة تؤتي ثمارها عندما ينقضون.. ويتوارون في شوارع المدينة المبللة الرطبة..

ارتفعت ألسنة اللهب في معظم أجزاء المدينة.

عانق السحاب دوامات الدخان الأسود الكثيف..

أغلقت المتاجر والأسواق والمقاهي.

خرج أحدهم هاتفا:

- نعم هكذا تثور العواصف.

وصلت دعوة «لنورسي» أن يتوجه إلى «أنقرة» ليدعم موقف المقاومة فيها.. لأنه يمتلك تاريخاً طويلاً في الجهاد ومقاومة الاحتلال..
فرفض الدعوة في أول الأمر لأنه كان يعتقد بأن بقاءه في «استانبول» ومقاومة الاحتلال أفضل من أن يقاتله من وراء خنادق متواريًا.
ولكن ألح عليه طلابه.. فأرسل بعضهم أول الأمر.. ثم لحق بهم بعد ذلك وكان عيد الأضحى على مقربة منهم.
وعلى محطة القطار في أنقرة تجمع حشد كبير من أعضاء البرلمان ومن الأهالي في استقباله..

كانت الحركة في «أنقرة» قد قويت لانضمام معظم الضباط إليها.. وضعفت حكومة «استانبول» مما اضطر الخليفة «محمد السادس» إلى الفرار.
وجاءت الرياح بما يشتهي «مصطفى كمال» الذي تزعم الحركة في أنقرة..
وأراد الاستفادة من خبرة وحنكة «النورسي» فاستدعاه إلى أنقرة فأدرك بأنه قد شُيعت جنازة الخلافة، وحُفر لها قبر عميق كي لا تخرج منه أبدًا.

نقوش ... على جدران المنفى

أقيم احتفال مهيب «لنورسي» في مجلس الأمة.. وألقى خطاباً عليهم.. لكنه لم يكن سعيداً.. رغم الحفاوة والترحيب.. لأنه لاحظ سلوك «مصطفى كمال» المعادي للإسلام وأفكاره التي صنعت أمام عينيه سحباً ضبابية غطت سماء الأمة..

وكان معظم النواب شارين،.. فحثهم النورسي - في خطابه - على حتمية الاستقامة.

وبالفعل بدأ عدد كبير من النواب بالإذعان.. مما أثار حنق «مصطفى كمال» الذي قال:

- لقد دعوناك إلى هنا للاستفادة من آرائك المهمة، ولكن أول عمل تقوم به هو الحديث عن «الصلاة» وبث الفرقة بين أعضاء المجلس.

فقال النورسي وهو يشير بأصبعه في وجهه محدداً:

- يا باشا.. يا باشا إن أعظم حقيقة تتجلى بعد الإيمان هي الصلاة وإن الذي لا يصلي خائن، وحكم الخائن مردود.

أدرك «مصطفى كمال» مدى خطورته في «أنقرة» فدعته قدرته على إبعاده.. فعرض عليه وظيفة واعظ عام في الولايات الشرقية براتب مغر.. فرفض «النورسي».. ثم عرض عليه إرجاعه إلى «دار الحكمة» وأن يخصص له بيتاً كبيراً وراتباً كبيراً أيضاً.. فرفض.

قضى ثمانية أشهر في أنقرة.

وجد الريح المسمومة تهب على قلوب حكومتها، ونفذت بصيرته الملهمة
إلى قلوبهم فوجدوها مترعة بالران...، يضمرون الحق...

يقولون ما لا يفعلون...

شاهت وجوههم...

وارتدوا أقنعة مستوردة..

شعر أنه لابد وأن يغادرها إلى مدينة «وان» بعد ما رأى أن جيوش
الاحتلال قد اغتالت الخلافة وحفر لها أتاتورك قبرًا.

كان الوقت ظهرًا عندما توجه إلى محطة القطار ..
الأشجار تلقي بظلها الأسود الثقيل ممتدًا على الرصيف، وبعض الأهالي
هنا وهناك يقفون في انتظار القطار ..
كان معه طلابه الذين ذهبوا لوداعه وعلى رأسهم «علي جاويش» رفيق
دربه .. يجوب ببصره بين بنايات المدينة، يحتويها بنظرة وداع.
وبينما يتحدث مع طلابه، وهو يبدو آسفًا على ما حدث في المدينة من كثرة
التمثيل التي ملأت الشوارع والميادين تحمل شكل «مصطفى كمال» الذي فاجأ
الجميع بحضوره إلى المحطة ..
فقد لمحوه وهو يسعى نحوهم وسط رهط من رجاله المتحفزين وجوهمهم
عبوسة .. فقد فشل - مصطفى كمال - في استمالته إلى صفه.
دنا منهم وهو يحدق في «النورسي»
قال متهمكًا:

- «جئت أودعك ..وأطلب منك ألا تتدخل في شئوننا . تنصب تماثيل أو لا تنصب تماثيل..لا عليك»!..

رد عليه «النورسي» بحده:

- «إن هجوم آيات قرآننا العظيم إنما بنصب على نصب التماثيل. أما النصب التذكارية التي يجب على المسلمين إقامتها فهي المستشفيات والمدارس وملاجئ الأيتام والأقسام الداخلية للطلبة ودور العبادة وشق الطرق».

جاء القطار بجسده الثقيل يهدر مقللاً من سرعته حتى صرخت عجلاته واستقر على رصيف المحطة.

فتركه «النورسي» وصعد مع بعض طلابه، وكان الرصيف قد احتشد بالمودعين الذين علموا بمجرد تركه «أنقرة» غاضباً ..

ترك «مصطفى كمال» مكبلاً في ذهوله -لأن المودعين لم يعيروه اهتماماً - ولم ينتبهوا إلى وجوده إلا بعد أن تحرك القطار وبدخله «النورسي» ..

جلس على مقعد خشبي، والقطار يطوي الطريق إلى «وان»، ينظر من النافذة إلى الأشجار التي تنصرم مسرعة، وأشلاء البلاد التي بعثرتها جيوش الاحتلال.

«الدروب الباكية - وان ١٩٢٣»

شعر بأنه ترك في أنقرة «سعيد القديم» وأنه يجب عليه أن يبدأ حياة جديدة.
حياة تتفق ومعطيات العصر المقبل. فقد رأى الأفق الممتد أمامه، تخلق فيه
سحابات تحجب الرؤيا ويجب عليه أن يجدد من أسلوبه لمواجهة الخطر الزاحف.
قرر أن يترك السياسة برذائلها وأقنعتها الزائفة.. ويبدأ من جديد.
القطار يطوي الطريق وصفحات من حياة «سعيد القديم».
صاحب الحلم الذي ينزف -مدرسة الزهراء- الحلم الذي انتحر على
أعتاب «الباب العالي»..
الحلم الذي انتحر في ربوع «بتليس» و«استانبول» و «أنقرة» وكل مدن
الدولة العثمانية.
الحلم الذي انتحر في فلسطين وأخذ في طريقه السلطان «عبد الحميد»
الذي مات كمدًا على انهيار أيامه وأحلامه.

تنهد وهو يحلق بذهنه مع الطيور التي تجوب الأفق عبر نافذة القطار الذي يتلوى من الوجد.

صرخ بداخله الأئين:

- هذه هي أيامنا.. وهذا هو الإنسان! الإنسان.. الخليفة القاتل المقتول البائس..!

شعر بطعم الحياة الباردة تتسلل إلى قلبه.. نعم.. يجب أن نحلم. فإن لم نحقق ما حلمنا به فقد نلنا شرف المحاولة..!

هدأ القطار من سرعته وصرخت عجلاته على القضبان الحديدية حتى استقر بكل ثقله على رصيف محطة «وان»..

نظر من النافذة إلى اللافتة التي تقف على عمودين من الحديد الأسود مكتوب عليها «وان».

امتلاً صدره بهواء بارد مفعم بشذى الضباب الدخاني وهو ينزل إلى المحطة.

تدفع الألم إلى نفسه وهو يرى آثار الهدم والتدمير على ديار المدينة الصامتة،
في ضوء المحاق المظلل بدائرة ضبابية صغيرة.

رنا ببصره إلى صفحة السماء الفستقي، الشوارع خالية وأشجار السرو
كالأشباح، تقف صفوفاً على جانبي الطريق حزينة.

الأضواء تتسرب من بعض النوافذ المتباعدة وترسل ضوءها هزياً على
فضاء الدروب الباكية.

حقيته في يده اليمنى واليسرى في جيب البنطال الواسع المغروس في
حذائه ذي الرقبة الطويلة.

قصد دار أخيه «عبد المجيد» الذي يصغره بثلاث سنوات ويعمل مدرساً،
كانت الدار على طرف البلد من ناحية جبل «آرك» دق على الباب العتيق.

وعندما خرج أخوه تعانقا عناقاً أسطورياً حاراً... ودلفا معا إلى صحن
الدار حيث المدفأة المشتعلة، والطعام جاهز.



يغمرهما الحب الأبدي.

اطمأننا على أحوال بعضهما وعن أخبار الأسرة بأكملها، تجدد الحنين في
لحظات اللقاء الأخوي الممتع، فاضت عليهما نسمات أشعلت فؤاديهما.
تدفق الدم في العروق فاوردت الوجوه..

خلد النورسي إلى فراشه قرير العين ولكن تموج بداخله دوامات سحرية
تدور في فلك المجهول الذي يهابه.

يراوده السر الغامض.. الكامن وراء كل هذا الدمار والخراب الذي
ابتليت به البلاد ونفوس العباد.

ومع شقشقة العصافير على أشلاء المدينة، كان قد استيقظ، يحدوه الشوق
إلى زيارة مدرسته «خورخور».

وقف على أشلاءها مذهولاً بعد أن خربها الأرمن.

آثار الحرائق مازالت عالقة على جدرانها ونوافذها.

رائحة الآلام تكمن في ثنايا أطلالها..

شرد:

- هل هذا هو الإنسان؟

صعد إلى القلعة، تلك الكتلة المرتفعة الصلدة التي تحتضن المدرسة، جلس على قمته مدثرًا في عباءته السوداء، يلف رأسه بشاله الأبيض، تغلبه رعشة جسده وهو ينظر إلى أطلال مدرسته.

يحاول أن يخفي الألم العنيف وراء جموده وثباته:

- تلك الديار التي باتت أثرًا مبعثرًا.. أين ساكنيها..؟ أين طلابي وإخوتي الذين فارقتهم منذ سبع سنوات.

- أين الشيخ «حبيب»..؟

مكث على قمة الجبل يرنوا إلى الأفق الغامض، يأكل الأسى قلبه.

اجتر ذكرياته الأليمة..

رأى طلابه أشباحًا تمرق أمام عينيه.. يجتفون في دروب المدينة المحترقة من أقصاها إلى أقصاها..

امتلات عيناه بالدموع والحسرة..

نقوش ... على جدران المنفى



على أصحاب الديار الذين فارقوها.
على الأطفال الذين تركوا على قارعة الطريق وتحت أقبية الجسور.
على النساء والشيوخ الذين دُفِنوا تحت أكوام الثلوج.
مجرد أشجار تعسة تمتد في رحابة المدى.
حبلى بالعصافير الثكلى النائحة.
كان يظن أنه سيحظى بالمؤانسة في بلدته.
ولكن الغربة بداخله تسع كل أهل الأرض..
ردد نشيدًا حزينًا:
لولا مفارقة الأحباب ما وجدت لها المنايا إلى أرواحنا سبيلا

الآن عرف لم يبكي الشعراء على منازل أحبّتهم الخاوية عند مرورهم عليها..

نعم هذه الأماكن التي كانت عامرة مبهجة مترعة بالنشوة والسرور، الآن أطلالاً.

الآن يا طلاب العلم والرفعة ارقدوا في قبوركم آمنين.

راودته فكرة أن يشكل نواة جديدة من طلاب العلم..

ثم تذكر كلام الشيخ «حبيب» و «علي جاويش» عندما قالوا له مرة:

- «كنا نراقبك، ونحصى تصرفاتك في جميع مناطق استانبول، فلم نر ما يخالف الإسلام، بل رأيناك منهمكاً بنفسك دون الآخرين».

وكان ذلك عندما يختار أجمل الملابس وأبهاها.. ويذهب إلى أجمل مناطق «استانبول».. فرأى أن طلابه يراقبونه حتى تطمئن له قلوبهم.

هبط من على قمة الجبل إلى جامع «نورشين» ..
استقبلته الناس استقبالاَ حارًا، عانق «علي جاويش» - أحد طلابه
المقرين- عناقًا أبديًا..

رائحة الأيام الخوالي توقظ بداخله سحر الخمائل ..
جلس متكئا بظهره على عمود في منتصف الجامع.
يتطلع إلى الجدران المزينة بأسماء الله الحسنى..وينظر إلى القبلة. مزرکشة
ومزينة بآيات «الذكر الحكيم».

بدأ بإلقاء الدرس .. تلتته دروس كثيرة وطلابه يكتبون ما يقول.
أعلن الزمان عن مولد مجدد إيماني عظيم..
وما إن انتهى من إلقاء الدرس حتى تجمع الأهالي من حوله - البقية المتبقية
منهم - دنا منه الحلم الرائع .. وتجسد في أذهان طلابه..
وقال أحدهم:

نعم.. هذا هو الإنسان!!

كان الصيف قد دخل..
 اتخذ من قمة الصخرة ملاذاً له، كان طعامه بعض المكسرات والزبيب.
 أشواقه سمت حباً وعشقاً وتبتلات.
 يرنو إلى القمر على صدر المدى.
 تتفتح ملامح السر في عينيه.
 امتلأت حدائقه بالنغمات الخالدة.
 ثم انطلقت لتجوب رحابه المدى.
 زحفت الأيام على قلبه خفيفة.
 تحمل أصداء الأساطير السكرى.
 نعم..من أصدور أمراً لهذا الكون الفسيح..كن..فكان؟
 من يرفع ستار الليل الأسود عن النهار الشفيف؟

نقوش ... على جدران المنفى

من ينجينا من شر أنفسنا؟
من الذي يكشف الأسرار والأضرار؟
الأسرار الكامنة في جميع المخلوقات.
كانت لياليه رحبة عميقة.
امتد الكون أمامه فسيحاً، لم يشعر بوطأة الزمن.
بدأت حياته تذوب في عمق الكلمات واللمعات.
سمت الكلمات واللمعات.
وتدفقت تملأ الأرض والمدى.
يأتي يوم الجمعة فيهبط إلى قرية «جور أفانيس» .. يصلي بالناس ثم يلقي
درساً على طلابه..
أحاط به أهل هذه القرية.. احتضنوا علمه وفكره.

«محاولات بائسة»

٨٠

«ثورة بيران ١٩٢٥»

نشبت ثورة في الولايات الشرقية بقيادة الشيخ «سعيد بيران» وكان رئيسًا لإحدى العشائر الكردية.

كانت هذه الثورة تعبيرًا عن السخط على حكومة «مصطفى كمال».

أرسل عدة رسائل للنورسي يطلب منه الانضمام إليه فرفض - برغم أنه ضد سياسة «مصطفى كمال» - لأنه لم يرغب في إراقة الدماء من الطرفين وخصوصاً أنه لم ير بارقة أمل في حركة العصيان هذه.

جاء إليه «حسين باشا» وهو من رؤساء العشائر الكردية، سأل عنه وعلم بأنه يتعبد في جبل «آرك»..

دخل عليهم وطلب من «النورسي» أن يأمر طلابه بالخروج فرفض قائلاً:

- «هؤلاء طلابي.. مثل أعضاء جسمي».

أراد «حسين باشا» أن يغريه بسحر المال وصلصلة الذهب فأخرج من جيبه صرة كبيرة.

قال:

- هاك.. هذه زكاة مالي.. أنفق منها على طلابك.

بدا النورسي غاضبًا وقال:

- «يا باشا ألم تسأل أحدًا من العلماء أو الفقهاء؟ ألا تعلم بأن الزكاة لا تنتقل من مكانها؟ ألا يوجد في قريتك فقيرًا من أهلِكَ أو أقاربك؟»

نظر إليه «حسين باشا» حائرًا.

فبادره النورسي مردفًا:

- «لم أتيت إلى هنا؟»

- «لكي أستشيرك في أمر.. إن جنودي على استعداد تام، ولدي الأسلحة والذخائر والخيول ونحن في انتظار إشارة منك.

- ماذا تقول؟ وماذا في نيتك أن تعمل، من سنحارب؟

- سأحارب «مصطفى كمال».

- «ومن هم جنود مصطفى كمال؟»

- هم عساكر كما تعلم!

- «إن هؤلاء العساكر هم أبناء هذا الوطن.. أي أقربائي وأقرباءك.. فعلى من سنطلق النار؟ وعلى من سيطلقون هم النار؟ فكروا فيهم.. أتريدون أن يقتل أحمد محمدًا وأن يقتل حسن حسينًا؟»

- «إنني أفضل الموت على مثل هذه الحياة».

«ما ذنب الحياة؟ إن كنت قد مللتها، وما ذنب جميع المسلمين وجميع
المساكين؟ وماذا تطلب منهم؟»
تملكت الحيرة من «حسين باشا».

وقال:

- لقد أفسدت عزيمتي.. وثبطت همتي.. لقد أنزلت مكانتي بين أفراد
عائلي إلى الصفر.
- «وماذا يهمك إن كانت مكانتك صفراً بين الناس، وتنال القبول والرضا
من عند رب العالمين؟»

مرت الأيام ثم جاءت الرسائل تتوالى على «النورسي» من الشيخ «سعيد بيران» يطلب منه الانضمام!!، إلى حركة التمرد هذه..

فرفض رفضاً قاطعاً ونصحه بأن يقلع عن هذه الفكرة تجنباً لإراقة الدماء، لكنه لم يذعن لنصائحه.

وبالفعل قام بالثورة التي شاركت فيها كثير من القبائل الكردية.

ذهب رؤساء العشائر إليه في يوم الجمعة، بعد أن انتهت الصلاة.

شعر هؤلاء الناس - رؤساء العشائر - بالعيون المترصدة بهم.

دعا «عمر أفندي» وكان موظفاً في الأوقاف - «النورسي» إلى حديقة بيته الملاصق للجامع.

دخل النورسي وفي إثره رؤساء العشائر بزيهم الوطني المميز، فشعر بأن هناك شيئاً معداً.

أدرك ببصيرته المغزى من هذا الاجتماع.

قال:

- «أيها السادة لاشك أنكم آتون إلى هنا بأفكار سلبية»!

بدأ «حسين باشا» يشرح له عزمهم على دعوته للاشتراك في الثورة.

فاحتد النورسي قائلاً:

- «إنني أعلم من قبل أن فكرك مشبع بهذه الأفكار الخاطئة، وهذه الأفكار ليست خاطئة فحسب بل جاهلة أيضاً.. لا أدري ما السبب الذي يحدو بك للسعي وراءها؟»

ثم أخذ نفساً عميقاً وأردف:

- «وأنا أسألكم أتريدون بها تطبيق الشريعة؟»

ثم احتقن وجهه وقال:

- «إن مثل هذه الحركة وهذا التصرف مخالف أصلاً للشريعة، وأغلب الظن أن مصدرها ومثيرها هي الأصابع الخارجية.. لا يمكن جعل المطالبة بالشريعة آلة وذريعة لمخالفة الشريعة نفسها، ولا يمكن المطالبة بها بهذا الأسلوب».

ثم صمت قليلاً وقال:

- «إن مفتاح الشريعة عندي».

ونظر إلى «حسين باشا» موجهًا له الكلام قائلاً:

- «لو طلبت منك أن تأتي من قرينك «باتنوس» مع رجالك الثلاثمائة لتطبق الشريعة، فإنكم وأنتم في طريقكم إلى هنا ستقومون بالتهب والسلب

نقوش ... على جدران المنفى

والقتل، وهذا يخالف الشريعة تمام المخالفة..أيمكن أن تخالفها في الوقت الذي تدعي المطالبة بها؟

هز رأسه بعد أن استعد للرحيل من أمامهم وقال:

- «دعوا مثل هذه الأفكار الخاطئة».

وانصرف من أمامهم متوجهاً إلى قمة جبل «أرك».

فشلت ثورة «بيران»، بدأت حكومة «مصطفى كمال» باعتقال كل رؤساء العشائر من ذوي النفوذ في الولايات الشرقية، حتى وإن لم يكن لهم أي صلة بالثورة ونفيهم غرب الأناضول وذلك لأسباب أمنية..

وسرت إشاعات في البلد -«وان»- عن نية اعتقال الحكومة «للنورسي» ونفيه أيضاً.

وكان محبيه وأصدقائه قلقين عليه وعلى رأسهم الشيخ «أنور» الذي طالما أوصى بإخراجه من «وان».. ألح كثيراً في هذا الطلب، حرصاً عليه.

تم القبض على الشيخ «معصوم» مفتي مدينة «وان».

وازدادت المخاوف عندما لمحو ضابطاً ومعه ثلاثة جنود يصعدون إلى قمة جبل «آرك».

«اعتقال النورسي ١٩٢٥»

وبعد أن تم القضاء على ثورة الشيخ «سعيد بيران» عام خمسة وعشرين وتسعمائة وألف وقُدِّم إلى محكمة الثورة الكمالية، حُكِّم عليه بالإعدام مع سبعة وأربعين من مقربيه في مدينة «ديار بكر».

فقد صعد الشيخ «سعيد بيران» إلى طبلية الإعدام وفي قرارة نفسه أنه قد فعل ما يمليه عليه ضميره.

قائلاً لنفسه:

- عليك أن تسعى.

وموقناً بأنه قد حاول أن يكشف السر الكامن في ثنايا الضباب الذي غلف القلوب، ولكنه أخفق.

كان الوقت ظهرًا عندما سلم روحه لبارئها.. وكان في مقدمة المحكوم عليهم.. المكذسين في غرفة ما قبل الخروج لملاقاة مصيرهم المحتوم، وبعد أن تم تنفيذ الحكم بوحشية أخذوهم داخل عربة ذات صندوق خشبي كبير. حيث واروهم الثرى.

«جبل أرك ١٩٢٥»

كان بصحبة النورسي من طلابه «علي جاويش» و «ملا حامد».. عندما داهمت القوة العسكرية المغارة التي يتعبد فيها فوق قمة جبل «أرك».

دخل عليه الجنود منتقضين في غفلة السكون العميق.

أطبق قائدهم على كتفه وزج به إلى الخارج في قسوة وعنف.

رد عليهم «النورسي» ردًا قويًا وشجاعًا.

فلم يمهلوه إذ أخذوه وهبطوا به من المغارة إلى الساحة الكبيرة..

حيث وجد رؤساء العشائر مكبلين بالأغلال، هناك المئات من المعتقلين كل اثنين مكبلان مع بعضهما بعضًا.

دنا منه بعض طلابه الأشداء وبعض الأهالي في جمهرة.

طلبوا منه أن يحرروه بالقوة ويأخذوه إلى منطقة أخرى، وإن لزم الأمر أخذوه خارج الحدود.

نقوش ... على جدران المنفى

فرفض وكان كلامهم له باللغة الكردية حيث الجنود لا يفهمونها جيداً.

كان الوقت ضحى والأفق يمتد مسوداً على الوجوه والأجسام المرتعشة من قسوة برودة الشتاء.

الطرق مغطاة بالثلج.

نصح طلابه والأهالي بالرجوع إلى ديارهم فرفضوا.

انتشر خبر اعتقاله مع الريح في حنايا المدينة.

هرع الأهالي إلى الساحة بالآلاف.. يلتفون حوله، منهم من يعتلي قمم أشجار السرو والأبنية المحيطة.

وهو يقف متدثراً بعباءته السوداء.

لاحظ «علي جاويش» أن نعليه قد ألبيا.. فهرع وأحضر زوجاً آخر وأعطاه له.. فأخرج بعض النقود ومد بها يده إليه فرفض ولكنه أذعن تحت إلحاح «النورسي».

أشهر بعض الأهالي أسلحتهم في وجوه الجنود لكي يمرروه بالقوة وإلا ستصير مذبحاً لولا أن تدخل بحنكته وفطنته وحقن الدماء..

قال:

- «إنني ذاهب بكل رغبتني إلى الأحضان الرحيمة للأمة التركية في الأناضول».



ثم أشار إليهم وفي عينيه حزن عميق وقال:

- أتمنى لكم السلامة والعافية.

وهكذا حال دون وقوع مجابهة بين الأهالي والجنود..

ولم يغادر المقبوض عليهم مدينة «وان» إلا بعد أربعة أيام حتى تم تجميع كل المتهمين قبل ترحيلهم إلى «استانبول».

خرجت قافلة المنفيين من مدينة «وان»، يكابدون قسوة البرد والصقيع في يوم غابت فيه الشمس.

وتكدست الثلوج على الطرقات.

كانت يد «النورسي» اليمنى موثقة مع يد «معصوم» اليسرى.

ساقوهم إلى الزحافات التي تجرها الخيول والثيران.

كان منهم المترجل الذي تغوص قدماه إلى أعماق الثلوج.

أخذوا يحملقون في ربوع مدينتهم قبل أن يرحلوا منها رغماً عنهم.

يذرفون الدموع وهو يسير مفوضاً أمره إلى الله.

ويتردد السؤال في الفراغ الأبدي:

- هل هؤلاء هم أولاد آدم؟

فقد ملأت آثامهم أحشاء الطبيعة، وهم يمتهنون التاريخ.

ينخرون فيه كالسوس ..

هم زحفوا في غفلة من الزمن، أرهقوا كاهل الأمة.

هكذا صرخ الأنين بداخله.

وكان - المعتقلون - كلما مروا على قرية استقبلهم أهلها بترحاب، وأقاموا معهم واجب الضيافة.

كان «النورسي» يضع شالاً أبيض على رأسه عليه عمامة حمراء طويلة، شاربه كث، حليق اللحية، كانت الحراسة مشددة على جانبي القافلة.

وبرغم أن القروين كانوا في انتظار إشارة منه إلا أنه لم يأبه لهم.. وكان يتسم لهم في هيبة ووقار.

وبرغم أن أهالي هذه القرى تقدم لهم الأطعمة إلا أنه كان يرفض.

ثم يخرج من حقيبته بيضة ويقوم بسلقها ثم يأكلها ويتوضأ ويصلي.. ثم يخلق ذقنه.

وكان قائد الرحلة ويدعى «صائم بك» يحترمه ويحمله.

وصلت القافلة إلى «أرجش» ثم «باتنوس» حيث مكثت فيها عدة أيام ثم توجهت إلى مدينة «آغري» ومنها إلى «أضروم» ومكثت فيها أسبوعاً ثم «طرابزون» وقضت فيها عشرين يوماً ثم إلى استانبول عبر البحر.

مكث النورسي في استانبول خمسة وعشرين يومًا.
تدور به الدوائر.
شعر أن هناك من يترصد بحلمه الذي طالما تاق إلى تحقيقه.
كثرة تجربته للألم جعلت الحكمة تتجلى في كيانه بل تقتفي أثره.
كان دائمًا هائمًا في ثنايا الكون الفسيح.. يسأل عن السر الكامن في خفايا
الأشياء / الأشلاء..
برغم أن دوي طرقات نواقيس الخطر، التي تدنو منه رويدًا رويدًا إلا أنه
لا يهاب شيئًا.
يشعر بأنه قد امتلك القدرة على تحمل الألم.
وبرغم أنه لم يرتكب جريمة في حق أحد إلا أنه رأى أن الوجوه الشائهة
تلاحقه.

نفذت بصيرته إلى أعماقهم، فأدرك ظنهم به وهو إما أن يكون معهم أو يكون عليهم وغالبا ما سيخيل لهم بأنه عليهم.

رآهم يهابون قول الحق، يتوهون في دروب الغثيان والزور.

رآهم وقد أصابتهم الغفلة، أيقن بأنها سترديهم - حتمًا - في الحافرة..
غفلوا أن معه فيضا من السر الذي تحول إلى كرمات فوق مدركات البشر.
بدءوا يتساءلون:

- ما لهذا الرجل كلما ذهب إلى مكان التفت حوله جموع الأشياع؟ ما السر وراء هذا..؟

رد أحدهم قائلاً:

- هذا ليس من عملكم أيها الكماليون! فهذا رجل امتزج كيانه بسر الكلمات التي أضاءت الحياة كلها لمعات وشعاعات من نور ليس كنور أهل الأرض.

هو نور يسكن القلوب والعقول.

نور يتدفق إلى أعماق القلوب التي لم يدخلها الران..

تجدد أمر النفي الذي صدر له من قبل.

والآن إلى مكان آخر.. إلى «بور دور»..

تساءل أحدهم:

- هل غُشيت أبصارهم؟

نقوش ... على جدران المنفى

يتجدد أمر النفي، محبوب البلاد، يلقي العباد، ينتشر فكره، تنتشر رسائله.

وسمع أحدهم يهمس:

- لو كانوا يعلمون الغيب.. لجعلوا إحدى عرباتهم العوراء تدهمه
أو لكانوا حددوا إقامته في مكان واحد! حتى لا ينتشر علمه بين الناس..
هم يجددون أمر نفيه من مكان إلى آخر.

وهو يؤثر الصمت.

ماله والحمقى!.. يعلم أن خطواته بقدر..

أخذوه في حراسة مشددة بالباخرة إلى «أزمير» ومنها إلى «أنطاليا» ثم «بوردور».

وكان المسئولون في هذه المدينة يراقبون المنفيين مراقبة شديدة. فكان معه بعض من رؤساء العشائر الذين وافقوا على أن يأخذوا زكاة المال كي يعيشوا من نفقتها وأبى هو أن يأخذها.. فالقليل يكفيه. وكان عليهم - المنفيين - أن يذهبوا كل مساء إلى مخفر الشرطة للتوقيع. إلا أنه وطلابه تم استثناءهم من هذا الأمر.. لم يذهب ولم يكن يعرف أحدا من المسئولين. حتى إن والي المدينة قد شكاه وطلابه إلى «فوزي باشا» فأوصاه - فوزي باشا - ألا يتعرض لهم أحد بسوء.

«بارلا.. حديقة النفحات ١٩٢٧»

تجدد أمر النفي مرة أخرى.. إلى مدينة «بارلا»..
يذهب إلى الناس يذكرهم بأمور دينهم..
وما أوامر النفي هذه سوى سبب لانتقاله من مكان إلى آخر..
يأتيه العون من مختصمييه دونما أن يدركوا ذلك فكل من يعمل على نقله
من مكان إلى آخر هم مجرد جند، لكي يتمكن من أن يجدد العهد للناس.
حتى قال أحدهم:
محظوظون أهل «بارلا».

أرسل مأمور مخفر «بور دور» إلى الجندي «شوكت دمير آي» وقال:
- اسمع يا بني.. مهمتك أن تأخذ هذا «الشيخ» إلى «بارلا»، واطلب منهم
أن يوقعوا لك على أمر استلامه.
فنظر الجندي إلى «الشيخ» الذي يعتمر على رأسه عمامة بيضاء ورافلاً
في عباءة سوداء على جلبابه الأبيض، يشرق وجهه بابتسامة صافية.

قال:

- ما اسمه؟

- إنه «بديع الزمان».

أخذه الجندي وخرجا معا وفي الطريق قال:

- «يا شيخنا أرجوك ألا تغضب مني فهذه مهمة أنا مكلف بها».

وصلا إلى المرفأ.

وبينما الجندي يتفاهم مع أصحاب المراكب أخرج «بديع الزمان» من جيبه نقوداً وأعطاهما لصاحب المركب.

ثم أعطى الجندي بعض النقود أيضا لشراء بعض الزبيب.

كانت كل حاجياته عبارة عن حقيبة تحوي أدوات لصنع الشاي وبعض الأقداح وسجادة للصلاة.. ويحمل في يده الأخرى كتاب «الذكر الحكيم».

كان على متن هذا المركب خمسة أفراد، وهو يجلس في الخلف وبجواره الجندي..

كان الوقت ظهراً وهواء البحر يلفح وجوههم مشبعاً بشذى الرطوبة.
كان موسم الجمرة الأولى.
تتراقص على صفحة البحيرة قطع كبيرة متناثرة من الثلج الذي يعوق
حركة المركب، وأحد موجهي الدفة يقف في المقدمة ومعه عصا طويلة يقوم
باستخدامها في إزاحة الثلوج التي تعترضهم.
قام «النورسي» بتوزيع بعض الزبيب والحلوى عليهم.
أخذوا يتمطقون يتذوقون حلاوتها في حناجرهم.
بينما كان جالساً ساكناً، يحب بصره الأفق.
يتأمل الطيور النضرة ومياه البحيرة الزرقاء وقمم الجبال المحيطة التي
تغوص في أعماق البحيرة..
تتحرك شفتاه بتبيلات روحانية ويحرك أصابعه الرفيعة التي ترتعش
كأن فيها كهرباء بتسايح، وفي بنصره خاتم من فضه بفص أخضر.. هندامه ثمين
وعليه هيبة ووقار.

اضمحل ضوء الشمس وجاء العصر هامسًا.
أراد أن يصلي.. فوجه قائد المركب دفته صوب القبلة.
استقبلها بخشوع وتضرع:
- الله أكبر.

دوي صداها رهبة وهيبة في فراغ قلوبهم الواهنة.
وما إن أتم صلاته.. حتى شكرهم.
كانوا على مقربة من مرفأ «بارلا».. بينما مراقب المرفأ «برهان» - رجل
ربعة - يقف منتظرًا إياهم.
فرعق عليه الجندي كي يأخذ حاجيات «النورسي» حيث حملوها على دابة.
وودع أصحاب المركب ثم اتجها إلى سفح الجبل.. حيث صعداه ببط
متوجهين إلى ربوع «بارلا» الغناء.

كان الوقت قد دنا من المغرب.
تخلق فوق رؤوسهم الطيور الشريدة.
وصلوا إلى مخفر الشرطة الملاصق لمسجد بارلا المسمى «آق مسجد» وكان
«بحري بابا» شيخ الناحية موجودا وكذلك مسئول المخفر هما اللذان تسلما
«بديع الزمان» ووقعا للجندي على الأوراق.
وقضى معهم - الجندي - هذه الليلة ورجع في الصباح إلى «بوردور».
تمتم النورسي:
- «بارلا»....
وما إن وقعت عينيه عليها - «بارلا» - حتى تجمد مكانه:
- رباه إن هذه هي الجنة أتكون الجنة هي منفاي؟
- هنا لا يمكن لأي إنسان أن يشعر بوطأة الزمن.

احتوته أحضان جبال «طوروس» على بحيرة أكديدر التي تضم في ثناياها
جزيرتي «جان» و«نيس».

تزين قمم جبالها الشاهقة بتيجان من الثلج الفضي وأشجار الصنوبر
الباسقات.

- ماذا عن همسات الهوى في عيون المحبين؟

- ماذا عن سحر الجمال والأساطير في أسفار التاريخ؟

- ربه.. أعشق فيك القدرة على الإبداع.. وأغمس جبهتي في الثرى أمام
وحدانيتك!

تراقب عيناه ينابيع الماء الناضحة المتدفقة شلالات ترقص على شدو
الطيور..

تهمس قطعان السحب إلى الفضاء تنذره بتساقط حبات الثلج على قمم
الجبال، وداخل القلوب المتوهجة.

اختار له بيتا في مكان هادئ، أمامه شجرة «دلب» تقف بشموخ في البراح
بمسافة ليست قليلة.

البيت مصنوع من الخشب المرفوع على قوائم متينة، مسقوف أيضا
بالخشب، يطل على البراح من جميع الاتجاهات.

ارتقى درجات السلم المؤدي إلى غرفته الوحيدة العلوية.
دلف إليها مترددًا.

يجول ببصره في جنباتها ويرقب المتاع المبعثر.. وخيوط العنكبوت المتشابكة
في السقف ذي العوارض الخشبية وفي الأركان.

وعلى الجانب توجد أريكة عتيقة، بجوارها بعض المقاعد الخشبية المتناثرة..
ومنضدة مستطيلة بجوار الحائط المقابل.

أطل برأسه من النافذة الزجاجية الكبيرة التي تطل على شجرة «الدلب»
والجبل الناعس على صدر المدى.

وضع حقيبته على الأرض الخشبية ثم خلع عباءته السوداء.
أخذ يعيد ترتيب الغرفة.

كان معه أحد رجال السلطة في المدينة، يساعده أيضا في ترتيبها.
وما إن انتهيا حتى تركه الجندي وعاد إلى «مخفره».

وجلس النورسي في غرفته وحيداً يتردد خياله في أعماق السكون.
صنع لنفسه كوباً من الشاي، أخذ يرشفه فتمتزج مرارته مع مرارة أيامه
ووحده.

هتف الأنين بداخله:

- إن ما يحدث لا طاقة لأحد به.. هل هذا هو الإنسان؟
أنهى كوب الشاي، خلد إلى النوم مستلقياً على الأريكة القابعة بجوار
الحائط، يكابد رتابة الزمن الثقيل الذي مُنى به.
تتصارع بداخله فيوضات السحر الملهم.
تصنع بداخله دوامات.
لا تزال تبحث عن السر الغامض.
السر الكامن في خفايا نفسه..
شعر بالوحدة الموحشة في ظلام الغرفة، شعر برجفة قلبه.
ولا يعلم كيف سيللم أشلاءه من قفار الغربة والنفي.
يبحث بداخله عن مبرر، عن جريرة ارتكبها في حق أحد فلا يجد.
ها هي قد رحلت ذكرياته مع بقايا الأمل.
الأمل الذي بات متحرراً على أعتاب القصور الخاوية.
سيطرت عليه أوجاعه.

نقوش ... على جدران المنفى

ما فائدة اللجنة إذا كان قد حبس فيها وقيدت حريته؟

فهناك على بعد قريب تراقبه عيون السلطة.

الأيدي الممتدة من أنقرة.. تصل إلى كل شبر في الأناضول.

تنشد إخماد المعنى الكامن في رحاب الأسرار.

قضى بقية الشتاء وحده في الغرفة..
فجميع أهل البلد يهابون الاقتراب منه حتى لا تفتك بهم أيادي السلطة
الممتدة..

في الصباح يأخذ طريقه إلى ساحل البحيرة..
يتأمل سحر الطبيعة ودوامات الماء الصاخبة على صفحة الماء الرقراق..
يرى الشمس وهي تغطس في الماء ثم تخرج لتمشط جدائلها على الشاطئ..
بدأت تنثال المعاني والأفكار المعتملة في صدره نقوشا على جدران المنفى
وهو يأخذ في تأليف «رسائل النور».

تدفقت أنوار «الذكر الحكيم» إلى قلبه.. أنسته ذويه عدا «عبد الرحمن»
ابن أخيه.. فقد كان في أمس الحاجة إليه في شيخوخته..
وما لبث أن وصلت رسالة منه.. فتجدد الأمل بداخله.. فنعم الابن
والتلميذ النجيب الذي عزف عن الدنيا.. شعر بأنه سيكون هو خليفته.

وما زال الأهالي يتخوفون منه..
مر شهران .. أحضر النجار - أحد طلبته - وطلب منه أن يصنع له غرفة
صغيرة على قمة الشجرة، يتدلى منها سلمًا يحتضن الجذع الدائري الضخم.
فبعد أن قضى الشتاء وحيداً في غرفته يعاني الألم والحرمان .. دخل الربيع.
وامتدت دوامات السحر على بساط الريح.
ارتقى السلم إلى قمة الشجرة.
جلس في «الغرفة الصغيرة» يتأمل ويتعبد..
شعر بهمس الشجرة وحفيف أوراقها كما لو أنها تردد ما يقول.
الناس يمرون تحت الشجرة يسمعون ترنيماته وتبتلاته التي يتردد صداها
في جوف الأثير.
وصلته رسالة ثانية وإذ به يتلقى فيها خبر وفاة «عبد الرحمن»..
قال وهو يذرف الدمع ويتنحب:

- «يا حسرتاه..لقد هزني هذا الخبر هزا عنيفاً، حتى أنني لا أزال تحت تأثيره».

ثم أردف:

- «إن نصف دنيائي الخاصة قد انتهى بوفاة أمي، بيد أنني رأيت أن النصف الآخر قد توفي أيضاً بوفاة «عبد الرحمن». فلم تبق لي علاقة إذن مع الدنيا».

جعله هذا الخبر يشعر بالضيق في القفار والجبال.

يقيم على وجهه في أماكن خالية منعزلة.

أثقلت كاهله الآلام.

بدأ يشعر ثانية بأوجاع الأسر.

اجترت ذاكرته الماضي من أحشاء الزمان الغابر.

تمر من أمام عينيه ذكريات الماضي السعيد..تلك الأوقات التي قضها مع طلابه، خصوصاً «عبد الرحمن».

ولكن سرعان ما تكشف أمامه السر الذي أراح قلبه.

السر النوراني الذي هدأ روعته وأسكن آلام الوحشة والفراق وأنجاه من حالته النفسية المؤلمة.

تفتح أمامه الأمل.
هتفت عليه أسرار هذا الكون الفسيح.
خرج كعاداته متوجّهاً إلى جبل «جام».
كان الوقت ضحى والسماء صافية زرقاء، والشمس ترسل بأشعتها
البيضاء فتلف المدى بغلالة شفافة.
ارتقى الجبل بتؤدة ووقار، تهيم أمامه روحه في روعة الخضرة الناعسة
في أرض المخلوقات الحاملة.
تتدافع بداخله فيوضات الحكمة.
ويلملم أحزان العالم ويضعها على أحزانه ثم يفرقها جميعاً في صمت أيامه.
جلس على قمة الجبل معانقاً للسر الأبدي.
وما لبث أن تكاثرت قطعان الغيم الأسود وانطفأ نور الشمس.

انفجر البرق الحارق والرعد المدوي.

هطل المطر خيوطا فضية لاهبة.

هب من مكانه يتلفت حوله عله يعثر على مكان يتوارى فيه، لكن
لا جدوى.

هي مجرد شجرة عادية لم تستطع حمايته.

انتظر حتى خف سيل المطر.

فهبط من الجبل متوجهاً إلى البلدة غارقاً بالماء..

كان حذاؤه قد مزقته خشونة الصخر ولزوجة الوحل، فخلعه وحمله
في يده.

غاص بجواربه البيضاء في الطين اللازب.

وصل البلد وقبل أن يعرج على داره..لمح رهطاً من الأهالي بجوار النبع
يتسامرون..

عندما أبصروه وقفوا ملجومين..كادوا يهيمون لمساعدته، لكنهم تذكروا
أيادي السلطة الطويلة فتقاعسوا مهمومين.. عدا أحدهم انفلت إليه مسرعاً،
أخذ منه حذاءه، غسله في ماء النبع.. ثم تأبطه من ذراعه وتوجهها معاً إلى الدار.
وكان هذا الشخص المدعو «سليمان كروانجي» أول طالب للنورسي
في «بارلا».. ظل معه مخلصاً دون أن يأبه لأيادي السلطة الطويلة.

كانت أيام أسره تمر عليه ثقيلة وهو قابع في غرفته وحيداً، أو وهو يتجول على ساحل بحيرة «أكريدر» وعلى سفوح جبل «جام» متأملاً ومتفكراً وذاكراً. كان الوقت عصراً عندما ما أتاه شاب فتى مُلهم يدعى «مصطفى قوله أولي».. دلف عليه غرفته بجرأة، لم يأبه أيضاً لغشم السلطة أو غيرها. كان «النورسي» لا يزال محزوناً لفراق «عبد الرحمن».

ألقى الشاب التحية على «النورسي»، جلس مستفسراً عن بعض المسائل التي تشغله في الفقه..

نظر إليه الشيخ، قرأ ما في روحه من إخلاص، شعر بما سوف يؤديه هذا الشاب من خدمات، وأن العلي القدير قيده لخدمة «رسائل النور».. التي يرنو -النورسي- إلى أن تُجلي الظلام القابع في أركان البلاد وقلوب العباد.. وأنه رزق بمنحه عوضته عن فقد «عبد الرحمن»..

جاءه هاتف يهمس:

- «أخذت منك «عبد الرحمن» واحدًا وسأعوضك به هذا الشاب وأمثاله ممن سيسعون في تلك الوظيفة الدينية وسيكونون لك طلابًا أوفياء، وأبناءً آخر كرماء، وأولادًا معنويين، وأخوة طيبين، وأصدقاء فدائيين مضحين».

شعر بالرضا.. وحدث نفسه:

- «نعم.. والله الحمد فقد وهبني البارئ عز وجل ثلاثين عبد الرحمن».

- «وما دمت يا قلبي الباكي المكلم قد رأيت هذا المثال.. فما عليك إلا أن تسكن الروح وتطمئنّها».

نعم.. هذا هو الإنسان..

فقد شاء القدر أن تكون هذه البلدة -بارلا- هي «مدرسة النور» ومقرها الرئيسي.

تنطلق منها الكلمات والمكتوبات واللمعات أطيافاً منقوشة تطوف الأرجاء.

ومكث يتجول متأملاً.

«الطلاب يتزايدون.. كلهم متأنقون، أجسامهم رشيقة مفعمة بالحياة، صفاء سرائرهم يفيض على وجوههم البشوشة نوراً، برغم صفاء نظراتهم العميقة إلا أن عيونهم يتدفق منها الإصرار والجلد، تلفهم غلالة شفافة من البهاء والجلال».

تفتحت أمامه كل الأبواب المغلقة وبدأت «رسائل النور» تنتشر من «بارلا» إلى «استانبول» إلى «أنقرة»، واتسعت الدائرة شيئاً فشيئاً في هدوء.. وتجمع حولها الألوفا.



انتقلت من يد إلى أخرى في صمت.

لم يكن «النورسي» يمتلك أية إمكانيات لطبعها ونشرها بالوسائل
المتعارف عليها بسبب مضايقات الأمن له.

وبرغم من أن الحروف العربية المستخدمة في كتابة اللغة التركية. قُلبت إلى
اللاتينية إلا أن السبيل الوحيد كان استنساخ هذه الرسائل باليد ثم نشرها سرًّا.

انكب المئات من التلاميذ «طلاب النور».. على استنساخ هذه الرسائل -
وهم في ديارهم - ليل نهار ..
فبعضهم لم يغادر منزله طيلة عدة سنوات، وشاغله الوحيد هو استنساخ
هذه الرسائل ..
حتى أن أحدهم مكث سبع سنوات دون كلل.
وقد ساهمت النسوة والفتيات في هذا الدور ..
فالتى تعرف الكتابة والقراءة كانت تقوم بالاستنساخ، والتي لم تعرفها ..
كانت تقوم بالكتابة على طريقة النقش والتصوير.
جاءت إحداهن تأخذها الحمية وقالت لـ «بديع الزمان»:
- «يا أستاذنا.. لكي نشارك في خدمة رسائل النور.. قررنا القيام بالأعمال
اليومية لأزواجنا عليهم يتفرغون كلياً للكتابة».



تُرسلُ إليه الرسائل المستنسخة، يقوم بتدقيقها ومراجعتها ثم يعيدها إلى طلابه.. فيتداولونها فيما بينهم بالقراءة.. وبالدرس. ثم يهدونها إلى من يتوسمون فيه الخير والصالح.

بدا راضياً عندما أتت هذه الطريقة البدائية - في انتشار الرسائل - بثمارها، تنتشر بين القرى القريبة من «بارلا» ثم القرى والأقضية ثم المدن الأخرى تدريجياً..

وشعر أن هؤلاء التلاميذ، ما هم إلا جنود قد تم انتقاؤهم للقيام بهذه المهمة.

ويكافحون أيضاً في عدم اندثار الحروف العربية في كتابة اللغة التركية.



وشعر أن هؤلاء التلاميذ ما هم إلا جنود قد تم انتقائهم للقيام بهذه المهمة.

كان الوقت عشاءً عندما أخذ «عبد الله جاويش» يتسلم الرسائل ويسلمها «للنورسي» لمراجعتها، ثم يعود بها مُصححة إلى الطلاب ويجلس وسط زملائه يتسامرون ويحكون ما يحدث لهم في أثناء عملهم.

قال لزملاءه:

- «كنت أغادر «إسلام كوي» بعد المغيب، حاملاً في حقيتي الجلدية السوداء الرسائل التي استنسخها أخونا «الحافظ علي».

أسير الليل كله مشياً على الأقدام بين الجبال الموحشة.. والوديان حتى أصل مع الفجر إلى «بارلا»، أرى الأستاذ في انتظاري.. يستقبلني بسرور بالغ، نصلي معاً الفجر، ثم أخلد إلى النوم منهكاً.

وهكذا أتسلم في اليوم التالي المسودات من الأستاذ، أوصلها ثانياً إلى «الحافظ علي» صاحب الخط المميز الجميل».

ثم سكت لحظات.. وأردف:

نقوش ... على جدران المنفى

- «وذات يوم جئت إلى الأستاذ.. وكان «الحافظ علي» عنده عدد من الطلاب يجلسون في الغرفة..منهم من يجلس على مقعد ومنهم من يفترش الأرض، وكان الوقت عصرًا.. وأرضية الغرفة مترعة بالأوراق.. منهم من يقرأ ومنهم من هو مكب على الكتابة..

وكان الأستاذ يوزع عليهم أجزاء من «القرآن الكريم» ليستنسخوه.. وهو يلقي عليهم تعليمات بكيفية الاستنساخ، وحيث أنا أُمي، بعد أن أجلسني الأستاذ بجوارهم..ثم ما لبثت أن نهضت لأصنع لهم الشاي كي أشاركهم في الأجر.

وما إن أتيت به لأوزعه عليهم حتى نهض الأستاذ وأخذه مني ليوزعه عليهم.. فخجلت.. إذ كيف يوزع الأستاذ الشاي على طلابه؟ ولكنني سكت أمام إلحاحه الشديد»..
حيث قال:

- «إن استنساخكم أجزاء من «الذكر الحكيم» وسعيكم في سبيل القرآن مقبول عند الله الذي يراكم في وضعكم هذا، وملائكته الكرام يلتقطون صوركم، وأنا بكوني خادماً للقرآن..ينبغي أن أقوم بخدمتكم».

أنهى توزيع الشاي عليهم وهم منهمكون في الكتابة.
وكانت تأتيه رسائل من الضابط «خلوص يحيى كيل» - عندما كان يحسبه شيخا من شيوخ الطرق الصوفية - تحوي أسئلة ويحجب عنها.
حتى أصبحت هذه الرسائل السبب لظهور «المكتوبات».
استشعر أن هذا المنفى ليس نقمة بل هو نعمة..
وباتت «بارلا» هي «حديقة النفحات» التي غطت الدنيا بعبرها الفواح..

بدأت تلوح العواصف في الأفق.

تنذر بالخطر القادم وصدر قرار بمنع الأذان الشرعي.

- هتف الأنين بداخله:

- من ذا الذي يمتلك تلك الجرأة على أن يخلع بيده قلبه ويلقي به في

فم السبع؟

- من ذا الذي يمتلك تلك القدرة على احتمال قرع الأسئلة يوم الموقف

العظيم؟

- يا لجرأته.. ماذا سيقول؟..

هل سيقف متبجحاً.. ويقول نعم أنا من غيرت وأنا من بدلت؟.. بدلته

إلى صياح غريب على الأذان؟..

ثار الناس ثورة عارمة.

- لم يغيرون جلودنا.. ويسفهن أحلامنا...؟ ..

ويا ويحه من يُسمع وهو يخالف قرارهم..

يُقبض عليه ويزج به إلى دياجير الظلام..

هذا جزاء أن قلت سمعًا وطاعة يا رب..

لا بد أن تكون سافرًا فاجرًا.. أفاقًا..! حتى يرضوا عنك..

فهذا السفور هو من سيصل بك إلى الآفاق..

آفاق التقدم والرقى..؟

ما أجهلهم عندما يحاولون أن يغيروا ناموس الكون..!

لا يعلمون بأنه تغيير وقتي محض، عبث وكل شيء لا بد وأن يعود
إلى أصله في النهاية!

كان الأجدد بهم أن ينزعوا قلوب الناس من صدورهم ويغسلوها من
حلاوة الإيمان.. ثم يضعوا فيها أوهاهم.

يستطيعون أن يغيروا حللهم.. أحذيتهم.. عرباتهم.. قصورهم..

ولكن أغيرون بصائرهم وضمايرهم..؟

وإن غيروها.. إلى متى؟

ألا يعلمون أن المستقبل سيحمل من يصحح ما أخطأوا فيه؟

وسيصبح ذكرهم في أسفار التاريخ.. صفحات مليئة بالزلات العظيمة
التي لا تغتفر.

هكذا اجتاحت صدره هذه الانفعالات.

ولم تستجب بصيرته لهذا التغير..

فأنشأ مسجداً صغيراً.. يؤم فيه المصلين الذين لم يبدلوا..

وكان مدير الناحية المدعو «جمال» رجلاً متعسفاً ومتسلطاً، يمتلك جرأة
متفلتة، يدا من أيادي السلطة المؤذية..

كان الوقت ظهراً وبعد أن فرغت الصلاة..

تجمع بعض الأهالي من القرويين ورجال الدين.

وقال أحدهم مرعوباً للمؤذن الذي لم يبدل لغة الأذان:

- يا شيخ «شمس».. يجب إطاعة أولي الأمر.

نظر إليه شذراً:

نقوش ... على جدران المنفى

- «أنا لا أعرف مثل هذه الطنطنة المسماة بالأذان التركي».
- سيقبضون عليك!
- «اعلم بأن هناك حفلة صاخبة تُعدي».
- ثم أردف:
- «وسأستمر في الأذان الشرعي كما عرفناه وتعلمناه».

كانت الأخبار قد حملها الأثير إلى السلطة التي استشاطت غضباً وحنقاً
على «المؤذن» ورواد المسجد.

دبر السيد «جمال» كميناً محكمًا .

دوى أذان الفجر في الآفاق باللغة العربية حاملاً معه تحدي قرارات
الحكومة..

كانت الإضاءة في المسجد خافتة والبرودة قارسة وأكوام الثلج تملأ الطرق
والدروب.

اصطف المصلون.. ومن بينهم طلبة «النورسي» .. الذين كانوا يقصدونه
بالذات..

ورجال الشرطة يتربصون بهم في صدغ الباب.

وما إن أقيمت الصلاة حتى داهموا المسجد.

قبضوا على «عبد الله جاويش» و «مصطفى جاويش» و «سليمان» و «علي»
ثم أخذوا يبحثون عن «النورسي». فلم يعثروا عليه..

نقوش ... على جدران المنفى

فاشتد غضبهم..

سأل أحد الجنود زاعقًا:

- أين «النورسي»..؟

نظر المصلون بعضهم إلى بعض ولم يتفوه أحدهم ببنت شفة..

- فرد عليه جندي آخر زاغت عيناه وارتجف جسمه.

قال:

- هذا الرجل له كرامات فمن المؤكد أنه اختفى عندما رأنا!

قاموا بطرد جموع المصلين من المسجد.
وساقوا أمامهم هؤلاء المقبوض عليهم من طلبة «النورسي» - إلى مدينة
«أكريدر». مشياً على الثلوج..
زجوا بهم إلى السجن، مكثوا فيه أياماً دون أن يسألوا عنهم..
ثم أتوا بـ «المؤذن» إلى المدعي العام الذي أرسل في طلبه..
فدلف إلى غرفة مكتبه الفخمة مرتعداً.
يجول ببصره في أركان المكان..
ووقفت عيناه على المدعي العام وبجواره يجلس اثنان من مساعديه.
فقال المدعي العام مستفزاً إياه:
- «أنت قد أعطيت لهذا الكردي نقوداً ذهبية.. فما مقدار الأسلحة التي
اشتريتها؟»
قال المؤذن:

نقوش ... على جدران المنفى

- «إن الحكومة التركية تشبه السفينة، وأنت أعلم بما يدخل ويخرج منها».
إن الأستاذ لا يملك مدفعًا ولا بندقية، بل هو يريد نشر الوثام
والاطمئنان..

- هل عندك أطفال؟

- نعم.

متوعدًا:

- «إذا لم تقل الحقيقة.. فالمشنقة تنتظرك»!

سرى الخوف في جسد الرجل عندما تخيل نفسه معلقًا في حبل المشنقة
وأولاده وزوجته يصرخون مستغيثين ولا مجير لهم.
وقال بنبرة هادئة:

- إن هذا الشخص ليس سوى خادم للقرآن. فماذا يعمل بالمدفع والبندقية؟
إن بندقيته ومدفعه هو القرآن لا غير.

نظر المدعي العام في وجه الضباط المحيطين به.
وأراد أن ينهي الموضوع ويؤجله إلى المحاكمة.
التقط قلمًا وكتب في الأوراق أمامه:
- نُحدد له جلسة عاجلة بالمحكمة..

وبعد يومين. انعقدت جلسة، ساقوه إلى قاعة المحكمة التي نُصبت
وتحفزت.

فقال الحاكم:

- من الذي أدى الأذان بالعربية؟

دار بخلد المؤذن أن يتصنع الصمم. فوقف ساكناً..

فالتفت إليه الحاكم غاضباً وصاح:

- هل اسمك سليمان؟

- «لما كان الوقت شتاء، فقد حضرت قبل كل يوم»!

بدا الحاكم متعجباً:

- «قلت لك ما اسمك»؟

مراوفاً:

- «لقد نمت في الخان يا سيدي».

تملكه الغضب، وقال صائحاً:

- أخرجوا هذا المخبول من أمامي.

«ظلال الترحال» أسكى شهر» ١٩٣٤»

ثارت ثائرة النظام على «النورسي» وطلابه..
وبدأت أيادي الهدم تمتد هنا وهناك.. بحثا وتنقيبا عن حجر العثرة الملقى
في مواجهة سيول الحقد الأسود المتدفق في قلوب العباد الذين يساقون
إلى الإلحاد.
اشتد الموقف توترًا بين أرباب السلطة بطغيانهم الأعمى، وأرباب الدين
الذين لا يخشون في الحق لومة لائم.
امتدت أزاهير الصيف في المدى وكست الفضاء بغلالة من حلم جميل.
«النورسي» قابع فوق شجرته التي تردد وراءه كل تبتلاته وتسبيحاته..
تراقب عيونه الزُرقة العميقة في السماء حتى مهبط الأفق، والخضرة التي
سافرت إلى آخر العالم.
أتى إليه ثلاثة جنود.
قال أحدهم بلهجة أمرة:
- هيا معنا..

- إلى أين؟

- ستعرف في المخفر..

كان على يقين بما يحدث.

لا يهاب قهراً..

فلم يسع إلى سلطان أو جاه، أخبره قلبه بأن الرحلة طويلة.

وهناك في مكان ما.. أناس يحتاجون من يبصرهم بأمور دينهم ودنياهم،
وقد انتهت المهمة في «بارلا» وجاء أمر القدر بالترحال..

بدل ملابسه.. وسمحوا له - على مضض - أن يجهز حقييته، وذهب
معه إلى «المخفر» حيث لمح عربة من الخشب البلوط بها زوج من الخيل تقف
بغرض الشارع..

قال أمر المخفر:

- جاءني أمر بترحيلك من هنا..

- آه.. قد تجدد أمر النفي.. فقد تجدد كثيراً من قبل ولكن إلى أين هذه

المرة؟

- إلى إسبارطة ثم أسكى شهر..

كان أحد طلابه يراقب ما يحدث مستاءً.

عاد إلى بقية الطلاب، أخبرهم بما حدث لأستاذهم.

أركبوه العربة الخشبية، بدأت الرحلة القاسية تتكرر..

نقوش ... على جدران المنفى

لاحظ أن هناك حركة ترقب وتوجس.

استعدادات من قبل السلطة كما لو أن هناك انقلابًا عسكريًا سيحدث..
أو هجومًا شرسًا يترقبونه من جهة أخرى خفية لها سلطان كبير على البلاد
والعباد..

اكتشف أن تلاميذه قد قبض عليهم، وتجمعت اللوريات، حشروا فيها
حشرًا.. بعد أن داهموا منازلهم.

ساقوهم جميعًا - على حين غرة - إلى المنفى الجديد.

كان الليل قد بدأ يرخي سدوله والنهار يزيح ستاره، عندما رمق على
 جانبي الطريق صفين من الجنود المدججين بالسلاح..
 أمامهم وخلفهم الحراسة مشددة بطريقة توحى أن هناك في الأمر شيء
 جلل.

ولكن قائد الجند في الركب كان عليه بعض سمات المرونة في التعامل
 مع الشيخ، قام بفك قيوده وقيود طلابه عندما حان وقت الصلاة.
 وقف الركب..

اصطفوا على الأرض الحاصبة في البراح.

كان «النورسي» إمامهم.

الجند يحيط بهم من كل اتجاه..

رافعين درجة الاستعداد..

يهابون أن تنتفض الطلاب نفضة رجل واحد فيتخلصوا من أسرهم
 ويهربوا.

نقوش ... على جدران المنفى

ولا يدركون أن نفضة هؤلاء التلاميذ هي نفضة إيمانية لا تحض
على العنف ولكن على الرحمة ومكارم الأخلاق.

هكذا حَدَّثَ أحد الطلبة نفسه متعجبًا.

أنهوا صلاتهم ودفعوا بهم ثانيا إلى اللوريات كالقطيع بعد أن صفدوهم
بالأغلال.

تحركت بهم العربات في القفار والطرق الوعرة تتأرجح فتترنح أجسادهم
حتى هدهم الإرهاق وأصاب كثير منهم الدوار.

كان الليل قد انتصف عندما وصلت اللوريات بهم إلى مدينة
«اسكى شهر»، المدينة غارقة في السكون، لكن شوارعها الصامتة مليئة بالجند
المتحفزين، خصوصاً الشارع الذي يتوسطه المخفر.
بعض الأهالي يطلون برءوسهم من النوافذ ومن خلف الأبواب المواربة..
يرقبون ما يحدث في صمت مريع..
وقفت اللوريات بأجسامها الثقيلة أمام المخفر.
خرج «القائد» وحوله الجند يحرسونه..
كان فظاً، قوي البنية.
قال لأحدهم بخطرسة:
- «قل للجند أن يأخذوا «النورسي» «إلى زنزانة انفرادي»، وبقية طلابه
وزعوهم على الزنازين»..

نقوش ... على جدران المنفى

نظر النورسي في وجه القائد فعلم ببصيرته الفذة ما يضره له ولأصحابه،
أحيلت القضية إلى محكمة «أسكى شهر».

كانت التهمة التي ستوجه له مفعلة مسبقاً وجاهزة.

بعدما تلقت المحكمة أوامرها من حكومة أنقرة بالتشديد على هذا الرجل.

- شرد أحد طلبته:

- إنهم لم يتذوقوا حلاوة ما يفعل «النورسي».. لأنه لا يتذوقها إلا من
أوتي الحكمة، فهو -«الشيخ» - مجرد أداة في يد القدر لنشر أزهيره التي خرجت
من جوف الصمت، ثم حلقت فوق غمام القهر.

أنت أيها المجدد هو من وقع عليه الاختيار، وقد تحصنت بالصبر والحكمة
وهما أسلحتك ضد هذا الطغيان والألم الذي ألم بك. وما أصابك وما سيصيبك
لم يكن ابتلاءات ولكنها منح وفيوضات أذابت جمود النفوس وستزهو آلامك
ترنيمات روحانية منقوشة على جدران المنفى.

لم تكن الزنازين مهيأة لأن يدخلها آدمي..
 مارسوا عليهم ضغطاً نفسياً مروّعاً.. منعوا عنهم الطعام لمدة أسبوعين!!
 حرموهم من قضاء حاجتهم.
 فاضطروا إلى صنع حفرات داخل محابسهم الرطبة في الأركان المظلمة.
 وكل ما حدث من هذه الممارسات الطاغية ولّد بداخله روح التحدي
 للقهر.
 وتدافعت عليه فيوضات السحر التي دائما ما كانت تبحث عن السر
 الكامن في ثنايا الأشياء التي تعتمل بداخله.
 تبحث لها عن فرصة للخروج إلى النور كي تنتشر أزاهيرها لتملأ الكون
 عبقا روحانيا شافيا للنفوس المعتلة أو التي كادت أن تصيبها العلة.
 فانشغل في تأليف «رسائل النور» فكانت هناك «اللمعة الثامنة
 والعشرون»، «التاسعة والعشرون»، و«الثلاثون»، و«الشعاع الثاني».

عقدت جلسة المحكمة وكان الوقت ضحى ..
وجيء بـ «النورسي» مكبلاً في الأصفاد.
زجوا به داخل القفص الحديدي في ركن القاعة التي اكتظت بالناس
الذين يتمنون من قلوبهم له الخلاص.
دلف طاقم القضاء إلى القاعة من باب خلفي صغير خلف المنصة.
نهض الناس في القاعة إعظاماً وتوقيراً..
كانوا ثلاثة، جلس رئيسهم بحلته السوداء والشريط الأخضر على صدره
في المنتصف، بدا عليه الوقار في البداية.
وما إن تكلم حتى تلاشى من عليه وحل محله شراسة وتربص.
نظر إلى الحاجب وقال زاعقاً:
- ناد على المتهم .
زعق الحاجب:
- «بديع الزمان سعيد النورسي».

فأشار الإمام بيده من بين قضبان الأسر، والقاضي ينظر من تحت عوينات
زجاجها سميك .

قال:

- ما رأيك في التهم الكثيرة الموجهة إليك؟

- أية تهم؟

خذ عندك:

- «القيام بتأليف جمعية سرية».

- «السعي لهدم الثورة الكمالية».

- «تشكيل طريقة صوفية، في الوقت الذي منعت فيه الحكومة هذه الطرق
بل وأغلقت التكايا.

- «نشر رسالة الحجاب التي تشير إلى احتشام النساء وسترهن».

بُهِت «النورسي» من هذه الاتهامات، طالب بحق الرد عليها.

لكن القاضي رفض وقام بتأجيل الجلسة.

توالى الجلسات والنورسي يرد على كل الاتهامات حتى تمكن من إثبات
براءته منها كلها عدا «رسالة الحجاب»..

فقد حكمت عليه المحكمة بالسجن لمدة أحد عشر شهرًا في سجن
«أسكى شهر».

وبدأ العد التنازلي لتنفيذ الحكم في دياجير السجن، الذي أطلق عليه
المدرسة «اليوسفية» تيمنا «بيوسف» عليه السلام.
دوت في الأفق إشاعات بأن النورسي سيُعدم.
امتدت سياط الذعر تلهب ظهور الأهالي.
استمرت المداهمات.
أمسكوا بتلابيب تلاميذه في كل الأصقاع.
جمعوا «رسائل النور»، أودعوها المحكمة، فحصوها، فخففت عليه
الحكم، لأنهم لم يعثروا فيها على شيء يخالف النظام، بل عثروا على كتاب مكتوب
على غلافه «يخص رمضان».
جمعوا كل تلاميذ «النورسي»، أوقفوهم صفًا.
سألهم آمر السجن بوجه متجهم:
- من منكم اسمه رمضان؟

نظر بعضهم إلى بعض.. وقالوا:

لا يوجد بيننا أحد بهذا الاسم!

فقال بانفعال:

- «كاذبون.. إن رمضان هذا هو أبرز أعوان «النورسي».. أين هو؟»

وصدرت أوامر عليا مشددة بالبحث عن رمضان هذا ولو كان في سبع
أرض، طرّقوا كل الشوارع والأبواب في القرى والمدن، جمرات الغضب تأججت
في الصدور.

امتدت الأيادي الطويلة، أمسكت الكلاب لتمزيق الأحلام وإطفاء
الأنوار.

قال أحد تلاميذه محتدًا:

- عادوا إلى زمن الجاهلية الأولى، لم يأخذوا العظة من هؤلاء عُمار تلك
الجاهلية الذين خمدت ثوراتهم رغبًا عنهم، وهكذا سيظلون في طغيانهم يعمهون.
أشاعوا الفزع والرعب في القلوب بحثًا عن «رمضان» حتى عشروا عليه
في قرية نائية وسط الأدغال.

انصب عليه جام غضبهم:

- أنت أيها القروي اللئيم.. قد شققت علينا وأرهقتنا.. أنت مؤلف هذا
الكتاب.

- ما معنى الكتاب؟

- أتسخر منا أيها القروي؟



- لا.. ولكن لا علم لي بالقراءة ولا بالكتابة.
- كيف كتبت هذا الكتاب. ألم تعلم بأن هذا ضد النظام؟
- أي نظام؟
- الثورة..!
- ثورة من؟
- مصطفى كمال!
- ومن هو «مصطفى كمال»؟ لا أعرف سوى المصطفى ﷺ.
- بدأت جرعات الغيظ المحشورة في جوف المحقق تتفلت لهيباً في وجهه رمضان.
- ثم زعق:
- كبلوه وفي السجن ألقوه.
- وعانى رمضان في ظلمات السجن شهرين كاملين.
- لم يدعنوا إلى توسلاته وعندما يأتون به للتحقيق، يقول نفس الكلام، أنكر معرفته بـ «النورسي» وأنه لم يسمع عنه مطلقاً.
- كان الكتاب ملقى على المكتب أمام المحقق وهو ينظر إلى الغلاف حائرًا «يخص رمضان»، مد يده والتقطه وطفق يتصفحه، تغيرت ملامحه وهو يزعق على الحارس:
- ائتوني بالرجل فوراً.

- من يا سيدي؟

- رمضان.

أتى به الحارس مصفدًا.. مصفر الوجه وقد ألم به الخور..

فقال الضابط أمرًا:

- فك وثاقه.!

وبعد أن قام الحارس بفك وثاقه متعجبًا مما يحدث.

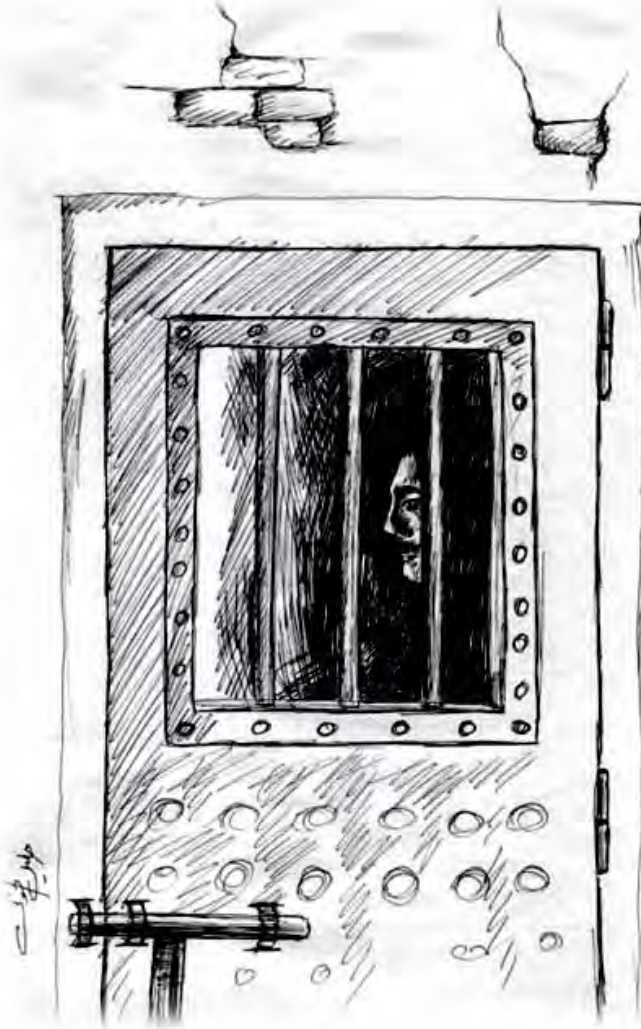
قال الضابط:

- اذهب أيها الرجل أنت حر!!

- ماذا حدث..؟

- «هذا الكتاب يبحث آداب الصيام في شهر رمضان».

فضحك رمضان والحارس حتى وقعا مغشيًا عليهما، والمحقق ينظر إليهما حانقًا.. لحظات ثم انفجر أيضًا بالضحك.



وبدأ العد التنازلي لتنفيذ الحكم في دياجير السجن ، الذي أطلق عليه المدرسة اليوسفية.

بدأت الأمور تخرج عن السيطرة.

وبدأت الريح تعصف بالعقول والقلوب، بينما «النورسي» داخل محبسه، يواصل عمله بالمتابعة، يرسل ما كتبه في قصاصات، يضعها في صندوق كبريت، يتركه أمام المراحيض.

فيأتي أحد تلاميذه ليأخذه ويواصلون الاستنساخ، وأحياناً أخرى كان يتم التهريب بواسطة «الحلاق».. وبعد أن يستنسخوه، يتم تهريبه خارج السجن بواسطة رفقائهم الكثيرين الذين لم تعلم عنهم السلطة شيئاً.

فكل مكان يذهب إليه «النورسي» يجد له طلاباً، ولم تدرك الحكومة إلا بعد وقت طويل أنهم في ازدياد مستمر.

ثار حقنهم، حاولوا التخلص منه داخل السجن.

دسوا له السم في الطعام.

وعندما لم يصب بأذى.. اعتقدوا أن هذا هو إحدى كراماته. وقد تسرب هذا إلى الناس وأشاعوه.

طارت الأخبار والإشاعات..

تجوب المدينة والقرى المجاورة عن إظهار كرامات الأولياء، من قبل «بديع الزمان»، فكثر مريدوه وأتباعه.

أثارت هذه الظاهرة حفيظة الطلبة في مدارسهم.

سمع أحد الطلاب بكلية الحقوق ويدعى «كمال طان أر»، وهو شاب مليح الخلقة ومثقف، يجل علماءه وشيوخه.

تقدم بطلب لزيارته داخل قضبان السجن وسمح له.

وكان الوقت ظهراً، وأشعة الشمس الذهبية تتسرب خيوطاً صفراء محملة بذرات الهاموش والتراب العالق بالهواء، تنساب على أرض الزنزانة، وهو يجلس على سجادة الصلاة. شعره الذي دب فيه الشيب بكثافة يغطي شحمتي أذنيه وينسدل على جبهته، وعلى وجهه الناحل عوينات بيضاء، بيده مسبحة، يترنم بالأوراد والتسابيح في ختام الصلاة.

وقف «طان أر» يرقبه بعدما سرت في بدنه قشعريرة، وفاضت عيناه الصافيتان بالدموع..

احتواه الشيخ بنظرة حانية، فكفكف الشاب دموعه، وانكب على يد «الإمام» المعروقة وطفق يقبلها والشيخ يمسح على شعره.. دون أن يعرف من يكون.

سأله الشاب عن صحته..

ثم بدا متردداً وخجلاً وهو يقول:

- «أستاذي يقولون إنه ظهرت على أيديكم كرامات غيبية.. فهل يمكن أن»..

وأشار على مسبحة الإمام وأردف:

- «أن تجعل هذه المسبحة تمشي أو تتحرك»؟

أشرق وجه الإمام بابتسامة أجلت ظلام الزنانة وتفتق ذهنه عن قصة.
قال:

- سأذكر لك حكاية طريفة وبعدها ستعلم كل شيء!

- ما هي؟

- «كان لأحدهم ولد يحب كثيراً، لأنه وحيد، أخذه ذات يوم إلى محل مجوهرات ليباع له بعض الهدايا - حسب رغبة الولد - وكان صاحب المحل قد زين محله بنفاخات ملونة ومتنوعة، وعندما رأى الطفل هذه النفاخات لفتت نظره ألوانها الجذابة.

فقال باكيا:

- «أبي أريد أن تشتري لي هذه النفاخات»!

- «يا ولدي.. سأشتري لك مجوهرات ثمينة».

ولكن الولد ألح إلحاحًا في طلب النفاخات، أبوه يحاول معه ولكن لا جدوى..

ثم نظر إلى الشاب من تحت عويناته نظرة عميقة فاحصة وقال:

- «أخي.. أنا لست إلا عاملاً في محل جواهر «الذكر الحكيم»، وخادمًا فيه، ولست بائع نفاخات ملونة، وليس في عملي إلا الماس الخالد، فأنا منشغل يا أخي بإعلان «نور القرآن».

فهم «طان أر» ما يقصده الشيخ.. ثم سلم عليه وانصرف.

«قلوب عطشي»

١١١

«قسطموني ١٩٣٦»

لم يفتنوا بعد إلى أن القدر قد اتخذه أداة للخلاص.

فجددوا أمر النفي كدأهم دائماً.

وما إن قضى فترة السجن وخرج.. حتى وجده أمامه. هكذا دون مبرر أو سند قانوني.

ومن الطبيعي أن يكون حراً طليقاً يذهب أنى شاء، ولكن هيئات فساد كل الأصقاع يتلهفون عليه.

ودون وعي منهم، ولكي تنتشر رسائله بين الناس.. لابد أن يتجدد أمر النفي.. هذا الأمر أداة القهر التي يظنون بأنها هي التي ستقصم ظهره، ولكن ما إن يذهب إلى قرية أو مدينة حتى تشتعل فيها جذوة الإيثار.

ويزداد النظام حنقاً عليه..

ويتجدد الأمر إلى مكان آخر فتشتعل جذوة الإيثار فيتجدد أمر النفي وهكذا دواليك..

نقوش ... على جدران المنفى

ومكثت الحكومة في رعب منه، وانتاب المسؤولين فيها هذيان محموم وتخبط في قراراتهم ضده، على علمهم التام بأنه لم يرتكب جريمة، لكنه هو من سيجعل نور الله يزهو في هذه الأصقاع، لكنهم لا يريدون نورًا، يريدون السفور، وإظهار عورات النساء.. فهذه هي الحضارة بالنسبة لهم.

فتح الأبواب لرياح السموم المشبعة بما تشتهي أنفسهم.
وكانت وجهته هذه المرة إلى مدينة «قسطموني» فيها بشر مشتاقون، قلوبهم عطشى، وأفئدتهم تستغيث.. قبل أن تتوه في دروب الإلحاد والشتات.
كانت الحراسة عليه مشددة في أثناء انتقاله..

سكن الرعب قلوبهم وهم يسوقونه من سجن إلى منفى.
كان أهالي «قسطموني» ينتظرونه عن بكرة أبيهم.

يتساءلون فيما بينهم:

- متى سيأتي..؟

كان الوقت عصرًا والجو ربيعياً.. وقت تلاقح الشار والأزهار والأفكار،
عندما وصل إلى المخفر في منطقة «سوق العربات».

استقبله الأهالي بطوفان من الترحاب، واستقبله أمر المخفر بوجه عبوس متجهم.

أحاط به العسكر في أثناء هبوطه من عربته الخشبية التي تجرها الخيول
حتى ساقوه إلى الداخل.

الشارع مكتظ بالناس الذين يراقبون ما يحدث، لم يمنحه - جند المخفر -
فرصة للراحة أو التقاط أنفاسه.

يتوسط الردهة واقفاً وفي يده حقيبته الصغيرة وعلى كتفيه عباءة السمراء
فوق جلباب ناصع البياض، على رأسه شال أبيض، يخرج من عينيه نظرة ثقيلة
حانية، من ينظر في سكون عينيه العميق، لابد وأن تنجلي الغمة عن قلبه ويجد
نفسه محباً لهذا الرجل.

جاء صوت قائد المخفر جهوريا:

- أدخلوه الغرفة الخشبية..!

ساقوه إلى غرفة داخل أروقة الطابق الثاني من المخفر.. كان الحراس يبيتون
فيها، لكنهم قد أدخلوها استعداداً لاستقباله، ولكي يكون دائماً تحت أعينهم -
حسب التعليمات - لابد وأن يكون تحت المراقبة دائماً، نظراً لخطورته وتأثيره
البالغ على قلوب الناس وأفئدتهم.

فهذا الرجل هو سبب هدايتهم، وهو السد الذي يحجز عنهم رياح
السموم.

وكان في الغرفة الخشبية أريكة خشبية متهاكة ولها نافذة عالية لا تسمع
سوى بدخول الهواء الرطب لأنها بعيدة عن مصدر الضوء..

أدخلوه إليها فجلس متهاكاً، أصدرت الأريكة صريراً مؤلماً، يزيد من
كآبة الغرفة المطلية بلون داكن مقبض.

يعاني ألم النفس الثقيل.

خرجوا وأغلقوا من خلفهم الباب، وهو يراقب انصرافهم ووقع أقدامهم
المدوي على الأرض الصماء في ردهات المخفر الضيقة.

وعلى بعد ثلاث بنايات من المخفر.
كانت تقع مقهى «أمين جايرلي». وهو رجل دمى الخلق عليه خشوع وتقوى.
كان يلح «النورسي» في أثناء توجهه إلى القلعة أو العودة وفي إثره أحد أفراد الشرطة يراقبه.
كانت الشمس قد مالت برأسها للغروب في أثناء عودة «النورسي». هتف عليه «جايرلي»:
- من أين أنت؟
نظر إليه «النورسي» وهاب أن يذهب هذا الرجل ضحية.
فقال:
- «لا تقترب مني فرجل الشرطة يراقبني، أخشى أن يصيبك أذى». وتابع سيره إلى غرفته الخشبية الكائنة في مخفر الشرطة..

ولكن الشرطي قد لمحّه، علم بخبره ودون اسمه معه.
وفي أثناء ذهاب «النورسي» إلى القلعة في اليوم الثاني، والجندي في إثره
متخفياً في ملابس مدنية..

صاح إلى «جايرلي»:

- أتريد أن تذهب إلى صاحبك؟

- من هو؟

- تعالى معي وسترى!

أخذه وصعدا القلعة.. وما إن رآهما «النورسي» حتى قال موجهاً كلامه
للشرطي:

- «أخي.. هلا تركتنا معا على انفراد»..!

- لم؟

- «إنه من معارفي وأود الاستفسار عن بعض الأشياء».

شعر الشرطي بالإحراج، أفسح لهما المجال.

أخذ النورسي يشرح لـ «جايرلي» عن ظروفه الصعبة من هول ما لاقاه،
خصوصاً دس السم له في الطعام في أثناء سجنه، يريد أن يكون له سترٌ وعونٌ،
لأنه يجد صعوبة بالغة في التعامل مع أيادي السلطة، خصوصاً قائد المخفر
ووالي المدينة.

والجندي - المراقب - يتابع ما يحدث لكنه لا يكاد يميز الكلمات.

نقوش ... على جدران المنفى

وضع النورسي يده في جيبه وأخرج بعض الليرات الذهبية وأعطاهما للرجل قائلاً:

- «خذها واصرف منها حسب احتياجاتي.. فأنا أريد شايًا وسكراً وما إلى ذلك».

أخذ الرجل النقود..

وقال «النورسي» مردفاً:

- «ستأتي بالأغراض، ولكن بحجة أنك ستبتاع مني بعض الفراش في الغرفة»..

وأخذ «أمين جايرلي» يتردد عليه من وقت لآخر طوال مدة بقاءه حتى استأجروا له منزلاً أمام مخفر الشرطة.. مكوناً من طابقين مصنوعاً من الخشب. الطابق الأول عبارة عن مخزن للوقود والثاني غرفتان بالإضافة إلى المرافق وتبدو عليه دلائل القدم.

استدرك السر الكامن من وراء كل ما يحدث.
وتجلى داخل هذا المنزل حتى فاضت بين أيديه رسائل كثيرة..
كانت هناك نافذة كبيرة يطل منها برأسه إلى الشارع المترع بالدجاج الذي
ينكش عن رزقه.
والأطفال الذين يثيرون الزوابع في أثناء لعبهم.
وفي الناحية الأخرى المقهى الذي يرتاده كثير من أهل الشارع.
قام بتجهيز غرفة الاستقبال، فيها بعض المقاعد وإيوان كبير، والأخرى
لنومه واعتكافه.
أسكن الروح وطهرها واستسلم لأحكام القدر.
فقد اشتعل الرأس شيباً، ودب الوهن في الجسد الناحل، وبدأت العيون
تذبل في جو من الكمد والهوان.

نقوش ... على جدران المنفى

كانت السماء تلمع كالبللور والتحفت المدينة بالظلام.. وبدأت تتسرب
الأضواء من خصائص بعض النوافذ والأبواب المواربة.

وهو منشغل بالكتابة.. جالسًا على الإيوان في غرفة الاستقبال.

سمع نقرًا خفيفًا على الباب الذي لم يغلقه من الداخل إلا عندما يخلد
إلى النوم.

فجاء صوته هزياً يتردد في عمق السكون:

- تفضل.

دلف إلى الداخل شابان يافعان.. بعد أن دفعا الباب ببطء فأحدث صريراً
حاداً.

هرول أحدهما إليه وهو يفتersh الإيوان وانكب على يده المعروفة وطفق
يقبلها، ثم فعل الثاني مثل ما فعل صديقه.

قال الأول:

- أنا «عبد الله يكن».. طالب في «ثانوية قسطنطين».

وقال الثاني:

- أنا «رفعت» بنفس المدرسة.

أشار إليهما باسماً:

- «اجلسوا يا أولادي».

كان متكئا بظهره إلى الحائط فاعتدل وربع رجله، وخلع من على عينيه عويناته، وأخذ يحدثهم، عن حلاوة الإيمان وعن الموت واليوم الآخر. وتكررت كثيرا زيارة «عبد الله يكن» وأصبح من تلاميذه النجباء، ودائما ما كان يساعد الأستاذ في أموره، وما يحتاج إليه.

وقد أسفرت هذه اللقاءات عن تأليف «مرشد الشباب».

وبدأ يتدفق عليه كثيرون من طلبة المدارس الثانوية في «قسطموني»، يجلسون أمامه وهو يشرح لهم أمور حياتهم ودينهم بعد أن بدأت المدارس تدرس لهم الإلحاد وتشوه الحقائق، يضرب لهم الأمثلة والبراهين حتى يقتنعوا. ينهضون من عنده وقد وقر الإيمان في قلوبهم واستقر.

كان يخرج إلى البساتين القريبة، يصعد إلى جبل «قره داغ» أو القلعة الأثرية للتعبد، يقضي ساعات متأملاً، وباحثاً عن السر الذي يكمن وراء الحقائق الأبدية التي تفيض بين يديه.

يرنو إلى المعاني الغامضة حتى يجليها، وتضحى أزهير تنطلق إلى الآفاق. والحارس «يونس جاويش» قابع في برج القلعة..، وظيفته هي الحراسة وإطلاق مدفع الإفطار في رمضان، يراقبه عن كثب وهو يجلس على حافة البرج غارقاً في تأملاته وتبلاته.

وما إن تكشف ستار الليل، وبدأت النجوم تومض بين ثغرات السحاب، حتى هبط من القلعة إلى الشارع الرئيسي الذي يشطر المدينة إلى نصفين. عاد إلى بيته بخطى وئيدة تتمم شفتاه بالأذكار.

وقعت عينه على رجل يترنح في عرض الشارع، أخذ يدنو منه حتى تقابلا. وقف الرجل يتمايل بجزعه ورجلاه ثابتتان، ينظر بحدقتين منكشيتين، تكررت فيهما صورة «النورسي».

هبيء له أنه يرى عددًا من الرجال..

وكلما حاول أن يتابع سيره تعترضه إحدى الصور..

قال:

- أفسح لي الطريق يا رجل.. حتى أمشي!

على الرغم من أن «النورسي» يقف جانبًا.

نظر إليه حائياً.

قال:

- إلى أين أنت ذاهب يا أخي؟

- لا عليك!

- لم..؟

- لقد تواعدت مع امرأة جميلة في هذه البناية.

وأشار بأصبعه إلى الأفق.

أمسك «النورسي» بكتفه وهزه بعنف قائلاً:

- «أفق يا رجل».

نظر الرجل في عيون «النورسي» ثم انفجر باكياً، واستدار على عقبيه عائداً

إلى داره.

وكان الشرطي المكلف بمراقبة النورسي يمشي وراءه، يتابع ما يحدث،

لكنه لم يسمع شيئاً مما دار بينهما.

نقوش ... على جدران المنفى

فتوجه مسرعاً خلف الرجل السكير.

أطبق على قفاه قائلاً:

- أخبرني أيها العرييد ماذا قال لك هذا الرجل؟

- رجل من أيها الأبله!

- الذي كان يقف معك تَوّاً.

- آه.. هذا رجل طيب كريم.. أنا لا أعرفه.. ولكنه نصحني بالعودة إلى داري..

شعر الشرطي بالخجل وترك الرجل ينفلت من يده وهو ينظر إليه صامتاً،
بينما يتمتم الرجل:

-ماذا يريد هذا الشرطي الأخرق...؟

لا يزال الوالي «مدحت اوق» متربصًا به، فكثيرًا ما يأمر الشرطة بمداهمة منزله وأخذ ما بها من كتب وأوراق، «النورسي» يخفيها أحيانًا كي لا يعثروا عليها، ودائمًا ما يتربصون بتلاميذه أو بمن يحاول الاقتراب منه والتحدث معه. كان النورسي محافظًا على زيه القديم الذي لم يتواكب رياح الغرب المسمومة.

أخذها الوالي ذريعة للقبض عليه وتضييق الخناق، «مدحت اوق» هذا رجل.. خبيث النفس.. يمتلئ حقًا أسود، على «النورسي» وطلاب العلم جميعًا. لذا فقد وجد أن «النورسي» مخالفٌ لقانون القيافه.. فأصدر قرارًا بالقبض عليه. ثارت ضجة في المدينة وبدأ الناس يترقبون ما سيحدث لهذا العالم الجليل. موظفو الوالي يسترقون السمع.

تنامى إلى مسامعهم صوت «النورسي» يخرج من غرفة المكتب التي يجلس فيها الوالي كالطاووس أمام مكتب كبير وفخم.

قال «النورسي» بصوت حاد:

- «اسمع يا «مدحت» .. إن الموت الذي تهابونه ليس بيني وبينه سوى ستارة رقيقة، فإذا ما مزقنا هذه الستارة فإننا لن نخاف أي شيء، فإذا كانت هناك مخالفة فطبق علينا القانون وافعل ما تشاء».

هُت الوالي وارتعدت خلجاته وهو يشير إلى الشرطي قائلاً:

- خذ الأستاذ وأوصله إلى منزله.

خرج النورسي من عنده، والوالي يتابعه مذهولاً.

وصل «النورسي» إلى داره عشاءً.
وجد طلابه في انتظاره فالتفوا حوله، جلسوا معه، أشعل «أمين جايرلي»
المدفأة، وجهاز له طعام العشاء.
تدافعت في داخله الفيوضات.
عكف على تأليف «الشعاعات»، فخرجت أزاهير تشق عمق الظلام
فتجليه.
يعود ويذهب إلى الجبل العاري ليشحذ همته ويطهر روحه، في السكون
الغامض.
وكان عنده فرس قد استعاره من أحد أصدقائه نظرًا لطول المسافة
إلى الجبل.
ينظر إلى الشفق الأحمر الذي بدأ في التلاشي على طرف الجبل في المدى.
تقدم نحوه رجل على وجهه ابتسامة مصطنعة، كأن هناك سابق
معرفة بينهما..

بادره الرجل:

- السلام عليكم يا شيخنا.

- أهلاً وسهلاً يا أخي.. تفضل!

تقدم نحوه الرجل ويده كيسٌ من الورق يحتوي على بعض ثمرات الفاكهة والطعام فأعطاه «النورسي».. أكل ما فيه، واختفى الرجل كالطيف.

وبدأ يشعر النورسي بالآلام في بطنه، وعلى عجل نهض وامتطى صهوة جواده، عاد مسرعاً إلى المدينة.. ولكن سرعة السم الذي سرى في عروقه لم تمهله حتى يرجع إلى داره، فسقط عن ظهر الجواد مغشياً عليه.

وعاد الجواد وحده.

رقبه أحد تلاميذه، تملكه هاجس أن «النورسي» قد حدث له مكروه.

فانطلق مسرعاً إلى الجبل، وفي منتصف الطريق وجده مسجى على قارعة الطريق يتلوى من الألم.

ساعده في العودة إلى داره.

وعلى الفور، استدعى أحد الطلاب المسعفين، عملوا له بعض الإسعافات الأولية كغسيل للمعدة بواسطة الماء المذاب به ملح.

مددوه على الفراش، ومكث عدة أيام مريضاً حتى شفي.

واستمرت المضايقات.

فلم يكد يشفى من التسمم حتى داهموا بيته، يبحثون عن «رسائل النور»،
فتشوا البيت تفتيشاً دقيقاً..

ثم قبضوا على «أمين جايرلي» وأخيه «بحري» وصاحبهم «محمد فوزي»
وساقوهم إلى مخفر الشرطة.

قال قائد المخفر:

- أنتم قد شكلتم جمعية سرية.. بمن تتصلون؟

كان ثلاثتهم يقفون صفّاً أمام قائد المخفر وهو متكئ بظهره. يتفحص
وجوههم، وتدور برأسه تموجات شيطانية للبحث عن مصيبة.

بادره «محمد فوزي» قائلاً:

- «يا سيدي.. إن هدف «رسائل النور».. هو إيضاح أمور وحقائق
الآخرة.

نقوش ... على جدران المنفى

وأخرج من جيبه إحداها وبدأ يتلو فيها بعض الأسطر من حقائق الإيمان وحقائق القرآن..

القائد ينصت إليه.. ثم زعق بغضب:

- «اسكت.. ستسممون أفكارى».

كما لو كانت رياح السموم تهب عليه تلوث عقله.

وعندما باءت كل محاولاته بالفشل أفرج عنهم.

كان «النورسي» قد شفي تمامًا من آثار السم.

توجه إلى جبل «قره داغ».

كان الوقت ضحى، وضوء الشمس متألق على الخضار الذي يكسو الأرض مسافرًا إلى آخر نقطة في المدى.

يرتدي جلبابه الناصع البياض ويلف رأسه بعمامة يتدلى شعره من تحتها.
يترنم بتساويح وأدعية.. متكئًا بظهره على جزع شجرة تفرش الأرض
بظلها الظليل.

لمح أحد الشباب يسعى إليه ويقف على مقربة منه، وما إن انتهى النورسي
من ابتهالاته.

قال الشاب بصوت خافت:

- «آمين»..!

التفت نحوه مرحبًا:

نقوش ... على جدران المنفى



- «أهلاً وسهلاً يا أخي .. ما اسمك؟»

- «صلاح الدين جلبي» ..

- «من الذي ذلك على مكاني؟»

- بعض تلاميذك.

شعر بنبرة الصدق في كلامه ولمح الكتاب الذي يحمله فقال:

- «ما أجمل كتابك .. إن أعطيتك رسالة فهل تستسخها» ..؟

- بكل سرور يا أستاذنا.

ومد يده له برسالة «الكلمات الصغيرة».

وقال:

- «المهم أن تكون الكتابة مطابقة تماماً للأصل .. ثم تحضرها ثانياً

لأصححها» ..

ثم صمت قليلاً وقال:

- هناك تلاميذ كثيرون يفعلون هذا.

- أعرف يا سيدي .. مثل نافذ، إبراهيم، عزت، ضياء، عثمان، صالح،

عمر .. وغيرهم كثيرون ..

نظر إليه «النورسي» بامتنان ..

وأردف «صلاح الدين»:



- «وهؤلاء قد عملوا بدون كلل كمطبعة.

اذكر لك أيضا سعاة البريد بين «اينبولي» و«قسطموني» من أمثال
«رجب ديلك» و«أحمد كور أوغلو» و«داكيرمانجي أوغلو» وأريد أن أذكر لك
بأني قد رأيت جهازًا للاستنساخ في أثناء وجودي في «استانبول» فابتعته».

كان الوقت قد مر عليهما مسرعًا، فتوجها عائدين، يتحدثان عن بعض
الأمور التي يلاقيها تلاميذ النور في ظل هذه الحكومة التي تناهضهم في كل
مكان دون أن يرتكبوا أية جريمة.

اهتزت رياح السموم فوق عقولهم.
وتفاقت حدة المضايقات التي أولوها له.. مداهمات مستمرة لمنزله،
ولا يعثرون سوى على «رسائل النور» التي أخذوها من قبل.
وما إن يدنو منه أحد حتى يقبضوا عليه.
ثارت ثائرة كل الناس في أرض الأناضول وبدءوا يتلهفون على قراءة
أخباره في الصحف والمجلات.
وأخذ أحدهم يتلو أخباره من الصحيفة قائلاً:
- هذا الرجل الذي أخذ على عاتقه حملاً تنوء به أعنى الجبال.
لاحت الأسافل في الأفق.
هيمنت على البلاد والعباد.
طالما تحمل عبء الأيام الثقيل وأورد نفسه مورد المجددين في وطن يأبى
أن تتحدد ملامحه.



صارت فتوحاته مهبط الشمس.

موطن الخلافة، حلم الشرق الأسطوري.

لم تؤثر فيه رياح السموم، ولم يكن فيه سيف الإباضية مسلطاً على الرقاب.

جلس مربع الرجلين وسط طلابه بعد صلاة العشاء قائلاً:

- «يا إخوتي، لقد مضت مدة طويلة دون أن أبقى في أي مكان مدة تزيد على ثماني سنوات، والآن مضت مدة الثماني سنوات على مجيئي هنا، لذا فإنني إما أن أتوفى في هذه السنة أو أنتقل إلى مكان آخر، لذا فقد لا يتيسر لنا اللقاء مرة أخرى، وسيأتي زمان ينتشر «طلاب النور» في كل مكان، فلا يفارق بعضكم بعضاً».

نظر إليه «عبد الله يكن» محزوناً فربت «النورسي» على كتفه وقال وهو ينظر بعمق في عيون «أمين جايجي».

- «إنهم يترصدونني لذا أرى أن لا يزورني أحد».

وبالفعل أذعن طلابه إلى طلبه، فلم يعد يزوره أحد.. إلا بعضهم خلصة من أجل قضاء بعض حاجياته.

فقد بدأ يطعن في السن وبدأت أوجاع الزمن الثقيلة ترسم على وجهه الناحل على هيئة تجاعيد طويلة وعرضية.

وطالما راوده هاجس تجديد أمر الاعتقال أو النفي إلى مكان يحتاج فيه أهله إلى من يزيح عن كاهلهم عب الأيام الثقيل الذي يُخلق في الآفاق.

وهكذا دائما تهتز أزاهيره في عمق الصمت، لتنتلق نقوش زاهية على جدران المنفى.

ولكن هذا الشعور الذي يخالجه لم تتضح ملامحه بعد،..
 بدأ يجهز متاعه، سلة من الخوص وإبريق وأدوات متواضعة لصنع الشاي.
 أهل شهر رمضان بنفحاته المعتادة، يقضي ليله قائما متعبداً.
 لم يضعوا حداً لمضايقته، فدائماً ما يداهمون خلوته، يدوسون بأحذيتهم
 على متاعه القليل، دونها حياء.

خوف وجهل يتربص على منعطفات الطريق.
 ثورة محمومة بالشك القاتل والسخط تلاحقه.

صدق حدسه كدأبه دائماً.

أعدوا له مجموعة من التهم كدأبهم أيضاً.

وكانت كما سبق: تأليف جمعية سرية، تحريض الجماهير ضد الحكومة العلمانية، السعي لقلب نظام الحكم.. والتهمة الأدهى والأمر إطلاق صفة «الذجال» على «مصطفى كمال».

أطلت عليه نواقيس الخطر.

تنسم رائحة الليل الثقيل الممتد على حياته وهو يرى أسوار العجز تعلو.

وتساءل:

هل هذا هو الإنسان؟

انتصف الليل.

وهو ينشد السر الكامن في أحشاء الحقيقة.

يناجي الأمل المنشود..

كُسر باب المنزل وهجمت عليه الأشباح الليلية كهدير الموج المضطرب.

بعثروا أشلاء الأشياء، لم يعثروا على شيء وهو يرقبهم دون أن ينبس،
أدرك بأنه آن الأوان.

قال قائدهم:

- هيا معنا.

كان جاهزاً وقد تهيأ فعلاً، وما كان عليه إلا أن أخذ سلته المعدة مسبقاً
وهبط معهم السلم الخشبي المتآكل متوجهين إلى المخفر حيث تُليت عليه التهم
المعدة.

سألهم:

- إلى أين هذه المرة؟

نقوش ... على جدران المنفى

- إلى «أنقرة» حيث ستم محاكمتك.
- على أي شيء ستحاكمونني..؟
- ألم تسمع التهم!!
- لقد حوكت عليها.. وخرجت بريئاً.
- ستعاد المحاكمة ثانياً!
- ثانياً.. أم ثالثاً.. أم رابعاً.. أم...
- وماذا نفعل لك.. نحن ننفذ الأوامر!
- أوامر من؟
- هل تسخر من الحكومة.. على كل حال فقد استرحنا منك!
- كيف..؟
- عيون السلطة وراءك.. أينما تذهب!
- السلطة التي تذهب بي.. لا تدوم لأحد.
- دعنا ننفذ الأوامر..
- وأشار قائد المخفر إلى الشرطي قائلاً:
- خذه إلى الحبس حتى الصباح.. وستأتي إلى هنا سيارة.. تأخذه ومعه حراسة مشددة إلى الموقف العمومي ومنه سيستقلون سيارة أجرة إلى أنقرة.
- أخذه الشرطي وزج به إلى السجن، يصارع ألماً نفسياً ثقیلاً.



بدأت تتساقط الأوراق، والجبال العارية ترتجف.

تسلل الخور إلى حنايا الروح.

وقال أحدهم متألماً:

وها أنت يا «نورسي» تحتضن الصمت، الذي عشنش في أيامك.. وستجلى
الحكمة وتحلق في الآفاق، لتزهو أزاهيرك، وتصير رسائل نورانية ساطعة، تذيب
أكداس الظلام الجاثم على دروبك.

أتى الصبح معتمًا حاملاً معه روائح التغير.
حملته عربة خشبية متهالكة يجرها حصان أعجف.
ساقوه وسط حراسة مشددة إلى موقف «ألوك طاش» حيث حجزوا ثلاثة
أمكنة له.
ولاثنين من أفراد الحراسة.
الأهالي يطلون عليه من أعلى الأسطح ومن أطر الشرفات.
تمزق المستور في أرض المخلوقات الحاملة.
امتلات العربة بالركاب وهو يجلس في المقعد الخلفي وبجواره حراسته.
رصد رجل متوسط العمر يدعى «ضياء ديلك» هو أحد تلاميذه،
ولكن خشي أن يتكلم معه.
تحرك السائق «لطفى رزني» بعد أن أدار محرك السيارة فأصدر هديرًا
مدويًا.

تدهورت صحته والعربة متهاكة وهو يتشبث بفيوضات رمضان
الإيمانية.

قال:

- ماداموا يعدونني متهمًا سياسيًا، فكان لزامًا عليهم أن يخصصوا لنقلي
سيارة تاكسي.

شعر أحد أفراد الحراسة بالخرج.
فنهض من مكانه إلى مكان آخر كي يفسح له مجالاً أرحب.

قال:

- تفضل يا أستاذ اجلس مكاني.
ولا يزال «ضياء ديلك» صامتًا، يود أن يمد يد العون للأستاذ، ولكن
طاعون الخوف كان يؤرقه.

سأله «النورسي»:

- ما اسمك..؟

- «ضياء ديلك»..!

- آه.. صديقنا ضياء..

- هل أتيت لتودعني باسم أهالي «قسطموني»؟

ثم التفت لأحد أفراد الحراسة واسمه «صفوت».

قال:

نقوش ... على جدران المنفى

- «يا صفوت.. عندما داهتم البيت، أية آية كنت أقرأ من القرآن الكريم؟»

ثم طلب ورقة أعطاها إلى «ضياء ديلك» وأخذ يملي عليه آيات الذكر الحكيم..

وأردف:

- «يا ضياء.. بشر أصدقاءك.. وقل لهم ألا يقلقوا. فلن يصدر القرار بالإدانة ضدنا، فيما هدنة أو مصالحة».

العربة تهتز وتؤلم جسمه الناحل..

تنهد وقال:

- «ابعث بتحياتي إلى الأصدقاء الذين تم توقيفهم وسجنهم».

ثم صمت قليلاً.. وأردف:

- «أرجو أن تطلبوا من السائق - إن كان يقبل - إيقاف محرك السيارة، إذ لدى بعض النصائح للأخوة الموجودين، إذ لا إكراه في الدين».

أوقف السائق محرك السيارة أمام نبع ماء في أحراش «إلكاز».

قال بعض المسافرين:

- ليرضى الله عنك يا أستاذ.

- سيحين بعد قليل وقت الإفطار.

هبطوا جميعاً من السيارة.. ليتناولوا الأطعمة.. أفتروا.. ثم مكثوا
حتى صلوا العشاء جماعة.

قال «ضياء ديلك» مستأذنا:

- «اأذن لي يا أستاذ بالانصراف.. لقد جئت لألتحق بوظيفة في مدينة
«الكاز».

- مع السلامة..

انصرف «ضياء» وأخذ «النورسي» يحدث الناس عن أفضل شهر رمضان
المبارك، وفضل العبادة فيه، وقدر الحسنات التي يتلقاها الصائم وخصوصاً
بأن هذه هي ليلة القدر، هذا هو أغلب الاحتمالات.

وما كاد يصل «ضياء» إلى مدينة «الكاز» حتى قبضوا عليه وساقوه
إلى سجن «دنزلي».



تفاقت حدة الاعتقالات لـ «طلاب النور» .

وصلت السيارة إلى «أنقرة» في مساء اليوم التالي.
 وكان القمر قد عاد هلالاً شاحباً مظلاً بالغيوم.
 أنزلوه في فندق في منطقة «جانقري قاي»، أعدوا عدتهم لاستقباله.
 استبدلوا طاقم الفندق بأفراد من الشرطة.
 وما إن علم الوالي بوصوله حتى أرسل في طلبه لعلمه مسبقاً بأخباره.
 متعجباً من أمره:

- «كيف يكون هذا الشيخ الطاعن في السن له كل هذا التأثير الذي امتد
 إلى كل أنحاء تركيا بل وخارجها أيضاً.

كيف تسنى له تحدى الحكومة بلباسه المخالف لقانون القيافة؟
 لابد إذن من وضع حد، وأن يُرغم «النورسي» على الامتثال وتغيير
 قيافته».

أحضروه إلى مقر الوالي في حراسة مشددة..

يمشي وسط أفراد الشرطة هزياً..

وقف أمام الوالي ينظر إليه بعينين ذابلتين.

هز الوالي «نوزاد طان دوغان» رأسه متعجباً وقال:

- لماذا لم تمثل لقانون القيافة وتبدل هذه الملابس؟

قال النورسي محتدًا:

- «إنني مثل أجدادكم، وأعيش بشكل منزو، لذا فإن قانون القيافة

لا ينطبق عليّ، ولا أخرج إلى الخارج. بل أنتم من تجبروني على ذلك.. ليصيبك الله في رأسك».

ضغط الوالي على زر أمامه، فدلف إليه الحارس مهرولاً.

وسمع النورسي يقول:

مردفًا:

- «لن أنزع هذه العمامة إلا بانتزاع رأسي».

فأخذه وتوجهوا إلى محطة القطار وبعد أيام قلائل، دوت أخبار
في المدينة أن الوالي مات متحرًا بسبب امرأة خائنه، وأخبار أخرى تقول أن دعوة
«النورسي» قد أصابته.

«نداء المدن»

«سجن دنزلي ١٩٤٤»

لا تزال الأجواء تثور بالعواصف.

تفاقت حدة الاعتقالات «لطلاب النور»، فمن مدينة «إسبارطة» و«قسطموني» أعتقل المئات، أودعوا سجن «دنزلي».

مر رمضان وفرح الصائمون بفطرهم.

توجه «النورسي» في حراسة مشددة إلى محطة القطار الذي انطلق كالسهم في المدى صوب مدينة «إسبارطة» ثم ركبوا قطاراً آخر متوجهاً إلى مدينة «دنزلي».. حيث مبنى السجن كقلعة حربية عتيقة تقف بجمود خارج المدينة. زجوا فيه «الشيخ».

ضُرب «البروجي» إيذاناً بوصوله.. جعلهم يدورون ويحورون كما لو كان - الشيخ - سيقبل الدنيا على أعقابها.

رُفعت درجة الاستعداد القصوى وهو يمر من بينهم بخطوات هزيلة. وضعوه في غرفة ظلماء رطبة بجوار المراحيض - ظل فيها يومين - زكمت أنفه رائحة النشادر المنبعثة من الظلام.

اجتمعت إدارة السجن برئاسة مديره «شوقي» والمدعي العام «جميل سويلماز».

ودوت نفثات الشياطين في آذانهم حتى أصدروا قرارًا فحواه:

- أيها المساجين قد أتى إلينا مسجون خطير.. عقيدته منحرفة.. فهو موحد بالله ويأتي بأشياء غريبة عن الحياة الآخرة.. فهذا رجل يقول إن الآخرة خير وأبقى..

لذلك نطلب منكم أن تباعدوا عنه حتى لا تصابوا مما يقول بأذى.

بدأ المساجين ينفرون منه، وعلى رأسهم أعتاهم وأشرسهم «سليمان خونكار».

تقرب منهم «طلاب النور» وخصصوا لهم وقتًا لإلقاء الدروس ودائمًا ما يصلون معهم.

نقوش ... على جدران المنفى

شقوا طرقاً نورانية إلى قلوبهم مما جعلهم - المساجين - يصيرون إدارة السجن بمفاجأة وهي أنهم تابوا وأنابوا، وداوموا على أداء الصلوات.

تتابعت الجلسات حتى صدر قرار بتبرئة «طلاب النور» الذين التقوا بأستاذهم داخل القضبان وفرحوا برؤيته، لكنهم أُخرجوا ليبقى وحيداً ويعاني ويلات الألم عدا «الحافظ علي» الذي مرض ومات حسرة على أستاذه داخل القضبان.

كانت المدينة تسبح في ظلمة معتمة، عدا أضواء خافتة تهز عقولهم.
 فقد بلغ اضطهادهم للنور سي مداه.
 وها هو قابع في غرفته الصغيرة الظلماء تسبح خواطره أزهير نُجلى طيات
 الظلام الحالك السواد.
 وهتفت ذاته العليلة:
 هل هذا هو الإنسان...؟
 لاحت في الأفق الأبدي إشارات الخطر الزاحف بضراوة.
 تدفقت عليه سيول الذكريات الزاخرة..
 رأى ابتسامة أمه وهي تحنو عليه وتلثمه بقبلة.. تملأ رحابه المدى..
 وأباه يحرث الأرض.
 ورأى نفسه يلهو مع سنابل القمح التي تداعبها الرياح.

نقوش ... على جدران المنفى

أخوه «عبد الله» يلقي عليه الدرس، وإخوته البنات - درية وخانم - يقمن بالطهي وهو يصيح عليهن أنا جوعان.

تنهد:

رحمة الله على الجميع الميت منهم والحي.

وما زالت الكلمات والمكتوبات واللمعات تقرع ناقوس خياله.

انتفض الليل الحالك، الجاثم على أضلع المدينة، منذراً بانزياحه وتلاشيه
في جوف الزمان.

هبت الشمس فزعة من مهجعها ترسل خيوطاً لاهبه..

وهو مكبل مع أنجب تلاميذه - الذي طالما ضرب به المثل في النبوغ -
«أحمد خسرو».. يتقدمان قافلة من طلاب النور في طريقهم إلى المحكمة لحضور
الجلسة.

يحيط بهم الجنود مدججين بالسلاح.

هرع أهالي المدينة إلى الشارع الرئيسي المؤدي إلى المحكمة.. يلوحون،
يهتفون للنورسي، يرفعون أياديهم تضرعاً.

تملكهم حزن عميق.

وجلّت قلوبهم، وهم يرون شيخهم الضعيف يُمتهن دونما ذنب اقترفه.

تطايرت من أفواههم اللعنات على الظلم والظالمين.

نقوش ... على جدران المنفى

همس في أذن «أحمد خسرو»:

- أوصيك باتمام مشروع المصحف التوفيقي.

تعالَت الأصوات في مظاهرة حاشدة:

- هؤلاء الطلاب.. «طلاب النور».. ليسوا طلاب منفعة شخصية..
أو طلاب جهل.. بل طلاب علم، ينشدون الأمل في أرض الخصوبة والكبرياء،
يزيحون بعلمهم غمام القهر الذي يخلق فوق الرؤوس، لماذا يحاول المسئولون
تخطيم أحلامهم التي تزهو في شدة الأوطان.

دخلوا جميعاً إلى القاعة المترعة بالمقاعد الخشبية المتراسة.
 قد أُعدت لجنة من الموظفين قليلي الخبرة بعلوم الدين .. للقيام بتدقيق
 محتويات «رسائل النور».
 احتد «النورسي» قائلاً:

- «إن هؤلاء الخبراء المختصين المزعومين الذين لا يملكون في الحقيقة
 أي اختصاص، لا يمكن أن يقوموا بتدقيق «رسائل النور»، لذا فإنني أطلب
 تشكيل لجنة علمية عليا من الاختصاصيين في «أنقرة».. بل ليدعوا الفلاسفة
 من أوروبا، فإن عثروا في «رسائل النور» على أية مخالفة قانونية أو جرم،
 فإنني أَرْضَى بأشد العقوبة».

وبالفعل استجابت المحكمة لطلبه.

أمرت بتأليف لجنة عليا في العاصمة.

شارك فيها علماء وأساتذة واختصاصيون، دققوا «رسائل النور».

وبعد فترة قليلة جاء تقريرهم يقول:

- لا توجد أية مآرب «لبدیع الزمان سعيد النورسي»، وهو لا يدعو إلى تشكيل أية جمعية سياسية أو طريقة صوفية، ومؤلفاته بأجمعها إيمانية وعلمية وهي تفسير «للقرآن الكريم».

واقتنعت المحكمة بهذا التقرير..

أفرجوا عن بعض طلاب النور، ورغم هذا بدرت عنهم محاولات أخرى لتسميمه، ولكنه - النورسي - نجا بعدما عانى من ألام السم التي سرت في عروقه التي تيبست من هول ما حدث.

ومكث داخل الأسر ما يربو على تسعة أشهر.

تقدم خلالها أحد المحامين متحمسًا للدفاع عنه، لكنه أصر أن يقوم هو بالدفاع عن نفسه.

فكان رده على التهم الموجهة إليه ردًا حصيفًا مقنعًا لهيئة المحكمة التي قضت ببراءته في النهاية من جميع التهم الموجهة إليه، ولم تطلق سراحه، بل أمرت بنقله إلى فندق «شهر» تحت الحراسة في انتظار تجديد الأمر بنفيه إلى مكان آخر.

«أمير داغ ١٩٤٤»

١٣٣

ما تزال حدة التربص به على أشدها.

تجدد أمر النفي.

هذه المرة كان إلى «أمير داغ».

تتلقفه المدن العطشى مدينة تلو الأخرى.

الغريب أن هذا لا يحدث بإرادته، لكنه موافق تمامًا لما ينشده، يظنون أن كثرة ترحاله ستحد من مواجهته للرياح العاتية، وغفلوا أن مجرد تحديد إقامته في مكان واحد لا يبرحه كان كفيلاً بتحقيق مأربهم، لكن مجريات الأمور ليست بأيدي أحد.

نعم تأخذ بالأسباب ولكن النتائج من يضمنها..؟

دخل عليه أحد أفراد الحراسة في غرفته المتواضعة في فندق «شهر»، أخبره أن أزف موعد الرحيل وهذه المرة سيكون إلى مدينة «أمير داغ»..

لملم «النورسي» متاعه البسيط ووضعه في سلته، ارتدى جُبته، لف عمامته على رأسه التي اشتعل شعره شيئاً.

قال:

- ها أنا جاهز!..!

هبطوا درجات السلم متخللين ردهة الفندق الضيق، خرجوا إلى الشارع، فوجئ «النورسي» عندما وجد الشارع مزدحماً بالناس الذي جاءوا لوداعه.

وتساءل:

كيف علم هؤلاء بموعد رحيلي؟

ثم أثناء عن التفكير في الإجابة كلمات الوداع و الدعاء الذي يوجهونه إليه.

كان بانتظاره أمام باب الفندق بعض أفراد الحراسة الذين أخذوه إلى العربة القابعة بجوار الطوار المقابل.

يراقبه عن كثب تلميذه «أحمد خسرو» وهو يتألم وتذرف عيناه بالدمع.

لمحة «النورسي» وهو يكاد يحني جسمه ليدخل العربة، فاعتدل وأخذ ينظر إليه وقد تعانق قلباهما في المدى الأبدي وفاضت عليهما نسائم الأخوة والإصرار على تحمل الألم..

تبادلا ابتسامة حزينة ولو حالبعضهما البعض، ولاحظ الحراس ذلك تألموا ثم أمر أحدهم السائق بعد أن- ركبوا جميعاً- بالتحرك..

نقوش ... على جدران المنفى

تخللت العربة الشارع - المكتظ بالمهللين والمودعين - ببطء.. حتى
ابتعدت، وانطلقت على طريق حاصب تطويه طيًّا إلى «أمير داغ».
تهتز العربة فيشعر بالألم يفتت في عضده.
فقد وهن العظم.
ثقلت حركته، واستسلم لأمر القدر.

تتلاطم الأسئلة برأسه أمواجًا في بحر الألم:

- لم كل هذا الاضطهاد؟.. لم يكن لي يوما مأرب في سلطة أو جاه.. ولم أكن حائلاً في سبيل التقدم، فقد طالبت بعمل جامعة لتدريس علوم الحياة بجانب علوم الدين. على غرار.. الأزهر بمصر المحروسة..

وما هو الأزهر.. صار جامعة تنشر أزهيرها نوراً في كل بقاع الأرض، ونحن قد أصدرنا قانوناً للقيافة، وقانوناً للحجاب وفتحنا أبوابنا على مصاريعها فدخلت الرياح تأخذ في طريقها كل شيء، ولم نتق ما يصلح، وضاعت الملامح وشاهت الصور.

كان الوقت عصرًا والسماء صافية زرقاء عندما وصلت بهم العربية متهالكة
تجرجر أحشاءها على الأرض.

وقفت أمام مخفر الشرطة المبني بالحجر الأصفر.

هبط «الشيخ» ومعه حُرَّاسُهُ. ارتقوا درجات السلم المتآكلة، دلفوا من
الباب الأخضر العالي متخللين الردهة إلى غرفة في آخر المخفر.

وعندما وقعت عينا الأمر على «النورسي» بجبته السوداء وعمامته البيضاء
حتى انتفض مرحبًا.

أجلسه وزعق على أحد أفراد الشرطة قائلاً:

- عليك يا إبراهيم أن تبحث للشيخ عن سكن.

ثم رفع أصبعه مردفا:

- على شرط أن يكون قريبًا من المخفر.

وعندما نظر الشرطي «إبراهيم منكويري» إلى الشيخ، حتى أدرك أنه هو «بديع الزمان» فأقبل عليه وانحنى يقبل يديه دون وعي فتعجب كل من حوله.

قال الأمر وتعلو وجهه ابتسامة حائرة:

- أنت معارفك كثيرون في البلدة، فاذهب واستأجر بيتًا للأستاذ «سعيد النورسي».

رد عليه الشرطي:

- «يا سيدي لم يوجد أمام المخفر بيت خال سوى بيت «حسن بافرجي».

- «وليكن».

- حسن هذا رجل سكير.. ومولانا...!

قال «بديع الزمان» مقاطعًا:

- «يا أخي.. لا بأس.. ليكن سكيرًا».

تركهم الشرطي وتوجه إلى صاحب البيت الذي قال:

- كيف يا إبراهيم يسكن معي رجل دين وأنت كما تعلم....!

- ماذا أعلم؟

- ألم تكن تشرب معي؟

- لا تشغل بالك.

- هو لن يرضى.



- بل رضى.

- كيف..؟

- ليجعلك تتوب..

وضحك الاثنان ثم عاد «إبراهيم» إلى المخفر وأبلغهم بالموافقة.

قال الأمر موجهاً كلامه للشرطي:

- فلتأخذ أغراض الأستاذ إذن وتذهب معه، وتظل معه حتى تقضي له ما يحتاج.. ثم تعود.

أخذ سلة الأغراض من يد «بديع الزمان» وقال حانيا:

- من فضلك يا أستاذ.. هيا بنا كي أوصلك.



كان بيت «حسن بافرجي» مكتظاً بالناس في انتظار قدوم الأستاذ، قاموا بالترحيب به ثم انصرفوا سريعاً خوفاً من السلطات.

وفي صباح اليوم التالي قبضوا على «إبراهيم منكويري» لأنه قبل يده وأولاه بعض الاهتمام.

وبدأ يقاسي في منفاه الجديد آلام الوحدة.

وضاقت عليه حلقة المراقبة، حتى شعر أن السجن كان أرحم من هذه المراقبة، فكانوا كظله.

في أثناء خروجه إلى السهول القريبة من المدينة كانوا يلاحقونه.

فبينما هو في طريقه حتى دنا منه أحدهم قائلاً:

- قف أيها الرجل.

.....

- «هذه الملابس العثمانية مخالفة لقانون الأزياء»!!

ونزع من على رأسه العمامة ثم ساقه إلى المخفر.
وما كاد يدخل به المخفر حتى انقض الأهالي على الحارس وأوسعوه ضرباً
وخلصوا « بديع الزمان » من يديه وعادوا به إلى بيته.
أخذوا يعدون له الطعام.. وما إن أكله حتى شعر أن بطنه يؤلمه وبدأ يتلوى
من الألم، فقاموا باستدعاء الدكتور « طاهر رياض » فحصه وأعطاه العلاج
ومكث النورسي أسبوعاً مستلقياً في الفراش حتى شفي.
وبدأ طلابه يتحرون ما حدث فوجدوا أنه في أثناء خروجه .. يدخل أحد
الحراس ويدس له السم في الطعام.

وبدا يكتب - النورسي - شكاوى، يرسلها إلى الحكام والمسؤولين عن مدى الاضطهاد الذي يلاقيه.

وجاء الرد عليه بتقديمه إلى المحاكمة في «أفيون».

سأل نفسه عن التهم الجديدة التي يمكن أن تكون قد فُندت له، فطن إلى أنها نفس التهم السابقة، وما يحدث ما هو إلا أمر يتجدد ثم تصدر البراءة ثم يتجدد وهكذا..

لا يدري إن كانت براءة المذنبين أم ذنوب الأبرياء..

فهو في سجن دائم. تتلقفه المدن بهلع الاشتياق.

يلتف حوله طلابه وأهالي هذه الأصقاع، لا أحد يستطيع أن ينجيهِ..

فكل من يدنو منه يُقبض عليه. كما يفعلون مع طلابه.. كلهم قيد المراقبة والتفتيش والمحاكمات..

امتألت بهم السجون.

وضعوا بؤس أيامهم ولاقوا العناء في الشتات والعذاب والحرمان.

جمعوا كل الكتب والأوراق التي تخص «بديع الزمان»، خصوصاً «رسائل النور»، أعادوا تشكيل لجنة لفحصها.

فحصوها من قبل ولم يعثروا فيها على كلمة يتحقق فيها مأربهم، لم يستطيعوا أن يوقعوا به.

أرسلت الحكومة من محافظة «أفيون» ثلاثة من أفراد البوليس السري، يتخفون في ملابس عمال صيانة الكهرباء.

وكان الوقت ضحى عندما رمقهم «النورسي» وهم يجلسون على مقهى مواجه لبيته، وكان قد شك في تصرفاتهم المريبة عندما اقتربوا من البيت، ينظرون إليه بطرف خفي بحجة صيانة شبكة الكهرباء..

أخذوا يجتسون الشاي ويلعبون «الدومينو».. وهو يتابعهم من النافذة المطلة على الشارع.

فأرسل إليهم أحد تلاميذه «جيلان جالشقان».

دنا منهم قائلًا!

- السلام عليكم يا إخوان.

حدقوا فيه شذرا ولم يردوا عليه.

فقال:

- الأستاذ «بديع الزمان» يدعوكم إلى بيته.

انتابتهم المفاجأة وهم يحدقون في وجوه بعضهم بعضًا بذهول.

ثم قال أحدهم متحاذقًا:

- ومن هو «بديع الزمان»؟

أشار بيده صوب المنزل. قال:

- إنه يسكن هذا المنزل.

كان رئيسهم «عبد الرحمن كول» يفكر في مالو كان قد كُشف أمرهم وقال:

- حسنًا.. سأذهب معك.

وأشار لصاحبيه قائلًا:

- وأنتم انتظروني ريثما أعود.

عبر الشارع إلى المنزل، دلف غرفة «بديع الزمان» فرحب به.

أجلسه وسأله:

- ماذا تعمل يا أخي؟

- أنا فني في صيانة الكهرباء!

بدأ «بديع الزمان» يلاطفه، ويحكي معه عن أمور الدين و«رسائل النور» التي تؤدي دورًا كبيرًا في بث الأمن و الطمأنينة في النفوس.

قد شغلت هذه المفاجأة تفكير المخبر السري، ولم يود «بديع الزمان» أن يجرح مشاعره ويخبره بأنه يعرف حقيقته وسمح له بالانصراف.

أخذ يتابعه ببصره الهزيل حتى وصل إلى رفيقيه على المقهى، وهو مأزوم يفكر في أمر التهم التي افتعلوها له.. وأنه مقبل على محاكمة أخرى في «أفيون» لا ريب.

ألفت حياته الترحال.
إلا أن الأسى بدأ يتسلل إلى قلبه.
قاوم هزات النفس.
لم يجعل الألم يسيطر عليه.
كانت «أمير داغ» غارقة في السكون وهو قابع في غرفته، ينشد المدد
ويتضرع إلى العلي القدير أن يسدل عليه لباس الصبر الأبدي.
سمع صياح الديكة، وديب الحياة في الأجسام الهامدة.
تجهم حينما ترامت إلى مسامعه الأرجل تقرع السلم الخشبي المؤدي
إلى غرفته.
أدرك أن أوان الترحال قد حان.
كان متاعه جاهزاً في السلة..

دوت الطرقات على الباب فاستيقظ أهل البيت جميعاً وعلى رأسهم «حسن» صاحبه الذي تاب على يديه.

فتح لهم الباب قائلاً:

- أنا جاهز!

أمر الضباط الجنود قائلاً:

- توقفوا.

ونظر إلى «النورسي» محزوناً:

- هل كنت تعلم بقدمنا؟

تعانقت نظراتها وغاصت إلى عمق النفس.

وبدا الضابط مأزوماً يحدث نفسه:

- هل يمكن أن يكون هذا الشيخ الوقور قد سبب أي مشاكل لأحد، خصوصاً الحكومة بكل إمكانياتها، ثم ماذا يفعلون له؟ فقد ملأت رسائله البلاد ولم يستطع أحد السيطرة عليها.. ثم ماذا يضيرهم في ذلك.. شيخ لا يتأفف من شظف العيش.. وكل ذنبه أنه أضاع الطريق لكيلا يتعثر الناس في سيرهم.. يحاول حفظ العقول من سموم الرياح العاتية.

التفت إلى الجنود وحاول أن يأمرهم بالتراجع، وترك هذا الشيخ في حاله..

لكن «النورسي» قد أدركه ببصيرته الفذة قائلاً:

- «لابد أن تنفذ ما أمرك به.. وإلا سيقبضون عليك وأنت مازلت

في مقتبل العمر».

نظر أحد الجنود إلى الضابط وقال:

- «لقد صدق «الشيخ» يا سيدي.. ولن يقبضوا عليك وحدك بل سيقبضون علينا جميعا، وفي النهاية سيقبضون على الشيخ أيضا».

خرج «بديع الزمان» أمامهم، هبط السلم.

فرأى «حسن» وأهل الدار يبكون.

عبروا الشارع إلى المخفر.

جلس «النورسي» في الردهة بجانبه أحد الحراس في انتظار قائد المخفر الذي سيقرر ماذا سيفعلون معه.

هبطت الثلوج بضراوة وغطت جذوع الأشجار.
تراكمت حتى طالت نوافذ المنازل الخشبية والحجرية.
تجمدت أطرافهم.
حجب الضباب المتكاثف في المدى ضوء الشمس وخفت الرؤية.
شُحنت الأجواء بزوايع قاصفة، راعدة واجفة.
زعق أحد الحراس منبهاً الجميع بقدوم قائد المخفر. الذي دلف قاصداً
غرفة مكتبه.
وأول شيء فعله هو أن أعطى أمراً بالقبض على الضابط الشاب الذي
ظهرت على ملامحه علامات الشفقة والرحمة بـ«الشيخ» في أثناء القبض عليه فجراً.
لم يعلم الضابط أن أحد أفراد الحملة هو مخبر سري، قد وشى به، تم ترحيل
الضابط مصفداً في الأغلال وهو يرقب «النورسي» مذهولاً.. يفكر: ألهذا الحد
هم مرعوبون منك أيها «الشيخ» الضعيف؟

وبادله النورسي بنظرة معناها: لا تخف لن ينالوا منك أو منى.

وصرخت ذاته المكلومة:.

- هل هذا هو الإنسان؟

أتاه شرطي يقول:

- هيا معي يا شيخ..

نهض متثاقلاً بيده سلته. أمسك الشرطي بذراعه، دلف به إلى غرفة واسعة فارغة.. يتدلى من سقفها الخشبي لمبة صغيرة ترسل ضوءاً أصفر كئيماً، وفي ركن منها توجد حصيرة صغيرة.. يتردد الصوت في أجوائها محدثاً صدى يرتد إلى آذان صاحبه مدوياً.

قال الشرطي:

- هذا مكانك حتى تذهب إلى المحكمة..

- تركه وأوصد الباب بمزلاج حديدي أحدث صوته دويًا في عمق السكون والبرودة التي تلف الغرفة.

جلس «بديع الزمان» على الحصيرة بعد أن وضع سلتة جانبا.
اتكأ بظهره على الحائط الحجري.

ينظر إلى النافذة المحصنة بقضبان حديدية والمغطاة بالثلج.

تداعت إلى مسامعه أصوات تعلو في الخارج:

- لا يمكن أن تتركوه في هذا البرد وحده.

رد آخر:

- «سأدخل معه حتى أقوم برعايته وخدمته».

رد ثالثا:

- حرام عليكم.

علت الأصوات وتداخلت، امتلأ الشارع بالناس، يهتفون، ينادون
بخروجه من السجن.

وعلى عجل أتت الجنود، تمسك بكل من يعلو صوته وتدفع به حتى
فرقتهم جميعاً.

نهض الشيخ من مكانه يتحسس الحائط المشبع بالرطوبة ويتكئ عليه حتى
وصل إلى الباب.

يتأكد من نبرات هذه الأصوات التي يعرف أصحابها، أدرك أنهم من
تلاميذه.

قُبض عليهم، ساقوهم مصفدين إلى السجن، بعضهم من «أميرداغ»
والعشرات أتواهم من «إسبارطة»، «دينزلي»، «آمرن»، «قسطموني»، «اينبولي»
و «أفيون»، زجوا بهم جميعاً إلى سجن «أفيون».

بدأت تُنفذ معه سياسة العزلة والحصار النفسي والجسدي حتى يتخلصوا منه.

اخترق البرد عظامه الواهنة حتى استقر في النخاع.
مدد جسمه النحيل على الحصير مدثرًا بغطاء خفيف.
منعوا عنه الطعام عدة أيام.
استعان ببعض الزبيب والحلوى التي يحتفظ بها دائمًا في سلتة.
وعندما أدخلوا له طعامًا كان به سُم. فامتنع عن تناوله لشعوره بذلك.
وبرغم أنه يشعر بوطأة الزمن إلا أنه استجمع قواه.
ودخل حدائق الكلمات التي امتزجت بكيانه.
بحث عن الأسرار الكامنة وراء المعاني المتدفقة إلى عالمه الرحب المليء
باللمعات.

كانت تسبيحاته تطن في فراغ الغرفة الواسعة كطين النحل.
تسرب الطين إلى الخارج حتى سمعه تلاميذه في الغرف المجاورة.
فتحول سجن «أفيون» إلى مدرسة يوسفية كما أطلق عليه - الشيخ - من
قبل تيمناً بالصديق عليه السلام.
قام بتأليف «الحُجَّةُ الزهراء»، في قصاصات صغيرة يضعها في صناديق
الكبريت، ثم يأتي أحد طلابه هامساً بجوار النافذة فيلقبها «الشيخ»، يتلقفها
الطالب ويذهب إلى زملائه.
يقومون بكتابتها ونسخها عشرات النسخ، ويهربونها إلى خارج السجن.

- قام «طلاب النور» - كدأبهم - بإرشاد المساجين.
تاب على أيديهم الكثير من المذنبين الذين قاموا بجرائم شابت لها الولدان.
ومن أبرزهم «القصاب» الرجل الفظ الذي تحول إلى رجل مُصل، يأخذ
بأيدي الضعفاء من المساجين.
وهذا ما جعل أفراد الشرطة في هذا المخفر يتعجبون من قدرة هؤلاء
الطلاب على تقويم هؤلاء المجرمين.

كان الوقت ظهرًا عندما ألقى أحد التلاميذ التحية على «الشيخ» من خلال النافذة.

فأمسكوا به وضربوه ضربًا مبرحًا.

وعندما حاول «زبير كوندوز آلب» التسلل إلى غرفة الشيخ، لأنه قد اشتاق إليه، وقضاء بعض حوائجه.

أمسكوا به وساقوه إلى غرفة التعذيب، وكان صراخه يذهب إلى آخر مدى.

جاءت أوامر السلطة الحاكمة التي تلقاها «محمد أفندي» مدير السجن وهو رجل ربة أشيب عيناه جاحظتان. شاربه كث يغطي شفته الغليظة ويدخل فمه.

يجب أن تكون هناك تهمة واضحة المعالم لـ «النورسي».

بلغ الحقد مداه بداخل مدير السجن.

أخذ يروح ويحيى داخل غرفة مكتبه يفكر في طريقة يخدع بها «النورسي» ويعضده بعض أفراد الشرطة.

فقال أحدهم:

- يا سيدي هذا الرجل طاف كل سجون الأناضول ومخافرها، وفي كل مرة يخرج براءة، ورغم هذا كان يلاقي السجن، ولا يبالي.

قال قائد السجن:

- من أجل هذا يجب أن تكون هناك ذريعة وعندئذ ..

ثم صمت قليلا وهم يتابعونه.

قال مردفًا:

- وعندئذ يمكن أن يُساق إلى حبل المشنقة.

- ولكن لم يتمكن أحد من إدانته، «رسائل النور» طافت كل البلاد وغير ذلك تم فحصها، ولم يكن بها ما يدينه.

رد آخر قد نفث الشيطان في أذنيه:

- نجد له طريقة ونتخلص منه داخل السجن.

نظر إليه القائد شذراً:

- حاولنا مرارًا وتكرارًا لكنه نجا.

رد آخر قائلًا:

- هو يقول: إني لا أهاب الموت.. فأنتم ستعطونني تأشيرة إلى الآخرة.

قال ثالث:

- وحتى إن مات.. فإن.. رسائله تتكلم بدلاً منه.

قال القائد:

- التفتّ حوله الناس جميعًا في الأناضول.. حتى صار رمزًا.

ثم جلس على مقعد وثير وأخذ ينظر إلى السجادة الشيرازي الحريرية.

وقال:



- الغريب أنه لم يكن له يومًا مطمع في سلطة أو جاه.
- إذن فلنتركه في حاله.. يذهب أينما شاء.
- لا نستطيع تركه فهذه تكون نهايتنا.
- لم؟
- إنها أوامر عليا..
- وإن لم نستطع إهانته أو التخلص منه؟
- بدا القائد حائرًا وقال!
- لا أعلم.. ولكن يجب أن نفكر في شيء يورطه، وبهذا سنحصل على ترقية.. ومن الجائز أن أصير وزيرًا..
- ضغط على زر على مكتبه، بجواره علم بلاده.
- تجمدت عيناه وقال:
- وجدتها!!
- أتى إليه الساعي قائلاً!
- نعم يا سيدي.
- نظر إلى الخادم شاردًا وقال:
- أحضر لي أحد الأعلام التركية.. وفنجان من القهوة!
- نظر الضباط والمساعدون إلى بعضهم بعضًا في حيرة من أمرهم..

قال أحدهم:

- ماذا ستفعل بالعلم يا سيدي؟

- سنضعه في غرفة «النورسي».

- وماذا بعد.

- سيثير فيه حقه على السلطة، ومن الجائز أن يقوم بسبها. وعندئذ..

- ماذا؟

- تكون المشقة..

رد آخر بانفعال:

- يا سيدي هو لم يكره يوماً أي سلطة بل يكره أن تضيع ملامح البلاد
ويبتعد الناس عن الدين.

رد آخر مؤكداً للكلام:

- نعم هو رجل يقاوم الإلحاد، والسفور.

ابتسم القائد ابتسامة بلهاء وقال واثقاً من نفسه:

- سنرى.. أتراهنون؟

- علام؟

- يكون العشاء في هذه الليلة على حسابك.

فتجههم وجه الضابط وقال:

نقوش ... على جدران المنفى

- وإن لم يقع في الفخ..

رد القائد ضاحكا بصوت عال فظهرت أسنانه القذرة:

- سيكون أيضا العشاء على حسابك.

فانفجر الجميع بضحك هستيري.

دخل عليهم الحارس وفي إحدى يديه علم البلاد، وباليد الأخرى صينية عليها فنجان القهوة، وضعها أمام القائد على منضده صغيرة وخرج.

بينما انصبت عيونهم جميعًا على العلم، يفكرون ماذا سيصنع قائدهم الهمام.

دلف الحارس إلى غرفة «النورسي» ومعه العلم قام بتثبيته في فتحة من فتحات النافذة ذات الأضلاع فتدلى منسدلاً إلى أسفل.

يراقبه الشيخ دون أن ينبس ببنت شفة حتى خرج.

مكث القائد ومن معه يسترقون السمع ويتلصصون.

خاب ظنهم عندما وجدوه لم يحرك ساكنًا.

بل لمحوا على وجهه ابتسامة ساخرة تدل على بلاهتهم.

أمسك بورقة وقلم وكتب يقول موجهاً خطابه إلى مدير السجن:

- «أشكرك لقيامك بنصب علم بمناسبة عيد الاستقلال، لقد أدركت حكومة أنقرة أن قيامي «باستانبول» في أثناء الحركة المليية بطبع ونشر

نقوش ... على جدران المنفى

كتابي «الخطوات الست» ضد الإنجليز واليونان كان يعادل في تأثيره فرقة عسكرية».

لذلك فقد أرسل «مصطفى كمال» رسالتين بالشفرة، يطلب حضوري إلى «أنقرة»، لكي يكافئني».

حتى أنه قال:

- (نحن بحاجة إلى هذا العالم البطل)

واختتم رسالته قائلاً:

إذن فمن حقي أن يُنصب مثل هذا العلم في غرفتي.

وقام بإرساله إلى مدير السجن بواسطة أحد الحراس.

وعندما قرأه القائد، اشتعلت جمرات الحقد المدفون في قلبه واحتقن وجهه.

وعندما لاحظ بقية أفراد الشرطة أن قائدهم قد أخذ على وجهه لكمة شديدة من الشيخ كتموا ضحكاتهم.

ولما لم يتمالكوا أنفسهم خرجوا من غرفته مسرعين متفجرين بالضحك.

توالت الجلسات في قاعة المحكمة الواسعة عالية النوافذ شديدة الحراسة.
كانت مترعة بالحضور القابعين على مقاعدهم الخشبية مبهوتين.
الكلمات تدوي وتخرج من فم «النورسي» طليقة زَلِقَة تَقْرَع أذان أعضاء
هيئة المحكمة القابعين على المنصة مشدوهين من فصاحة هذا اللسان الذي
يقطر شهدًا.

يريح النفوس ويداعب وجدان الناس بحس شجي أسيان.
يشعرون بلذة هذا السحر الذي يتسلل إلى حنايا الروح..
يدافع عن تلاميذه بحب...
أذهلتهم شهادة المخبرين الذين تحفوا في ملابس عمال الكهرباء..
- كيف علم بأمرهم؟..
- ليس هذا إلا شيئًا خارقًا..

نقوش ... على جدران المنفى

- طوقتهم دائرة الذهول عندما جال بخاطرهم.. إن هذا إلا علم لدي..
- تركهم يللمون كلماتهم المبعثرة من على الأوراق المتناثرة.
- دلف إلى غرفة رئيس القلم الجنائي ليؤدي صلاة الظهر.
- ثم خرج قائلاً:
- «لقد جئنا إلى هنا لأننا ندافع عن حقوق الصلاة، إذ لا ذنب لنا سواه».
- نظر إليه «خسرو» شاردًا:
- ها هي النسמת الرقيقة.. كلماتك المدونة في «رسائل النور».. الياقوت الناصع المبعثر في دروبك.. سكنت القلوب.
- كيف ستللم أشلاءك من القفار؟
- تتعانق نظراتهم.
- ولفتات الود تعطر الأجواء.
- وابتسامته تغمرهم صدقًا وطيبة..
- هكذا امتزجت حياته بالكلمات ترفرف بأجنحة وتملأ رحابة المدى.
- وبالرغم من هذا.. أصدرت المحكمة حكمها:
- الحبس عشرون شهرًا لـ «بديع الزمان سعيد النورسي»
- وعلى عشرة من طلبة النور ستة أشهر.
- وتبرئة الباقيين.

ثار «النورسي» وطلابه...:

أصدرت محكمة «دينزلي» حكمها ببراءته من نفس التهم، وتبرئة «رسائل النور»، بعد تدقيق وتمحيص.

أذعنت المحكمة للطلب الذي قدمه، وجاء حكمها ببراءته استناداً إلى الحكم الصادر مسبقاً.

ولكن عقدت جلسات عديدة في محكمة «أفيون» للنظر في قرار محكمة التمييز، وفي النهاية تم إخلاء سبيله..

كانت الشوارع محتشدة بالجماهير، يصيحون، يهللون.

رفضت هيئة المحكمة خروجه مباشرة خشية حدوث مظاهرة حب له.

لذلك أبقوه داخل المحكمة حتى وقت الفجر مع عدد من طلابه وبصحبتهم بعض أفراد الحراسة، حيث غادر المحكمة إلى بيت قد أعد له.

«الفيوضات المتدفقة»

«سعيد الثالث ١٩٥٠»

رنت أشواقه إلى السماء.
والانطلاق إلى عالمه المتحرر من قيود الطغيان والاضطهاد.
جعل الجمال قطرات تملأ أرض الأناضول.
استأجر بيتاً في مدينة «أفيون» بمساعدة طلابه «بیرام وزبیر وخسرو
وحسني وطاهري» وآخرين.
دلف إلى البيت رافلاً في جيبته السوداء، معتجراً قلنسوة زرقاء يلف حول
رقبته شالاً أبيض.
لاحت قسّمات الزمن على وجهه الناحل، وهن العظم وضعف البصر.
بيده السلة فيها أغراضه القليلة المتواضعة.
كانت جمرات الحقد ما تزال متقدة ولكنها متوارية تحت الرماد.
أرهبوا الناس.

صنعوا حوله قضباناً من الحديد تمنع الاقتراب منه.

عيون الشرطة تلاحقه وتعد عليه أنفاسه.

وأطلقوها صريحة مدوية:

- هذا الرجل من دنا منه فقد ارتكب إثماً كبيراً وبهتاناً مبيناً، على إثره
سينال حظه من العقاب.

- فهذا نحن أرباب السلطة والنفوذ، مسئولون عن تصرفات العباد في
هذه البلاد.

- يا ويح من يخالف لنا أمراً.

تدفقت عليه الآلام من كل صوب وحذب، آلام الشيخوخة وآلام القهر.
جعلوا حياته باردة.

ولكن هذه الآلام دائماً ما كانت توقف روحه التي تبحث عن السر الكامن
وراء المعاني الكلية للحقيقة.

لم يمتنع عنه طلابه ومريدوه مما أثار سخطهم عليه.

فقرر أن يتوجه إلى مدينة «أمير داغ».

فوجدوا أن طلبه هذا مناسباً لهم ظناً منهم بأنهم قد يستريحون وتهدأ «أفيون» فهم دائماً هكذا.

ينفونه من بلد إلى آخر لأنهم لا يطيقون مكوثه، ويجهلون أن الثمرة لا تأتي إلا بانتقاله.

مر عليه شهران في «أفيون»، وبعد صلاة العشاء طلب من زبير أن يتهياً للرحيل باكراً.

فسأله «زبير»:

- إلى أين يا أستاذنا؟

- إلى أمير داغ.

وفي صباح اليوم التالي كانت العربة جاهزة وقابعة بجانب الطوار أمام باب المنزل.

أرسل المخفر أحد أفراده ليكون في صحبتهم ومعه أوراق تسليمه إلى شرطة «أمير داغ».

تحركت العربية وانطلقت بهم إلى «منفاه القديم» عام أربعة وأربعين وتسعمائة وألف.

تحرك الحنين بداخله وتدفقت الفيوضات.

الذكرى الأبدية لطلابه فيها ولأهلها جميعاً.

تذكر «إبراهيم منكويري» ذلك الشرطي الذي كان مكلفاً بالبحث له عن منزل يقيم فيه.

وعندما رآه انكب على يديه يقبلهما.

تذكر كلام الضابط له بأنه يجب أن يكون البيت أمام المخفر حتى تسهل مراقبته. حتى استقر على بيت الأسطى «حسن» ذلك السكير الذي تاب وأناب.

تذكر الدكتور «طاهر بارجين» الذي طببه من محاولة التسمم التي دبروها للتخلص منه.

وذاك الرجل الذي وضع عربية حصان بسائقها في خدمته لنقله إلى البساتين والعودة منها.

العربة تطوي الطريق في عمق السكون وهو شارد الذهن.

تنهد عندما تذكر الحداثق الشاسعة التي تنبع من تفاريج الوديان، وأشجار البلوط التي تغطي ظلالها على الأشجار الأخرى.

ينظر من نافذة العربية ويرى الخضار على بساط الريح حتى آخر البعد.

كان الوقت عصرًا حينما وصلت بهم العربة أمام مخفر الشرطة المصنوع من الحجارة والمسقوف بخشب البلوط.

هبط الشرطي ومعه أوراقه ودلف إلى المخفر أخذ توقيعا بالاستلام، وبدأ قائد المخفر مستاءً.

قال مبرطما:

- كنا قد استرحنا.. من ذا الذي أتى بكم إلينا ثانيًا؟

تبسم «النورسي» وطلابه عندما لاحظ تغييرًا في وجه القائد.

قال «زبير»:

- اسمح لنا حتى نستطيع أن نتدبر لنا منزلًا؟

أشار بكلتا يديه متأففًا:

- نعم تفضلوا.

وما إن خرجوا من المخفر حتى أشار لأحد أفراد الشرطة قائلاً:

اذهب معهم حتى يعثروا على أحد المنازل، وأريد مراقبتهم طوال الأربعة والعشرين ساعة.

كان الوقت عشاءً عندما وجدوا منزلاً مناسباً لإقامة «الشيخ».
وما كادوا يجلسون حتى دوى أذان العشاء في الأفق الرحب باللغة العربية.
وهُرع الناس إلى الشوارع فرحين، فُتحت النوافذ، أطل منها الناس
مستوحين لأنفسهم صُبْحًا مشمسًا وارفًا بالمنجزات.
مستنكفين ظلامًا رحل مع بقايا الغيوم.

توجهوا إلى الجامع ذي المئذنة الدبوسية يتوسطهم الشيخ.

زحف الأمل إلى قلبه هاتفاً «الله أكبر».

يُقبل وجه السماء.

يعانق السر الأبدي.

صلى بهم إماماً، وبعد ختام الصلاة جلس متكئاً بظهره على الحائط مواجهاً للناس الذين مكثوا يستمعون إلى الفيوضات التي امتزجت بكلماته ولمعاته التي سمت حباً وحلماً رائعاً قد تجسد أمامه للتو.

الوجوه تلتف حوله حانية مشرقة.

أرسل برقية تهنئة إلى «الحاكم الجديد» يهنئه ويدعو له بالتوفيق.

وقال موجهاً كلامه لـ «زبير كوندوز ألب»:

- أتدري لم أرسل هذه البرقية؟

- لم يا أستاذ؟

- «لأنني أعلم أن أعضاء «حزب الشعب» سيقولون لأنصار «الحزب الديمقراطي»: صحيح إن «سعيد» ليس معنا، ولكنه في الوقت نفسه ليس معكم كذلك، لأن له غاية أخرى وهدفًا آخر... ويجرضونهم بهذا الكلام ويدفعونهم إلى استعمال سلطة الدولة وقوتها ضد المتدينين وطلاب النور، وعندما يتسلم الديمقراطيون هذه البرقية سيقولون لهم «إن سعيدا صديقنا»... وبذلك لن يستعملوا سطوة الدولة بشكل خاطئ ضد المتدينين».

وعندما وصلت هذه البرقية إلى «رئيس الجمهورية» أرسل أيضًا برقية شكر لـ «النورسي».

قال فيها:

بديع الزمان سعيد النورسي..

أمير داغ..

أشكركم على تهنئتكُم القلبية التي أسعدتنا كثيرًا.

«جلال بايار»..

وفي هذا الوقت من عام واحد وخمسين وتسعمائة وألف، قام «طلاب النور» بإرسال نسخ من «رسائل النور» إلى مختلف المؤسسات الثقافية والتوجيهية في أرجاء العالم الرحب، منها «الفاتيكان».

وبعد فترة قصيرة جاءت رسائل الشكر تتدفق عليهم..

وجاءت رسالة من الفاتيكان فتحها زبير وأخذ يقرأها قائلاً:

الفاتيكان..

رقم ٧٤٢٢٣٢..

٢٢ شباط ١٩٥١..

سيدي..

- «تلقينا كتابكم المخطوط الجميل «ذو الفقار» بوساطة وكالة مقام البابوية في «استانبول» وتم تقديمه إلى حضرة البابا الذي رجانا أن نبلغكم بالغ سروره من هذه الالتفاتة الكريمة منكم، ودعواته من الله عز وجل أن يشملكم بلطفه وفضله، ونحن ننتهز هذه الفرصة لنبلغكم احترامنا».

رئاسة سكرتارية الفاتيكان..

شعر «النورسي» بامتنان بالغ، وكل طلابه حوله.
 ضحوا في سبيل حبه بالكثير.
 فقد تركوا متع الدنيا مع الزوجة والولد وفضلوا الترحال من بلد إلى آخر
 على حسب ما يأتي به أمر النفي.
 زوجاتهم يشعرون بالرضا والتميز في آن واحد لأن أزواجهن كان لهم إسهام
 واضح في مسيرة الدعوة التي قاموا بها مع «النورسي»، على مر رحلة العمر.
 منهم من ضحى بروحه في سبيل تحرير البلاد في أثناء الحرب الروسية،
 والكثير عانى الوحدة والحرمان في ظلمات السجون.
 كل ذلك عضد أواصر الصلة بينهم في كل بلاد الأناضول.
 ترك «بديع الزمان» مدينة «أمير داغ» متوجهاً إلى «أسكى شهر»، برغم
 أنه بلغ من العمر عتياً، لكن القدر قد اتخذ أداة للخلاص من عذابات النفس
 التي يلاقيها الناس.

كانت «رسائل النور» هي الدواء الشافي لما في الصدور.
قضى شهرًا ونصف الشهر في فندق «يلدز»، كتب خلالها مقالته
«الحقيقة هي التي تتكلم» ونشرها في مجلة «سبيل الرشاد».
فقد ظن أنه عاش جواً من الحرية حينما رأى معاهد تُفتح للأئمة، وتم
إدخال دروس الدين إلى المدارس.
كان يطوي وراء صلابته ألماً عنيماً.
اعتقد أن أوامر النفي المتلاحقة باتت سراباً، وأما عن العيون التي تراقبه
وتترصد به فهي مجرد أذناب العهد البائد وسرعان ما ستتلاشى وتصبح ذكرى
أيام غابرة.
تفتحت ثانياً الزهور على يديه وبدا يستقبل زواره بكثافة - من عمال
وموظفين - يرشداهم إلى الطريق القويم.
وكانوا يستمتعون بوجودهم معه.
عناكب الظلام تؤدي دورها في نسج شباكها حوله دون أن يستشعر
خطرها القادم بقوة نحو بدنه الهزيل.

توجه إلى إسبارطة مع رفقائه، فاستقبله أهلها استقبالاَ حارًا.
وجد إحدى «رسائل النور» وعنوانها «مرشد الشباب» قد طبعت بكثافة
وتداولتها أيادي طلاب الجامعات والمدارس.
يتهافتون عليها مما أجج جذوة الحقد التي ما لبثت أن توهجت بعد أن خبا
لظاها فترة من الوقت قليلة.

سرعان ما تجدد الهم الثقيل على جرمه النحيل.
تقدم «المدعي العام» بشكوى ضده، فحواها «الإخلال بالمادة رقم ١٦٣
من الدستور التركي»، هذه المادة تُعاقب كل من يدعو إلى إقامة الدولة على
أسس دينية.

وبدأ يتدفق عليه سيل من الهم الذي ظن أنه قد تبدد.
فكر أنه من الضروري أن يكابد رتابة السفر وعناء متوجهاً إلى
«استانبول».. مدينة ذكرياته وأيامه الخوالي، ذكريات شبابه في خان «شكرجي»
عندما كتب على باب غرفته: «هنا يجاب عن أي سؤال. دونما سؤال أحد».

نقوش ... على جدران المنفى

ذكرياته مع أصدقائه الذين رحلوا مع بقايا الظل.

ذكريات حرب البلقان، والحرب العالمية الأولى.

ذكريات كفاحه ضد الإنجليز.

مدينة الأحلام - مدرسة الزهراء - التي تبددت على عتبات قصورها
الأسطورية.



يجلس في البراح الأزرق بجانب شجرة كبيرة مورقة.

«استانبول ١٩٥٢»

«الغمام في سمائه حلق»

نزل في فندق «آق شهر» .
ألفت حياته على الاضطهاد.
لكن أحاسيسه ترنو إلى الأمل في الغد السعيد.
تفتحت بين يديه الأسرار وصار لها أجنحة تحلق في كل أجواء الأناضول
في صورة كلمات ولمعات مرسلّة.
أدرك مفردات الحياة ووجد لنفسه مكاناً متميزاً في الكون الفسيح..
قلبه ارتوى دفئاً وعطراً، وهو يحملق ببصيص النور المتبقي في عينيه
الذابلتين إلى القباب البرونزية والمآذن الدبوسية المسافرة في سماء استانبول..
شعر بعبق الأحلام والأساطير السكرى تطوف دروبها وأخايد
شواطئها..
ها هي الميادين الفسيحة المذهلة، البيوت الناعسة داخل حدائقها..

زحف الفجر إلى قلبه هاتفاً معانقاً الروعة التي تتبخر من صفحات المياه..
التي تعانق الأفق عند آخر نقطة في المدى، تملأ صدره العليل بهواء بارد مفعم
بشذا الرطوبة:

- من قال لهذا الكون كُن.. فكان؟
- من يستطيع أن ينجينا من العقاب؟..
- من يرعى هذا الكون الفسيح المليء بالأسرار؟
- من يستطيع أن يزيح هذا الستار الشفيف الذي يفصل بين الليل
والنهار؟
- امتد سكونه إلى ظل السماوات.
- عانقت تسبيحاته ترنيمات القمر وتراتيل النجوم.
- منتظراً الغد الذي يحمل معه السر ..
- السر الذي يواريه أرباب السلطة ولن يُفصح عنه إلا داخل قاعة المحكمة..

تعددت الجلسات.. دوت الكلمات داخل جدران قاعة المحكمة العتيقة
التي تقف بجمود في مواجهة الزمن الثقيل.
أُكْتَظَّت بالناس الذين أتوا للرؤية «الشيخ»، الواهن.
أشرأت الرؤوس وتزاحمت الأبدان الضمأى.
تخللهم الشيخ وعلى أكتافه هم ثقيل، رجلاه لا تقويان على حمله.
تأبطته أذرع تلاميذه، متسربلاً في جيبته السوداء، يلف رأسه بعمامة بيضاء
تبرز ملامحه المنهكة في وجهه الشاحب.
قرأ المدعي العام الاتهام وأعقبه بقراءة تقارير الخبراء.
يقف ثلاثة من المحامين متسربلين في زهم الأسود الفضفاض، يحدقون
في وجه القاضي ووجوه مستشاريه القابعين على منصة مرتفعة في مواجهة
الجمهور الغفير.
وبعد أن أتم تلاوة التقارير وبنود الاتهام..
كان «بديع الزمان» يقتعد مقعداً على جانب من المنصة.. نهض واقفاً..
عدل طوق جيبته.

أشار له القاضي قائلاً:

- تفضل..

قال «بديع الزمان» بمرارة:

- «هناك خمس وثلاثون سنة من حياتي شاهدة على أنني لم تكن لي علاقة بالسياسة ولا بأي غرض دنيوي، وشغلي الشاغل منحصر في خدمة «الذكر الحكيم» والحقائق الإيمانية، وقد صدرت براءتي من كل التهم التي وجهت لي.. صمت قليلاً ثم أخذ نفساً عميقاً بينما أحد طلابه يتأبط ذراعه حتى لا يهوي على الأرض.

وأردف:

- «كان من الأجدر إظهار مشاعر الغبطة لقيام طلاب الجامعة بطبع رسالة «مرشد الشباب»، وأنه من الضروري - لسلامة الوطن - قراءة هذه الرسالة بل و«رسائل النور» جميعاً. وهي - رسائل النور - التي تقف في مواجهة التيارات الهدامة التي تهز كيان المجتمع وخاصة وباء الإلحاد».

كانت هيئة المحكمة تُصغي باهتمام بالغ، يشعرون بنبرات الصدق تعزف على أوتار كلامه، وعلى وجوههم بشاشة الاقتناع والصدق مما يقول.

مال رئيس المحكمة بجرمه النحيل يميناً وشمالاً هامساً في أذني مساعديه. ثم نظر من تحت عويناته ذات الزجاج السميك وقال:

- قررت المحكمة «تأجيل النظر في القضية لمدة شهر من الآن..

«رفعت الجلسة».

توالى الجلسات.

وقدّم محامي الشيخ ووكلاؤه - مرافعات قوامها رد التهمة التي طالما تكررت مشمولة ببعض الثناء على الشيخ وبعد الإصغاء جيداً لقولهم، توجه رئيس المحكمة للشيخ سائلاً:

- هل لديك يا «إمام» أقوال أخرى؟

- أرجو من عدالتكم التفضل بالسماح لي بكلمة.

- تفضل..

- «أريد هنا أن أسجل بأني لا أستحق أي كلمات ثناء أطلقها على شخص وكلائي المحترمون، فإني لست سوى شخص عاجز يعمل ما في وسعه لخدمة «القرآن الكريم».. وليست لدي أقوال أخرى».

نهض القضاة ودلفوا إلى غرفة المداولة ثم عادوا إلى المنصة بوقار فنهض الحشد الكبير في القاعة إجلالاً وتوقيراً.

استقروا في مقاعدهم وجلس الناس كالمأخوذین بعد أن أحدثوا غمغمات وضجة في أثناء فترة المداولة.

قال رئيس المحكمة وهو يحملق في وجوههم المغلفة بهلع الرجاء:

- قررت المحكمة براءة الشيخ «بديع الزمان سعيد النورسي» بإجماع الآراء من التهمة المنسوبة إليه.

انتفض الناس من قبورهم الصامتة.

غادر «الشيخ» قاعة المحكمة وسط طلابه الذين غمرتهم الفرحة وتوجهوا به إلى محل إقامته.

غادر «استانبول» متوجّهاً إلى «أمير داغ» بعد أن صدر الحكم ببراءته.

يشعر دائماً أن هناك عيوناً تراقبه من الأماكن الظلماء.

ولم يكن هناك تأثير كاف يجعلهم يحكمون عليه حكماً يخلصهم منه بالمرّة، فضمير المحكمة يقظ، لأنها تستوفي القضية حقها بعد أن تسمع كلام الشهود وتسمع مرافعة «الشيخ» البليغة.

فكانت ترى في أحيان كثيرة أن الاتهامات الموجهة إليه محض افتراءات، وتؤكد أنه لا ينبغي سياسة ولا يسعى وراء سلطة، فهو يقول دائماً.. «أعوذ بالله من الشيطان ومن السياسة»..

وكانت هيئة المحكمة تتعجب وتتساءل: أين الخطر الذي يمثله هذا الشيخ.

ولم تكن «رسائل النور» ذنباً اقترفه، لأنها أقيمت هيئة المحكمة بأنها - رسائل النور - لا تتعدى حدود الدين إلى السياسة.

لذا كانت تُرى بأنها الحصن الحصين للشباب والناس جميعاً من تيارات الإلحاد والشك التي بدأت تتسلل إلى القلوب.

كان يوماً مشمساً والوقت عصراً عندما خرج كدأبه إلى حدائق «أمير داغ».

نقوش ... على جدران المنفى

يتأمل زحام الخضرة الناعسة والأزهار المتلاثلة.
تداعب وجهه نسيمات الهوى الناعمة.
يمشي بتؤدة ووقار محني الظهر بطيئاً.
يجلس في البراح الأزرق بجانب شجرة كبيرة مورقة.
تتدافع بداخله فيوضات الصمت الذي يطرح أزاهير تعانق السر الأبدي
في وجه السماء الصامت.
لامست روحه كل الأطياف.
هل أينعت بذرة الكون فأنبتت كل هذا الجمال؟
هذا المحيط الهائل المليء بالأسرار.. من يراه؟
من أعطى الأمر لهذه الطبيعة أن تتفتح في رفق؟
ما هذه النسيمات المزهرة التي تعطر الأجواء؟
«ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانهك فقنا عذاب النار»..
نهض متثاقلاً بعد أن شعر بالليل يزحف ليدثر الطبيعة في غلالة داكنة.
تشبعت روحه العلييلة بالجمال..
توجه إلى منزله متخللاً الشارع الرئيسي الذي يقسم المدينة إلى نصفين.
بدأت أعمدة الإنارة تتيقظ وترسل ضوءها الهزيل في الفراغ.
وهو يمشي بطيئاً رافلاً في جيبته السوداء وعلى رأسه عمامة بيضاء.

لمحه أحد أفراد الشرطة.

فانقض عليه زاعقًا:

- أنت أيها الرجل..!

- ماذا؟

- قف عندك.

شعر الشيخ بأنه قد ارتكب جريمة شنعاء للتو دون أن يدري..

وجال بخاطره أن هذه الطريقة في اعتراضه لا تأتي إلا باعتراض رجل
قد أتى بهتانا وإثماً مبيناً.

فوقف قائلاً:

- ماذا تبغي؟

دنا منه الشرطي وتوهجت عيناه بالشرر، وازداد وجهه قبحاً.

نزع العمامة وألقى بها على الأرض قائلاً:

- هذا مخالف لقانون الزي..! ولا توجد استثناءات لأحد.

زحف الأئين إلى قلب «الشيخ» هاتفاً:

- هل هذا هو الإنسان؟

ويحكم يا أرباب السلطة والنفوذ...

ستكونون مجرد ذكرى بالية في أسفار التاريخ وستطار دكم لعنات الزمن
وأنتم في قبوركم.

كان الوقت ليلاً والقمر يرتعش وحيداً على صدر المدى.
لمحه صديقه وتلميذه النجيب «أحمد خسرو» فانتفض جسده عندما رأى
الشرطي يقود «الشيخ» إلى مخفر الشرطة.
هرول إلى زملائه لاهثاً.
فقد بدأ الشيب يزحف إلى جسمه الواهن صدره يعلو وينخفض.
قال:
- لقد قبضوا على الشيخ وأخذوه إلى المخفر.
انتفض تلاميذه واتجهوا إلى المخفر..
وعندما لمحه «الشيخ» ابتسم وقال ملاطفاً:
- لا تنزعجوا.. هذا أخونا لم يرد بنا أي ضرر..
زاغت عينا الشرطي وانتابه شعور بأنه إن لم يفرج عن الشيخ للتو سيُمزق
إرباً إرباً.
ووصل هذا الشعور إلى قائد المخفر ولكن تملك منه الصلف.

وقال موجهًا الكلام لطلابه:

- قد خالف شيخكم قانون الزي..

توهجت عينا «أحمد خسرو» وقال:

- وقد خالفتم أنتم منطق العقل والرحمة.. هل يجوز لكم أن تروعوا
أستاذنا إلى هذا الحد.. ألم تعلموا أنه يجب كل بلاد الأناضول.. بزيه هذا..
بل ويقابل كل المسؤولين في الدولة بهذا الزي..

شعر القائد بنبرة خشونة في كلام «خسرو» فتراجع عن قراره وقال مرغمًا:

- لا بأس.. «تستطيعون أن تأخذوا شيخكم وتنصرفوا»..

تأبطه «خسرو» وخرجا من المخفر، ودوامات الغضب تموج بداخل
الشيخ الذي ما يزال الأنين بداخله يهتف:

- هل حقًا هذا هو الإنسان؟

كانت المدينة قد انتشر فيها خبر القبض على «الشيخ».
فهرع الأهالي أمام مخفر الشرطة وتعالَت الصيحات المنددة بالسلطة
وبأفرادها.
وعندما رأوا «الشيخ» يخرج وسط تلاميذه علت البشاشة وجوههم
وانصرفوا إلى منازلهم.
كانت تراود الشيخ فكرة كتابة «المصحف التوافقي» منذ فترة، أوصى
«خسروا» بإتمام هذا العمل.
كان الليل قد انتصف عندما وصل الشيخ إلى منزله ودلف إلى غرفته وبعد
أن اقتعد مقعدًا قال موجِّهًا كلامه إلى «خسرو»:
- أحضر ورقة وقلمًا واكتب ما سأُملِّيه عليك.
أذعن «خسرو».
وبدأ يملئ عليه:

- العريضة الأولى إلى السيد «وزير العدل»، الثانية إلى السيد «وزير الداخلية».

وشرح لهما ما لاقاه وما يلاقيه من اضطهاد رجال السلطة له.

وقام بنشر مقالة بعنوان «أكبر برهان».

أرسل صورة من «العريضة» إلى «مصطفى صنگور» في «أنقرة» ليقوم بنشرها في جريدة «الجهاد الكبير».

وفي هذه الأثناء تعرض الصحفي «أحمد أمين يلمان» لمحاولة اغتيال، أتهم فيها الشاب «حسين أزمار».

وكانت هذه الحادثة ذريعة لمناهضة الشيخ وطلابه.

وبدأت الصحف ووسائل الإعلام المعادية للإسلام تشن حملة شنعاء على طلاب النور وشيخهم الذي قال يوماً «أعوذ بالله من الشيطان ومن السياسة».

فاخترعوا العناوين التي تثير السلطة الحاكمة، متهمين طلاب النور بالرجعية السوداء.

ثم بدءوا يكتبون في صدر صفحاتهم:

اقضوا على هذه الحركة!

أين الحكومة؟

هل ستغض الحكومة عينها عن هذه الرجعية؟

الرجعية تشهر سلاحها!..

نقوش ... على جدران المنفى

ومكثت هذه الحملة فترة طويلة حتى نجحت في تهويلاتها ودفعت الحكومة إلى اتخاذ إجراءات مشددة ضد الصحف والمجلات والأوساط الإسلامية. اعتقلت رؤساء تحرير هذه الصحف، واعتقلت بعض «طلاب النور» وعلى رأسهم «مصطفى صونغور»، ولكنه أثبت براءته ولكن بعد معاناة طويلة مع السلطة.

ما تزال رياح السموم تهب على «الشيخ» الذي لم يكد يحرك جسمه الواهن
حتى تصرخ عروقه الزرقاء النافرة وعظامه الواهنة.
تبيست مفاصله.

ازداد شحوب وجهه وثقلت جفونه وذهبت شعيراتها مع الزمن وباتت
نحلاء.

ضعف النظر وضافت الخطوة.

لكن العقل متقد يفكر والقلب ما يزال معافي يترنم واللسان لم يجف بعد
فما زال رطبا بآيات «الذكر الحكيم».

لم تطل أطيايف الحكمة عقولهم أو قلوبهم.
جددوا له أمر الاعتقال.

رفعوا قضية في مدينة «صامسون» بعد أن نُشرت مقالة «أكبر برهان».

وكان الأمر يشمل جلب «الشيخ» من مدينة «أمير داغ» إلى مدينة
«صامسون».

نقوش ... على جدران المنفى

لم يذعنوا إلى طلبه بأنه مريض ولا يتحمل وعناء السفر، ولم يلتفتوا إلى تقارير الأطباء التي تفيد تدهور صحته بل أصروا على وجوب حضوره مهما كانت الأسباب التي تمنعه.

امثل «الشيخ» أمام هذا العناد الذي بثته رياح السموم التي لا تزال تهب عليهم.

توجه إلى «صامسون»، ولكن الطريق طويل والعمر قصير وما كاد أن يصل إلى «استانبول» حتى خارت قواه، وبات طريح الفراش.

توجه رفيق دربه، «أحمد خسرو» إلى الهيئة الصحية واستصدر تقريراً يؤيد شدة مرضه.

وبعد مجاهدة اضطروا لقبول التقرير وخولوا محكمة استانبول لإجراء محاكمة بالنيابة عنها - «صامسون» - وعلى الرغم من كل هذا أصدرت محكمة «استانبول» قرارها بتبرئة الشيخ.

وكانت «استانبول» تتهياً في أثناء هذه الظروف كعروس.

أقيمت الزينات، وتفتحت الورود وعم الاحتفال شوارعها وساحاتها وذلك بمناسبة مرور خمسمائة عام على فتحها على يد «محمد الفاتح».

ارتدى الشباب الزي العثماني تجمع طلاب المدارس في الساحات وحتى الجنود ارتدوا الزي العثماني.

دُعي «الشيخ» إلى الاحتفال فقبل الدعوة مرحباً.

أحضروا له عربة إلى هناك.

الدرأویش یمشون جماعات لهم شعور طویلة یوارونها تحت أغطیة رءوس
من الجوخ على شكل أصیص الزهور الأسطواني المقلوب، ثیابهم بیضاء ذات
أزرار سوداء.

فرح الجميع بوجود الشیخ وسطهم وهم یتخللون الشوارع والأحیاء
حتى وصلوا إلى حی العمال حیث ورش صاهری المعادن والنقاشون والحفارون
الذین یصنعون ویصلحون الأسلحة الجمیلة المعروضة فی البیترستان.
وكذلك صناع الأدوات المنزلیة المصنوعة من الحدید أو النحاس.
وثمة أشكال أخرى كثیرة فی الأقسام العدیة للسوق الكبیر.
والناس یجلسون على المقاهی، یطلبون النرجیلة والشبوق، ویستمعون إلى
الروایات ویشاهدون القاراكوز..

كان صوت الراوي الجالس على المقهى يتسرب إلى الشارع ويطرق الأذان وهو ينظم الشعر ويحكي مواضع مبنية على الأساطير القديمة، يجدد مغامرات (عنترة العبسي وأبو زيد الهلالي ومجنون ليلى) مع الإضافات والتغيرات الكثيرة. توجه «الشيخ» مع تلميذه «ضياء آرون» إلى بطريك الروم «أنتولوراس» في منطقة «فتر»، ودار بينهما حوار حول أهل النجاة من النار والإيمان بالله ورسوله الكريم.

وبعد أن انتهت الزيارة دار بخلد «الشيخ» أن يقوم بعدة زيارات للمدن بعدما شعر أنها تهتف عليه.

أو هو شعور قد انتابه في أن يذهب لوداع أهلها الذين قضى معهم أياما كثيرة مضت من عمره، ودونت في حسابات الزمن.

أراد أن يستمر في تلبية نداء المدن فغادر «استانبول» إلى «أمير داغ» ومنها إلى «أسكي شهر» ثم توجه إلى «إسبارطة» حيث توجه مع مجموعة من تلاميذه إلى مدينة أحلامه وذاكراته «بارلا».

تهيات الشمس لأن تتوارى في ما وراء الشفق الأحمر عندما وصل إلى
مشارف «بارلا».

يخفق قلبه الواهن بحبها..

حبيبته التي نبتت في أرضها بذرة حياته.

ألقى ببصيص النور المتبقي في عينيه الذابلتين في أحضان الحقائق الشاسعة
المدرجة في طبقات إلى قمة الجبل الذي يطل على البحيرة.
وفي الخلفية ظلال مائلة للزرقة تلوح عند الغروب.

سقطت من بحر عينيه حبات الدموع الفضية.. ما لبث أن كفكفها.

وجهه الشاحب مطل من نافذة السيارة، بجواره بعض تلاميذه منهم
الناعس ومنهم المتيقظ..

حرك غروب الشمس الهم الدفين في واحة العمر والسنين. سر عائق
السر الأبدي.

تساءل:

هل هي علامات الرجوع إلى الأصل؟

لقد غابت الشمس وسقطت في بحر من الظلام اللجي!

هل هي النهاية؟

شعر الأهالي بقدومه.

فهرعوا إلى الشارع كبارًا وصغارًا.

طالما تردد اسم «الشيخ» بين الصغار والكبار في حنايا هذه البلدة.

استقبلوه بترحاب بالغ، تزاحموا حوله حتى وصل إلى بيته القديم الذي مكث فيه ثماني سنوات وكان - البيت - أول مدرسة نورية.

وقبل أن يدلف من الباب لمح دار تلميذه المخلص «مصطفى جاويش» على بعد خطوات، فتوجه نحوها.

وقف أمام الباب ممسكًا بالقفل الذي يزعم درفتيه.

فقال أحدهم مأزومًا:

- لقد مات منذ زمن.

تساقطت دموعه حبات ماسية بطيئة ساخنة وهو يتذكره، حين قام بصناعة غرفته الصغيرة بين أحضان الشجرة الصامدة التي لا تزال مورقة شامخة..

نقوش ... على جدران المنفى

وهو يرمقها بطرف خفي.. ثم توجه صوبها.. وطلب من الجموع التي تلتف حوله أن تتركه وحده، فأذعنوا له.

سمت روحه حباً وهو يحتضن شجرته ويجهش بالبكاء.

عانقها وشعر بأنها تطير منتشية فرحة بقدمه.

هتف الأنين بداخله وهو يرنو ببصره الثقيل إلى أعلى صامتا:

- سيطرت علينا آلامنا وكُشفت الأسرار بين أغصانك.

تيقظت المعاني بين حفيف أوراقك التي ترنمت معي تسابيحاً للواحد القهار خالق الليل والنهار.

كيف أنت يا منية القلب؟

احكي لي عما حدث لك طوال ثماني سنوات..

كم ترقرت حبات الندي على أوراقك وتألقت كالماس المنثور!

كم حنوت عليّ وخففت من ألمي ووحدتي.

كم كنت ملهمتي وأنا أفكر في آيات الحكمة التي تفتحت أزاهير ملأت الكون برسائل النور وأيقظت المعنى في الصدور.

صعد إلى غرفته ولفقات الود ونظرات ممزوجة بالعبرات تحتويه.
 جلس على أريكة من خشب الأكاجو، ينظر إلى المدفأة التي تعلوها ساعة
 حائط ذات أعمدة ولكنها متوقفة.
 تملكه شعور بأن الزمن قد توقف هنا في «بارلا» مدينة المخاض والميلاد.
 كانت الإضاءة خافتة تنبعث من لمبة صغيرة مدلاة من السقف الخشبي
 وتصبغ الجدران بلون أصفر باهت.
 تحرك بداخله الانفعالات المحبوسة وفتح مخزن الذكريات واجتر من
 الماضي آلاما دغدغت عمق إحساسه وارتوت من بئر التمني أنينا مكتومًا حتى
 تشبع جسده الهزيل.

وفي صباح اليوم التالي خرج متوجّهاً إلى ربوع «بارلا».
ودوامات أشواقه ترتعش.
ترنو إلى حبه القديم.
يراقب زهرات السوسن العطشان عشقاً.
ويبتسم لوجه الشمس وهي تضحك على صفحات الماء الرقاقة تمشط
جدائلها، وتغسل نورها ليزهو ثم ينطلق حرّاً مطمئناً.
جلس في براح المروج الغناء يحتضن السكون.
يراقب أوراق الأشجار وهي تساقط وتفرش الأرض.
تسلل السحر إلى حنايا روحه وهو يعانق دوامات الصمت في زحام
الخشبة الناعسة حتى آخر المدى.
جاءت إليه البشرى ترفرف بجناحين أبيضين وغمرته الفرحة هو وطلابه،
عندما أتى قرار بتبرئة «رسائل النور».

لم يجد الخبراء ما يخالف القانون أو يتعارض مع سياستهم.
وكان المعنى واضحاً جلياً فقد استطاعوا أن يطبعوا «رسائل النور» بكل
حرية وفي وضوح النهار.

لم يضيعوا وقتاً، اتفقوا مع عديد من المطابع في «استانبول» و«أنقرة»
و«صامسون» وأنطاليا وانطلقت تُطبع بالآلاف.

توجه إلى «إسبارطة» بمساعدة طلابه ليدلي بصوته في الانتخابات التي
جرت ثم عاد إلى بيته راضياً مطمئناً.

مكث يجاهد آلام المرض والوهن.

قسم طلبته - الذين يعدون أنفسهم أولاده - أنفسهم جماعات.

تولوا خدمته والسهر على راحته.

كان أغلب أوقاته ممدداً على السرير مدثراً في غطاء يوارى عظامه التي
برزت من تحت ملابسه.

منعه المرض من رؤية أحبائه المتشوقين لوداعه.

أشار بيده الهزيلة المعروقة إلى «زبير كوندور ألب» عندما سمع ضجة
الأهالي خارج المنزل.

وقال :

- قولوا لهم - للزوار - إن قراءة «رسائل النور» أفضل من الحديث معي
عشر مرات.

وعندما ينبض جسده بالحركة ويدب فيه قليل من النشاط، يقوم بمقابلتهم أو يطلب من طلابه أن يأخذوه إلى «بارلا» أو «أمير داغ».

ولم ينقطع عن تتبع ما يجري في العالم من حوله.

فطلابهم يقرءون له الجرائد ويتتبع أخبار محاكمات «طلاب النور»، فقد سُنت هجمة شرسة عليهم بعد انتشار رسائلهم التي صدت رياح الإلحاد، ثم اعتقل كثير من الطلاب من بعض المدن مثل أنقرة وإستانبول وأودعوا سجن أنقرة الكبير.

تقدم المحامي «بكر برق» للدفاع عنهم أمام المحكمة في أنقرة، وارتبط المحامي بهم وأصبح هو المدافع عنهم في جميع القضايا، وأمام جميع المحاكم، بل وذهب إلى «الشيخ» الذي أعطاه الوكالة عن نفسه أيضاً.

لا تزال عيون الحكومة ترصده.

ولكن قلت حدة تجديد أوامر الاعتقال ومن الجائز أن يكون السبب هو ضعفه.

ولكنهم لا يزالون يهابون تأثيره على أهل البلاد في كل الأناضول.

شعر «الشيخ» بدنو أجله وسمع نداء المدن تهتف عليه، وأن عليه واجب تجاه هؤلاء البشر ولا بد من أن يودعهم فبث هذا الإحساس فيه قوة أثرية عجيبة جعلته ينتقل من مدينة إلى أخرى في رحلات مكوكية أثارت شكوك السلطة التي اعتقدت بأنه يدبر شيئاً ما ضد السلطة.

سافر إلى «أنقرة» مع تلميذه «زبير» قضى فيها ليلة واحدة ثم توجه إلى «أمير داغ» ومنها إلى قونية لرؤية أخيه «عبد المجيد».

اصطفت آلاف الأهالي على جانبي الشارع الرئيسي في مدخل «قونية».

استقبله أخوه في عناق أبدي حار، دلفا إلى المنزل بصعوبة بالغة متخللين أجسام الناس المتلاحمة لرؤياه، ومن يحظ بمصافحته يشعر بأنه قد أصاب شيئاً من سحر التحدي الذي استمدّه من هذا الشيخ الذي وقر الإيمان في قلبه واستقر. وبات ناموساً مضيئاً أجلى الظلام الهابط بضراوة على البلاد..

هبط الليل.

أعد «عبد المجيد» الذي زحف المشيب بضراوة على جسمه فابيض شعر رأسه وارتسمت تجاعيد الزمن بطوله وعرضه على وجهه الأبيض المستدير غرفة لأخيه داخل منزله أمام رواق ذي أعمدة ويطل على حديقة صغيرة تحتوي على أشجار صغيرة ونباتات وزهور متناسقة.

افترش الشيخ الأرض المفروشة بالسجاد الأزميري الأحمر متكئاً على
مسند قطني وحوله طلابه وبعض من الأهالي الذين جلسوا متراسين بجوار
الحوائط على شكل حلقة.

وكان ضوء الغرفة ساطعاً.

غمرت الناس في البلدة فرحة عارمة.

امتلاً نهر الشارع بالأطفال يلعبون ويمرحون.

وأعد الشيخ «عبد المجيد» وليمة كبيرة على شرف أخيه الذي تحققت
فيه نبوءة أبيهم وبالفعل شعر بأنه هز عروش السلطة وانتشرت رسائله أزهير
في وجوه الملحددين والطواغيت.

انتصف الليل وبدأت الدار تخلو رويدًا رويدًا من الزوار.
وأعدت الغرف المجاورة لمبيت «طلاب النور».. وأصبحت غرفة
«الشيخ» خالية تمامًا.. عداهما..
مرت لحظات من السكون العميق عدا أنفاسهما المتلاحقة..
اطمأن كل منهما على الآخر بعدما شعرا كلاهما أن هذا - على الأرجح -
آخر لقاء بينهما..
كان الكلام كثيفًا عن الأهل في «نورس» والإخوة والأخوات والجيران
وأيام الطفولة والصبا.. والأخبار وما آل إليه الحال.. وها هي الدنيا.. دار فناء
أما الآخرة فهي دار البقاء والخلود الأبدي مع الأهل والأحباب..
ترقرقت عيناهما بالدمع، وطلب «عبد المجيد» من أخيه «الشيخ» أن يقضي
معهم في «قونية» وقتًا كافيًا حتى يتشبعوا من فيوضاته..

تلاحق ترحاله.. ثارت ريبة النظام ومخاوفه..

غادر «قونية» إلى «أنقرة».

التقى بطلابه وزواره وفي صباح اليوم التالي توجه إلى «استانبول»، قضى فيها ثلاثة أيام.

رجع بعدها إلى «أنقرة» ثم غادرها مرة أخرى إلى «قونية».

في صباح اليوم التالي توجه إلى «إسبارطة».

كان وزير الداخلية يدور حول نفسه والعجب أن تصدر هذه الرحلات من رجل في مثل هذه السن المتقدمة فقد شارف الشيخ على الثمانين..

كانت الاجتماعات الرسمية أيضا في أنقرة متلاحقة كسفرات الشيخ.

قال الوزير غاضبًا:

- ماذا يفعل هذا الرجل؟..

ونظر إلى مساعديه الجالسين على مقاعدهم الوثيرة في غرفة مكتبه الواسعة.

أردف:

- تُرى إلام يخطط..؟

وكان جالسا أمام مكتبه الفخم.. فنهض واقفاً.

قال:

- هل ينوي انقلاباً في الحكم..؟

رد عليه آخر:

- لا أظن يا سيدي.. فهو رجل قد طعن في السن..

رد آخر:

- أنا أيضاً أعتقد بأنه لا ينبغي سلطة أو سياسة... فقد قال مرة «أعوذ بالله من الشيطان والسياسة».

ثار الوزير غاضباً وقال:

- إذن يريد أن نحكم البلاد بالشرعية!!

نظر بعضهم إلى بعض وأخذوا يتغامزون وقال أحدهم برياء:

- يا سيدي هذا رجل دين.. شيء طبيعي أن يطالب بالشرعية، ولكنه لم ينل غرضه حتى الآن.

- حتى الآن..؟ أنت لا تدري شيئاً يا محترم.. ألا تعلم بأن «رسائل النور» الآن في كل منزل.. بل يُدرّسها بعض المدرسين في المدارس.

قال أحدهم بنبرة فيها صدق:

- ولم لا يا سيدي ألم نكن دولة الخلافة الإسلامية..؟

ثار الوزير:

- هذا عهد ولي وراح.. نحن الآن نسابق الزمن إلى العلوم الحديثة.

قال الرجل:

- وهل الدين ضد العلوم الحديثة؟

نظر إليه الوزير ولم يعقب.

وقال رجل آخر:

- لم يكن يومًا ضد التقدم العلمي، والدليل على هذا أن «القرآن الكريم»
مترع بآيات تحثنا على البحث العلمي والتدبر.

رد آخر متحمسًا:

- نعم وباعتراف الغرب.. جرت هناك أبحاث لسنوات عديدة وعندما
توصلوا إلى النتائج.. وجدوها آيات تتلى .

رد آخر:

- نعم وجعلتهم هذه المعجزات أن يعلنوا إسلامهم.

الوزير يجوب ببصره بينهم وقد تملكه الدهول.

وقال بنبرة ملؤها التهديد والوعيد:

- يا ويحكم.. ماذا تقولون..؟

نقوش ... على جدران المنفى

نظر بعضهم إلى بعض ثانياً فاغرين أفواههم مذهولين من هذا الحديث الذي دار بينهم دون سيطرة من أحد.

وقال أحدهم:

- يا سيدي لم يحدث شيء: نحن لنا عيون على «النورسي» في كل مكان ولم يستطع أن يخطو خطوة واحدة دون علمنا.

رد آخر:

- لا شيء.. من الجائز بأنه يودع أصدقاءه بعدما وصل إلى هذه السن المتقدمة وشعر بدنو أجله..

فقال الوزير:

- لا .. لا .. هذه حركة استقطاب رجعية ستؤثر على البلاد والعباد.

«على الشيخ» بديع الزمان سعيد النورسي «أن يستقر في «أمير داغ» ولا يغادرها إلى مدينة أخرى حفاظاً على أمن البلاد».

هكذا دوى صوت المذيع على محطات الأثير بهذا البيان الذي صدر عن وزارة الداخلية، وسمعه كل أهل البلاد في الأناضول. مما أثار حفيظة «طلاب النور».

قال «أحمد خسرو» غاضباً:

- كيف يكون هذا ومن حقه - كأبي مواطن آخر - أن يذهب إلى أي مكان يريد؟

رد عليه «زبير»:

- هذا تفنن سلطوي طاغ. ليذهب الأستاذ إلى أي مكان. فهو حر.

قال الشيخ:

- يا إخوان لا داعي أن ندخل مع الحكومة في نزاع لا طائل منه.

خرجت هذه الكلمات من فمه المتقلص ثقيلة.

رجع إلى «أمير داغ»، ممثلًا لأمر الحكومة، ولكنه أبلغهم بأن يسمحوا له بالإقامة شهرًا في «أمير داغ» وشهرًا في «إسبارطة».

سافر إلى «إسبارطة» مثقلًا بالآلام النفس والبدن، التقى بطلابه وأصدقائه، ثم سافر إلى «أفيون» قضى فيها يومًا واحدًا ثم عاد إلى «أمير داغ» ثانياً.

تدفق المرض على جسده الواهن كما يتدفق الماء من أفواه القرب.

البرودة شديدة والثلوج البلورية تتساقط حبات حبات ثم ما يلبث أن يهبط المطر زخات زخات وهو مسجي في فراشه مدثر بغطائه يرجف من الألم والبرد.

حوله تلاميذه حائرون، المدفأة مشتعلة في ركن من الغرفة ترسل بدفئها إلى الأجسام المتيبسة.

بينما توجه «زبير» ليأتي بالدكتور «تحسين بارجين» طبيب الشيخ المتابع لحالته الصحية المتدهورة.

جلس الدكتور على حرف السرير.. فتح حقيبتة السوداء وأخرج سماعة وضعها في أذنيه، ثم أخذ يدسها بين طيات ملابس «الشيخ» الذي هامت روحه وراحت في غيبوبة.

الأعين حوله تذرِف الدمع والقلوب ترجف كالطيور الذبيحة.

وضع الدكتور سماعته في الحقيبة، وفرد «زبير» الغطاء على جسد الإمام.
وسأل:

- ماذا به يا دكتور؟

تجمدت ملامح الطبيب الصغيرة وقال بنبرة متهدجة:

- أين الأشعة ونتيجة الفحص الذي أجراه المعمل على الشيخ؟

مد «زبير» يده على منضده صغيرة بجانبه وجذب مظروف بني اللون كبير
وأعطاه للدكتور فأمسك به وفتحه وأخرج منه صوراً للأشعة صدرية رفعها إلى
شريط الضوء الأصفر المتسرب من النافذة وأخذ يحملق فيه ثم وضعها جانباً.
وقال:

- هناك احتقان شديد في الرئة اليسرى.

وأخذ يعد له الحقنة ليزرقه، ثم أخذ يدون العلاج في دفتر صغير ويعطيهم
بعض التعليمات، مفادها العناية به، بداخلهم جميعاً يحوم هلع الفراق.

ما يزال «الشيخ» في غفوته يرى طيورًا خضرًا تحلق في مروج غناء.
 وشواطئ بيضاء تداعبها موجات زرقاء.
 يرى دوامات السحر على بساط الريح الشفيف.
 يرى أصداء تراتيل «رسائل النور» وهي تتعانق مع الباحثين عن خلاص
 الإنسان وسط غابات الشر وساحات الألم.
 يرى الطمأنينة تسكن قلوب الأطفال.
 رأى الأرض المكسوة بالخضرة تبتسم لوجه السماء.
 رأى الجمال والحب قطرات تملأ الأرض والمدى.
 رأى الإنسان يعيش في أمان في كل زمان وفي كل مكان.
 رأى ابتسامات الود على الشفاه.
 رأى قلوب الناس عصافير بيضا تصافح وجه السماء.

انفجرت أساريه الذابلة ورفرفت جفونه متثاقلة ثم جال ببصره الواهن
بين الوجوه الشاحبة.

قال:

- أين الطبيب؟

بُعِثت الحياة من جديد في قلوب تلاميذه الوجلة عندما سمعوا صوته.

قال أحدهم:

- أنهي الكشف وذهب..

- ماذا قال؟

- لا شيء.. احتقان بسيط في الرئة اليسرى.

زحف بجسمه إلى أعلى، أسند ظهره على حاجز السرير.

ساعده حتى اعتدل جالسًا وقال:

- أريد كوبًا من الماء.

وبعد أن شرب حمد الله والعيون كلها عليه تسيل منها الشفقة والحب.

حملق في وجوههم وبدأت تتدفق على لسانه الكلمات، واللمعات تخرج
بطيئة وكل من حوله ينصت باهتمام بالغ.

أنهى حديثه مع طلابه.

اطمأنت قلوبهم عندما لاحظوا أن صحته قد تحسنت طلب منهم أن يذهبوا إلى مهاجعهم ليستريحوا.

اتفقوا فيما بينهم على تقسيم الوقت لرعايته، وأكدوا على من هو الذي سيتولى نوبة متابعته وانصرف الباقون بعدما ساعدوه على فرد طوله على الفراش وقاموا بتدثيره.

كانوا يسهرون عليه كما لو أنهم أبناء له يتألمون لألمه.

يفرحون عندما يتهلل وجهه الشاحب.

ألح عليه سلطان النوم وجعله يسبح في مروج غناء مترعة بأشجار باسقات مزهرة ومزينة بطيور ملونة جميلة تشدو وترنم بتساويح روحانية تملأ رحابة حلمه الشفيف.

كانت النجوم تومض في الفراغات التي تتخلل قطعان السحاب الرمادي الذي يتحرك ببطء محملاً على بساط الريح.

و «أمير داغ» تسبح في غلالة حلم جميل وتذوب في أعماق السكون، وهم على مشارف شهر رمضان، في انتظار ظهور الهلال معلناً قدوم الزائر الميمون.

وفي منتصف الليل تقلب «الشيخ» على جنبه ثم رفرفت عيناه. شعر أن القوة قد دبّت في أوصاله فنهض من فراشه.

أحضر بنفسه إناء به ماء، توضأ، ارتدى ملابسه. ثم استدعى طلابه الناعسين معه وفي الغرف المجاورة.

كان الفجر قد أتى بجناحين أبيضين.

وطلابه يرنون إليه مذهولين من «أستاذهم» الواقف أمامهم متحرراً من أمراضه وهمومه، على وجهه بشاشة وفيض وسعهم جميعاً.

وقفوا جميعاً وهو يودعهم قبل أن يتوجه إلى مدينة «إسبارطة» وعيناه حبل بالدموع.

أجهش بعضهم بالبكاء فربت على كتفه وحنا عليهم جميعاً.

أهَّلَ شهر رمضان بفيوضاته الروحانية وعُمرت قلوب الناس بالصفاء والتبتلات.

تزينت مدينة «إسبارطة» بأحبال المصابيح المتراسة بالأضواء الزاهية تحدد ملامح القباب والمآذن.

تحسنت حالة «الشيخ» الصحية وهو جالس يتناول إفطاره وسط طلابه. يتوجهون إلى الجامع يصلي بهم إمامًا في صلاة العشاء، ويقوم تلميذه «طاهري موطلو» إمامًا في صلاة التراويح.

الشوارع تتلأأ بالإضاءة والأطفال يلعبون.

الخانات ومحلات التوابل والعطور مزدحمة نهارًا بالصائمين.

والمقاهي مترعة ليلاً بالجالسين يشربون الشيشة ويضحكون.

«والقاراگوز» يحكي لهم الأساطير وحوله الكبار والصغار عيونهم مفتوحة فاغرين أفواههم.

«القبر المجهول»

١٧٤

عيون السلطة تراقبه خلصة. غير أنه كان يستشعر ديبب أرجلهم ولهاث أنفاسهم.

وما إن انتصف شهر رمضان حتى داهمه ألم المرض ثانياً وتدهورت صحته. بدأ طلابه يفعلون معه ما لم يفعله ابن مع أبيه فأخذوا على عاتقهم -كدأبهم- التناوب على رعايته وهو ممدد في سريره هزياً، خصوصاً أنه قد أوحى لهم بأن الأجل قد حان موعده وأن كل شيء لا بد وأن يعود إلى أصله في النهاية.

كان الليل قد انتصف، وهو مسجى في فراشه وحوله «بيرام وزبير وحسني وطاهري»، يمسك أحدهم براحة يده والآخر يدلك رجليه.

نظر الأستاذ إليهم نظرة ثقيلة وقال:

- سنذهب!

رد عليه حسني مبهوئاً:

- سندهب إلى أين يا مولانا؟

حذق فيهم ببصيص النور المتبقي في عينيه الذابلتين وأردف بصوت متهدج:

- سندهب!

قال بيرام ثانيًا حائرًا:

- إلى أين يا أستاذي؟

- إلى أورفة.

حدث زبير نفسه:

- آه.. إن الأستاذ قد وقع تحت وطأة الحمى!

لفهم الصمت جميعًا وهم ينظرون إلى الأستاذ مذهولين ثم يحدقون في وجوه بعضهم بعضًا.

مرت اللحظات بطيئة باردة، وحرارة «الأستاذ» لازالت مرتفعة رغم برودة الجو والثلوج المتساقطة بكثافة على أعناق الأشجار وفي أنهار الطرق وعلى أسطح المنازل.

قال ثانيًا:

- سندهب باكر إلى أورفة!

ثم صمت برهة وأردف:

- «أعدوا أنفسكم».

نقوش ... على جدران المنفى

شعر «حسني» بالخوف وهو ينصت إلى كلامه ويحدق في وجهه مذهولاً،
وأدرك بأنه لو أذعن له سيهلك لا محالة.

فقال مراوغاً:

- «إطارات السيارة لا تصلح للسفر».

- «سنذهب إلى «أورفة». مهما كلف الأمر، استأجروا سيارة ولو بمائتي
ليرة».. «أبيع جبتي إذا اقتضى الأمر».

ولا يزال حسني ورفاقه مذهولين:

- ولماذا «أورفة».. والآن؟ وهو في هذه الحالة؟ هل جاءه هاتف يأمره
بالذهاب إلى «أورفة»؟ أم هو نداء المدن الذي يتلقاه من وقت لآخر، أم في
«أورفة» ستكون النهاية؟

هيئوا السيارة وجهازوها للسفر، بدلوا إطاراتها، قاموا بفرش البطانية في المقعد الخلفي.

هبط «الشيخ» من سريره، أجلسوه في المقعد على البطانية، وجلس بيرام وزبير في المقعد الأمامي بجانب السائق «حسني».

وجاءت السيدة «فطنة» - صاحبة المنزل - فودعها الشيخ قائلاً:

- أختي أستودعك الله نرجو دعاءكم، فأنا مريض جداً.

فاضت عيون «فطنة» بالدموع الممزوجة بالكحل الأسود على خديها المشربين بالحمرة وأدارت وجهها ناحية طاهري.

همست:

- إنني والله خائفة من سفر الأستاذ في هذه المرة وأشعر بأنه ذاهب إلى مستقره.

أشار زبير بيده إلى «طاهري». قال:

نقوش ... على جدران المنفى

- ادلف وأغلق الباب ولا تفتحه لطارق.

كانت السيارة صفراء وبرغم أنها كانت ذات طراز عتيق إلا أنها متينة، دارت عجلاتها تغوص في برك الماء المتجمد في الشارع.

كان الوقت ضحى عندما اختفت من شوارع «إسبارطة» واستلمت طريقها إلى أورفة.

بينما جاء أفراد من الشرطة يحومون حول المنزل فوجدوه مغلقاً، نظر أحدهم من ثقب الباب الخشبي الكبير إلى العربة القابعة في الجراج فلم يجدها.. فصاح على زملائه ليخبرهم باختفاء «النورسي» عن المدينة وهُرع كالمسوس إلى باب المنزل يدق عليه - بكلتا يديه الغليظتين - دقا مدوياً.

كانت السيدة «فطنة» تقوم بإعداد بعض حاجيات المنزل. بدت كالمأخوذة وهي تفتح لهم الباب. وعندما رأتهم أدركت معنى وجودهم.

قالت بشجاعة:

- ماذا تريدون؟

- أين الشيخ؟

- لا علم لي.

- ألا تعلمين متى ذهب وإلى أين؟

- أنا لست حارسة. كيف أعلم وأنتم لا تعلمون وعيونكم لا تتركه لحظة واحدة.

كانت الأمطار تهطل بغزارة على رؤوسهم وقد كبلتهم الصدمة.

قال أحدهم:

- يا ويحنا. ماذا سنفعل؟

رد عليه آخر:

- نذهب إلى المخفر ونبليغ القائد باختفائه.

- وعندما يسألنا أين ذهب ماذا سنقول له؟

- سنقول كانت الأمطار تهطل واختفى فجأة ولا نعلم إلى أين ذهب!

أوصدت السيدة «فطنة» الباب في وجوههم وتركتهم مكبلين بخيبة الأمل والحيرة.

عادوا إلى المخفر، واستقبلهم القائد متجهماً سألهم:

- أين النورسي؟

- قد اختفى.

بدت المفاجأة على ملامحه الغليظة وانتفض على مقعده زاعقاً:

- إلى أين؟

- لا نعلم.

- ألا يوجد أحد بالمنزل؟

- لا يوجد سوى «طاهري موطلو».

نقوش ... على جدران المنفى

- إذن فلتأتوني به فوراً.. هيا!

توجه اثنان منهم إلى المنزل، وعادوا إلى المخفر ومعهم «طاهري» وعندما رمقه القائد بادره سائلاً:

- أين ذهب النورسي؟

بدا محتاراً وقال:

- لا أدري يا سيدي! ربما ذهب إلى مدينة «أكريدر».

- إن لم تصارحني ستكون العقابة عليك وخيمة.

صمت «طاهري» محدثاً نفسه:

- تبّاً لكم أيها السفهاء «الشيخ» مريض ورغم هذا ينتابكم كل هذا الهلع لن أبوح لكم بسرّه وليكن ما يكون.

تفلت الشرر من عيني القائد وقال متوعداً:

- إذن لنذهب إلى سيادة مدير الأمن وهناك ستضطر لأن تعترف.

دوى الغضب في صدر «طاهري» وزعق قلبه:

- سحقاً لكم جميعاً.

أخذوه إلى مديرية الأمن، وجدّهم في حالة الطوارئ القصوى، أدخلوه من غرفة إلى أخرى، يطرحون نفس الأسئلة:

- أين ذهب؟ ولماذا؟ ماذا يخطط؟ .. تكلم!

وكانت كل أجوبته غير مريحة لهم.

المطر لا يزال ينهمر بغزارة والسيارة تطوي بهم الطريق إلى أورفة، والشيخ
مدثر بالبطانية في المقعد الخلفي و «حسني» يجلس على المقود وبجواره رفيقاه
«بيرام وزير» وعند مشارف «أكريدر». قال بيرام موجهًا كلامه لحسني:

- أوقف السيارة.

حملق حسني في وجهه مستشعرًا نبرات صوته.

فأردف بيرام:

- أوقف السيارة.

توقفت العربة ثم هبط «بيرام» وجلب كومة من الطين ولطح بها
اللوحات المعدنية فطمس أرقامها، وغسل يديه من حفرة قريبة منه تراكت
فيها مياه المطر الغزيرة.

ثم قال:

- تذكرت حاكم «قونيا» حينما صرح في الجرائد ذات مرة وقال: سأجتث
جذور «طلاب النور»، وأقتلعها من الأعماق.

وانطلقوا بالسيارة يتبتلون «بآية الكرسي» ولا يزال المطر ينهمر مما جعل
الجميع يهرعون إلى منازلهم محتمين بها.

خلت الشوارع تمامًا حتى من أفراد الشرطة.

تجاوزت العربة «أكريدر» وخرجت منها بأمان.

كان الخبر قد طار إلى وزير الداخلية فاتتابه الهلع وقذف بكل الأغراض المرصوفة على مكتبه في وجوه مساعديه.

صاح:

- أين ذهب هذا الرجل؟ هل سيظل يهزمني هكذا؟ هزمني في المحاكم وفي المنفى وهزمني وهو مريض.. أين ذهب..؟

وأشار بأصبعه إلى مساعديه زاعقاً:

- أريد فوراً أن أعلم إلى أي البلاد ذهب.. هيا أروني ماذا ستفعلون!

وعلى الفور صدرت الأوامر المشددة إلى جميع مديريات الأمن بكل أرض الأناضول بالبحث عن «بديع الزمان سعيد النورسي» الذي اختفى في ظروف غامضة.

ملأت الأخبار صفحات الجرائد وطارت عبر الأثير في الإذاعات المختلفة. أعدت الأكملة على منعطفات الطرق.

وظفق أفراد الشرطة يركضون ركض البعير في الفلاة في جميع ردهات مديريات الأمن.

نقبوا عنه في كل الأمكنة التي نفي إليها، داهموا كل المنازل التي تردد عليها من قبل، أشاعوا الفوضى في البلاد، مكث البحث عنه جارياً.

تطارت الإشارات عبر اللاسلكي في غرف العمليات التي باتت في حالة طوارئ ملتهبة.

هدأت حدة هطول المطر عند وصول السيارة مدينة «قرة أغاج».
 وكان «الشيخ» قد شعر بأنه قد تعافى فطلب من طلابه الوقوف عند النبع
 فاتتحي «حسني» بالسيارة جانبا وأخفاها بين الأشجار على جانب الطريق.
 هبط الشيخ على مهل، اغتسل وصلى العصر.
 بينما سيارات الشرطة كانت تعبر الطريق من أمامهم تعوي دون أن تراهم.
 وما إن انتهوا حتى ركبوا العربة وواصلوا سيرهم.
 جلس «الشيخ» في مكانه على الكنية الخلفية. يتلو أوراده وأذكاره.
 أشعل «حسني» المحرك وارتفع هديره.
 أطلق الشيخ بصيص النور المتبقي في عينيه الذابلتين من تحت عويناته
 فرمق طائرة سابحة في الأفق، ينعكس على جسمها الفضي ضوء الشمس الهارب
 إلى المجهول.
 قال:

نقوش ... على جدران المنفى



- أترون هذه الطائفة؟

ردوا عليه في نفس واحد:

- نعم يا شيخنا.. نراها.

- سأركبها يوماً دونما أجر!

سرت قشعريرة الخوف في أجسامهم وحملقوا في وجوه بعضهم بعضاً مذهولين. فقال:

- أنا في كامل وعيي.. ألا تصدقون؟

- نصدق يا شيخنا.. نصدق.

- إذن هيا بنا.

تحرك جسد السيارة ثقيلًا ثم انطلقت كالسهم في المدى.

تصبح في مدينة وتسمي في أخرى. ينطلق ضوءها إلى الأمام فيخترق الضباب، فيفرش الأفق ويختلط مع حبات المطر الثقيل الذي جعل الوحل إلى الأعناق، فلطخ إطاراتها وأجانبها، وأرغم الوحل كل العربات على الوقوف على جانبي الطريق تحت أشجار السرو والشرين إما عاطلة وإما وحلة.

كان القدر قد يسر لهم كل أمورهم، عندما يجوعون يتوقفون بالعربة فيجدون القدر قد سخر لهم من يعينهم على قضاء حوائجهم يأكلون ويشربون ويصلون ثم يواصلون سيرهم إلى الأرض التي قد تلقت أمر تكليف باحتوائهم وتضميد جراحهم.

الشيخ في مقعده الخلفي مدثرًا في عباة متكئًا بظهره على المسند يرقب الأفق من نافذة العربة بنظرته العميقة المتأمل.

تتجلى عظمة الخالق العظيم في كل ما تقع عليه عيناه.

يعانق السر الأبدي الكامن وراء المعاني المطلقة في خفايا هذه المخلوقات.

لم يهب أهوال الأهواء أو الظلمات التي يواجهها ولم تثبطه تلك الاهتزازات الشديدة على الطريق.

يرى الغمام الأسود الثقيل وهو يفرغ أنهار الماء الساكنة في رحمه. فيهبط بردًا وسلامًا على قلبه وقلوب طلبته الذين شاطروه كل شيء قد مر في حياته المترعة بالآمال والآلام..

تدفقت عليه ذكرياته، طافت أفق الزمان الصامت.

تجلت صرخاته المكبوتة، استحالت صورًا داخل أطر مهشمة.

صرخ الأنين بداخله هاتفاً بـ «عبد الرحمن» ابن أخيه، ولده الذي كان
يعده خليفة له.. وسجل خطوه في أسفار التاريخ منذ أمد بعيد.
ذرفت عيناه الذابله دمعات ماسية ساخنة.
كابد ولع الاشتياق وآلام التمني.
تألم جسده بفعل الاهتزازات، اضطجع على شقه الأيمن متوسداً طرف
البطانية المطوي، تمدد ككومة عظم.
انبرى «بيرام» برأسه للخلف، دثره بالعباءة وأحكم أطرافها حول جسده،
تتحرك شفاته متممة بأذكار وأمداد.
وصلوا «قونية»، رأوا في الأفق حدائق «مرام» تحدها الجبال الزرقاء
والممرات الطويلة التي تحفها أشجار الشربين والسرو.
كان الشيخ قد أنهى أوراده وأذكاره وشعر بلهيب الألم يزحف إلى بدنه
الواهن. وما هي إلا لحظات حتى ارتفعت حرارته.

طلب منهم شراء بعض الأطعمة، أعطاهم بعض النقود فاشتروا بعضًا من الجبن والزيتون، وقبل وصولهم إلى «اركلي»، أراد أن يكسر حدة الصمت المطبق ويبث في طلابه بعض صلابته.

فقال:

- «أبنائي لا تخافوا أبدا، فقد قصمت «رسائل النور» ظهور الملحدِين والشيوعيين فرسائل النور غالبية دائمة بإذن الله».

كان صوته منخفضًا متهدجًا.

أردف:

- «هؤلاء لم يفهموني، هؤلاء لم يفهموني، هؤلاء لم يفهموني، أرادوا أن يلوثوني بالسياسة».

دوى أذان المغرب في الأفق، فأوقفوا العربة. قاموا بإعداد الفطور في «أولو قشله» لم يستطع «الشيخ» تناول الطعام، أدوا صلاة التراويح وانطلقوا.

كان الليل قد هبط بضراوة والمطر لا يزال ينهمر بشدة والعواصف
القاصفة تتمايل بأعناق الشجر والشرطة تجوب البلاد بحثاً عنه..

لا يزال الوزير مكبلاً بذهوله في مكتبه حائراً ينتظر أي رد أو إشارة تفيد
شيئاً عن مكان «الشيخ» المختفي..

يحدث نفسه بصوت مسموع:

- لقد وضعته تحت المراقبة طيلة حياته من منفى إلى آخر وفي كل البلاد
التي ذهب إليها. والآن يختفي عني هكذا بكل سهولة بعد أن وصل إلى هذا
العمر.. أين اختفى؟

وصلوا «جبل النور».
 ارتفع أذان الفجر مدويًا من القرى المحيطة.
 أدوا الصلاة بينما أداها «الشيخ» داخل العربة.
 وبعد أن انتهوا من صلاتهم، مددوه ودثروه في المقعد الخلفي وانطلقوا
 بالسيارة.

ذهب مع نشوة الخيال الصامت.
 فسمع أصوات الأطفال الحادة تعانق دوامات الهواء.
 الكبار يضحكون.
 النسوة يتغامزن.
 والعاشقون حائرون، فقد خُنق قمرهم.
 سأل أمه واهمًا:



- هل حقا ابتلع القمر الثعبان؟
- نعم يا سعيد.
- ولكن القمر ظله واضح!
- يا سعيد والثعبان من زجاج..
- لاح له وجه أخيه «عبد الله» فسأله:
- القمر مخنوق يا شيخ عبد الله - هل ابتلعه ثعبان؟
- ضحك عبد الله وغلفت وجهه براءة الشباب الغض وقال:
- لا تشغل بالك يا شيخ «سعيد».. هيا نراجع معًا بعض الدروس.
- رأى أباه الشيخ «ميرزا» يجلس على الأريكة بجوار المدفأة هائمًا في تسييحاته وأذكاره.
- وأخيه «خانم» و«درية» تلعبان وتمرحان في صحن الدار.
- ترامى إلى مسامعه صوت يقول:
- لقد توارى القمر خلف الغمام بعيدًا عن عيون العاشقين.



وبعد أن انتهوا من صلاتهم ، مددوه ودثروه في المقعد الخلفي وانطلقوا بالسيارة.

يثابر تلميذه «حسني» في قيادة العربة، بجواره زميلاه ناعسان، وأستاذهم في الخلف، يعزف على أوتار ذكرياته وحلمه.

كان الوقت ضحى عندما وصلوا إلى مدينة «أورفة» وقد اشتد عليه المرض فقد أنهكه السفر الطويل.

توجهوا إلى فندق «إيبك بالاس» وقبعت السيارة بجوار الطوار وهبط منها بيرام.

دلف إلى الفندق وقام بحجز غرفة للشيخ ثم عاد، ساعده وهو يرتقي السلم الرخامية حتى وصل إلى الغرفة في الطابق الثالث.

وفي لمح البصر انتشر خبر وصول «الشيخ» إلى «أورفة» فتوافد عليه الناس بالآلاف.

طار الخبر سريعاً إلى «الوزير» فأصدر أوامره بعمل تحريات عن سر اختفاء «الشيخ»..

انطلقت قوات الأمن بزيها الأسود مدججين بالسلاح بتطويق الفندق وعمل حزام أمني على جهتي الشارع الكبير الذي يتوسطه الفندق. كان «الشيخ» مسجى في فراشه داخل غرفته بالفندق.

دخل عليه رئيس مخفر الشرطة بـ «أورفة» وتموج بداخله دوامات الغضب. قال موجهاً كلامه «للشيخ»:

- أمر السيد «نامق كدك» وزير الداخلية بعودتكم فوراً إلى إسبارطة.. أرجوكم تهيئوا لمغادرة الفندق حالاً!
هتف الأئين صارخاً:

- هل هذا هو الإنسان؟

ونظر إلى رئيس الشرطة بعيون ذابلة. قال:

- «أنا لم أحضر إلى هنا لكي أغادر... من المحتمل أن أموت.. ألا ترون حالي.. عليكم بالدفاع عني أمام مسئولكم».

شعر رئيس الشرطة بالأسى والعجز لأنه مكبل بأوامر يجب تنفيذها. ثم خرج من الغرفة آسفاً، لكنه أصدر أمراً بأخذ «زبير» و «حسني» إلى مديرية الأمن.

أدخلوهم غرفة فسيحة تتوسطها منضدة كبيرة.

انهارت عليهم الأسئلة:

- لماذا جئتم إلى هنا؟ ممن أخذتم الإذن؟ إلام تخططون؟ أتريدون انقلاباً في الحكم؟

أجاب «زبير»:

- نحن تابعون للشيخ.. يأمرنا فنفذ.

- يأمركم بماذا؟

- حسبما يرى.

- يرى ماذا؟

- يقول لنا اذهبوا هنا نذهب.. اذهبوا هناك فنذهب.. ولا نعصي له أمراً.

- يجب أن تقنعوه بمغادرة أورفة حالاً.. هناك أوامر مشددة بذلك..

- الأستاذ مريض.. ألم تروه؟

- وماذا نفعل؟

- أن تتركوه إلى حال سبيله.. إنه لم يسبب لكم أية مشكلة.

- سنوفر لكم سيارة إسعاف لنقله.

- لن يتحمل السفر ثانيًا، ولن نتدخل في شئونه الخاصة.

- ولكن يجب أن يغادر المدينة.

- أخبروه بأنفسكم.. فنحن نطيع أوامره.

استشاط غضبًا وقال صائحًا:

- وأنا أطيع أوامر رؤسائي.

تأكد مدير الأمن بأنه ما من سبيل معهم لإقناع شيخهم فخلى سبيلهم.

كانت الآلاف من أهالي «أورفة» يقفون أمام الفندق..

يصيحون:

- اتركوا الأستاذ إلى حال سبيله إنه مريض.

ونشبت مصادمات حادة بين أفراد الشرطة وبين الأهالي.

أحضر بعضهم الطبيب وجعله يتسلل إلى الفندق من باب خلفي في زقاق ضيق حتى وصل الردهة وقبل أن يصل إلى غرفة الأستاذ لمح أحد أفراد الشرطة فأبلغ رئيسه وبدوره أبلغ مدير الأمن الذي منعه من إجراء الكشف الطبي حتى لا يكتب تقريرًا طبيًا يفيد بقاء الشيخ في أورفة.

لازالت الصيحات تتعالى بين الأهالي والموقف متوتر في المستشفى
وفي مديرية الأمن.

الوزير يتابع عبر الأثير ما يحدث.

انطلق الصحفيون وانطلقت الإذاعات تبث الأخبار وتشعلها.

رئيس الوزراء ورئيس الدولة يتابعان الموقف.

والجماهير في كل أنحاء بلاد الأناضول يتابعون المدياع.

تفاقت حدة المظاهرات في كل الأمصار ورفعت اللافتات تستنكر
ما يحدث لهذا العالم الجليل.

تساءل أحدهم:

- ألم يقض حياته في خدمة «الذكر الحكيم» وحمل السلاح ضد الغزاة
الروس؟

توجهوا يهدرون إلى مقر الحزب الديمقراطي بـ «أورفة» يستصرخون السيد «محمد خطيب أوغلو» رئيس فرع الحزب.

فتوجه من فوره إلى مديرية الأمن. ودلف مسرعاً إلى مدير الأمن.
قائلاً:

- ماذا تفعلون بهذا الرجل العليل؟

- أنت من تقول هذا؟

- نعم، وإذا أخرجتموه فأنا من سيقف أمامكم. إنه ضيفنا.. هل جنتم؟

- إنها أوامر ننفذها.

- لن يستطيع أحد مس شعرة منه. ألا تعرف من أكون؟

وتركه وخرج متوجهاً مع «بيرام» و«وزبير» إلى المستشفى اصطحبوا معهم الطبيب وتوجهوا به إلى الفندق.

كان الشارع مسدوداً بكتل ودوامات من الأهالي المتظاهرين المتذمرين.

ارتقوا السلم بصعوبة بالغة، دلفوا إلى غرفة الأستاذ.

قام الطبيب بفحصه ثم التفت إلى طلابه قائلاً:

- إن حرارته مرتفعة جداً..؟ كيف يُفعل به كل هذا العبث؟

وأصدر تقريراً موثقاً من لجنة طبية مفاده أن حالته لا تسمح بنقله إلى أي مكان آخر.



وأصدر تقريراً موثقاً من لجنة طبية مفاده أن حالته لا تسمح بنقله إلى أي مكان آخر .

كان الليل قد هبط على أورفة وما تزال الشوارع مترعة بالناس، والشيخ مسجي في سريره تموج روحه الكليلة في فراغ الجسد الهامد.

طلابه حائرون يروحون ويحيئون حتى أضناهم الإرهاق.

قال «بيرام» وعلى وجهه علامات الإرهاق، موجهها كلامه لـ «زبير»:

- لقد بلغ مني التعب مبلغاً.

- اذهب لتستريح.

توجه «بيرام» من فوره إلى الغرفة المقابلة لغرفة أستاذهم، ألقي بجسمه على أريكة خشبية وغط في سبات عميق ولم تمر سوى ساعتين حتى جاء إليه زبير ليوقظه قائلاً:

- «أدركني يا أخي لم أستطع أن أتحمل».

انتصف الليل ويبرام يجلس بجوار أستاذه تطوف خواطره وظنونه كل الأمكنة.

حملق في وجهه. فوجد شفثيه قد جفتا. أحضر منديلاً غارقاً بالماء ووضع
على جبهته ثم بلل شفثيه الياستين، بعد ذلك نهض وأشعل المدفأة القابعة في
ركن الغرفة عندما سمع صرير الريح الذي يعصف بأشجار السرو الضخمة
حول الفندق. حاول أن يجذب الغطاء على صدر الشيخ فحرك يده المعروقة
رافضاً. حاول إرخاء ساعديه فضمه إلى صدره في عناق أبدي حار. ووضع
كلتا يديه على صدره، أغمض عينيه، فجلس يرام يفكر في عودة رفاقه جميعاً
وسيكون الأستاذ قد أفاق ويتناولون طعام السحور جميعاً.

وفي الصباح أتى مدير الأمن إلى الفندق متعثراً في كتل الأجسام الملتهبة
المتلاصقة أمام باب الفندق وفي الأروقة.

دلف إلى غرفة «الشيخ» مندفعاً:

- يجب أن تعود من حيث أتيت!

سمع «الشيخ» دوي هذه الكلمات كرجع الصدى في الفلاة:

- «إنني أعيش الدقائق الأخيرة من عمري.. فأنا راحل وقد أتوفي هنا..
من واجبكم أن تقوموا بتهيئة الماء الساخن لغسلي ميتاً.. بلغ رؤساءك بذلك».

حدث مدير الأمن نفسه محزوناً:

- ماذا سيفعل هذا الرجل وهو كومة من عظم هكذا.. يا ويحنا..!

لم كل هذه الضجة.. لماذا لا يأتي الوزير ويراه بنفسه.. يجلس في مكتبه
بأنقرة ويتخيل أن النورسي هذا عملاق جبار تطول يداه القاصي والداني.
ثم نكس رأسه واستأذن من الشيخ متخللاً الزحام الشديد.

وترامت إلى مسامعه الكلمات اللاذعة المتطائرة من الأفواه اللاهثة.

قال أحدهم موجهًا إليه الكلام:

- ألا يوجد بينكم رجل رشيد؟

وصوت آخر يقول:

- الويل لكم.. فلن يسامحكم الله.

وصوت يقول:

- يجب أن نرسل لهم في أنقرة برقيات استنكار وشجب لما يحدث هنا.

رد عليه آخر:

- هل تظن بأنهم لا يعلمون.

ركب مدير الأمن عربته وانفلت من بينهم بصعوبة بالغة..

بينما أشار الشيخ لأحد تلاميذه فدنا منه.

وسأله:

- ماذا يحدث في الخارج؟

- الناس كثيرون يا شيخنا يريدون أن يسلموا عليكم.

شعر أن السر قد دنا منه وسرت في أوصاله قشعريرة الحياة، طلب منهم أن يجلسوه، فاتكأ بظهره على حاجز السرير وقال:

- أدخلوهم.

نقوش ... على جدران المنفى

- إنهم كثيرون يا شيخنا.

- أدخلوهم.

فخرج «بیرام» بينما بقية تلاميذه يلتفون حوله مهمومين.

فتح بیرام الباب ثم وقف ينظم الناس في أثناء دخولهم، ووقف ينظر إليه وهو يمد لهم يده المعروقة وهم يقبلونها واحد تلو الآخر..
شكلوا صفًا طويلاً أولاً يودعه وآخره لا أحد يعلمه.

أقبل المساء صامتًا.
 وخيم الحزن على وجوه الناس بعدما ودعوه ورأوا حالته.
 وتمدد الشيخ بجسمه ثانية بين طيات الدثر.
 بدأت ترحف عليه الحرارة كوحش من وحوش الأساطير...
 احتقن وجهه.. صنعوا له كمادات ثلجية حتى بدأ يتحسن وراح في سبات عميق.
 فاطمأن تلاميذه، وتناولوا طعام السحور، ثم دخل الفجر محملاً بشذى ترنيمات تصدح في صدورهم جميعًا.
 ارتفع الأذان وملأ رحابة الأفق.
 توجه الناس إلى مساجد أورفة محملين بهم ثقل.
 لا أحد يعلم أن «الشيخ» قد ذهب بحثًا عن السر الكامن وراء المعاني التي طالما شغلته، وفارق الحياة البائسة التي تفاقمت فيها خطايا البشر حتى طاولت عنان السماء وبرزوا بها تبجحًا وإلحادًا.
 لم يسأل عن موعد دخول الفجر كدأبه.

نقوش ... على جدران المنفى

تملك منهم القلق.

دلف إليه «عمر أفندي» الواعظ. نظر في وجهه.

وضع يده برفق على جبهته.

قال:

- «إنا لله وإنا إليه راجعون».

- دلف مدير الفندق مسرعاً وعاد باكياً.

سأله مدير الأمن:

- هل مات «الشيخ»؟

هرع تلاميذه.. تلاطمت في رءوسهم أمواج الحزن العميق.

أطبق الكون الفسيح على صدورهم.

مكثوا يللمون جراحهم الغائرة.

لاحت على وجوههم وطأة الزمن.

تمزق الحلم في أرض الأساطير.

سدت الغصة حلوقهم.

لامسوا كل الأطياف الرمادية.

ارتجفت قلوبهم الذبيحة.

تبعثرت أشلاءهم على منعطفات الطرق.

لاح في الأفق غيم ثقیل ينذر بهطول المطر الأسود.

احتضنوا السكون والألم.

انتظر الطيب بجوار جثمان الشيخ لحظات حائرًا.
الوجه ما يزال أحمر والحرارة تنبعث من الجسد، ثم كتب شهادة وفاته.
وسجل حاكم التركات موجوداته قائلاً:
أين ذووه؟

فتقدم «عبد المجيد» محزوناً والدموع تلمع في عينيه قائلاً:
- أنا أخوه..

قال حاكم التركات:

- هاك يا سيدي.. ساعة/ جبة/ عمامة/ عشرون ليرة..

ثم صمت قليلاً وأردف:

- هذا كل ما تركه.

رد عليه أحد طلبته متهدجاً:

- لا يا سيدي فقد ترك ما لم يستطع أن يحصيه أحد.

نظر الجميع نحوه مذهولين فقال بصوت متهدج:

- نعم قد ترك «رسائل النور» التي طافت الدنيا كلها، كما ترك تلاميذ

كلهم من طلاب النور في كل الأصقاع. ينشرون علمه ويسرون على دربه..

نقوش ... على جدران المنفى

ارتفعت الأصوات خارج الفندق وداخله.
تجمع الآلاف في نهر الشارع، امتلأت الشوارع بأفراد الشرطة المتحفزين.
طار الخبر عبر الأثير إلى جميع أنحاء تركيا.
هرع الناس متدفقين إلى أورفه كتدفق مياه الشلال.. ازدحمت المدينة،
لم يعد بها موطئ لقدم.
عجلت السلطات بمواراة جثمانه تحت أطباق الثرى خشية تدفق الناس
الذي لم ينقطع.
امتلاً المسجد عن آخره حتى فرشوا حصيراً في الفناء الخارجي. أقاموا
صلاة الجنازة، تزامنت مئات الأيادي على حمل النعش وتقبيله. حملوه على
الأعناق وتوجهوا به إلى جامع «خليل الرحمن» حيث استقر جثمانه تحت
طيات الثرى.
تدفقت وفود الناس إلى جامع خليل الرحمن حيث قبر «الشيخ
بديع الزمان سعيد النورسي».. فمن لم يستطع حضور جنازته ذهب لزيارته
في قبره.. مما أثار حنق وزير الداخلية فشن حملة اعتقالات واسعة على
«طلاب النور» في شرق البلاد وغربها.
وما يزالون يطاردون النور حتى باغتهم القدر بضربة قاسمة أتتهم من
عمق الظلام عندما وقع انقلاب عسكري بقيادة الجنرال «جمال كورسل» وأعدم
على إثره رئيس الوزراء «عدنان مندرس» وغيره، وسُجن بقية وزراء الحكومة
غير أن وزير الداخلية - الذي طارد الشيخ كثيراً - قد أسرع بالانتحار.

وجاءت الحركة الانقلابية تزف عداؤها الشديد.
 تفرقع سياطها في وجوه طلاب النور.
 ملأت بهم السجون.
 أعلنوا عن نبش قبر الشيخ وإخراجه ثم إعدامه.
 طارت الأخبار كالنار في الهشيم.
 تأججت جمرات الغضب وطالت ألسنة النيران عنان السماء.
 رحلت هواجس الناس فوق الغيوم.
 نشبت المظاهرات في كل الأصقاع يهتفون:
 - يا ويحكم.. كيف تجرؤون على إعدام ميت..؟
 انتشر الخبر على صفحات الجرائد بين مصدق ومكذب.
 قال أحدهم:

- إشاعات..

رد آخر:

- كيف وطلاب النور كلهم في السجن.

سأل آخر:

- هل يتتقنون من رجل قد مات؟

وسمعوا صوتاً يقول:

- ستصيبهم اللعنة لا محالة إن فعلوا.

نخر السوس الهيكل، تدفقت جموع عناكب الظلام، نزفت الكلمات
اللاذعة من الأفواه حوى الجميع الألم.

لاحت أصوات:

- لا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها.

قال آخر:

- وأين حرمة الأموات؟

وتساءل أحدهم:

- هل نحن أمة تأكل علماءها؟

كان الوقت عصرًا.

وقد بعثرت رياح الخريف أوراق الشجر عندما توجه والي «أورفة»
مع رئيس شعبة الأمن إلى منزل الشيخ «عبد المجيد» في قونية.

بُهِت الرجل عندما رآهم.

تلاقت العيون في نظرات مزعجة.

سألها:

- ما الخبر؟

- ستأتي معنا إلى أورفة!

- لم؟

- هناك ستعلم.

لم يجد مناصا من الإذعان لنبرة كلامهما الحادة.

ارتدى ملابسه غارقًا في أوهامه.. آه من المؤكد أن الأمر يرتبط بأخي
المرحوم «بديع الزمان» فهم الآن يطاردون طلابه في كل صوب وحذب ولكن..

نقوش ... على جدران المنفى

يا ترى ماذا يريدون من رجل قد مر على موته زهاء أربعة أشهر؟ ورغم هذا اشتعلت الدنيا بالأخبار الحارقة.

ترى إلام يرومون؟ .. آه يرومون أن يخبو النور في أجواء الكمد التي يصنعونها.

ألم يكفهم ما صنعوه به حيا.. أم أيضًا ميتًا؟
أرسل الزفرات من فرط القنوط والجزع.
وتساءل:

ألا من سبيل للخروج من هذا المأزق؟.

مالت الشمس برأسها للغروب وعصفت الريح بالأشجار وحلقت
السحب الداكنة وبدأ الظلام يرخي سدوله.
وصلوا بالعربة إلى قصر الوالي، رأى أمامه عصابة من الرتب العسكرية
الكبيرة يقتعدون مقاعد وثيرة في بهو القصر وقد انطلقت الأضواء المبهرة في
جنيات الأروقة والغرف الكثيرة..

وضع أحدهم رجلا على رجل متكئا بظهره إلى الوراء ويده كأس تجرعه
على مرة واحدة ثم وضعه أمامه على منضدة رخامية مستديرة.
قال:

- إن الناس يتوافدون بالآلاف ومن كل الولايات على قبر شقيقكم.
كان الشيخ «عبد المجيد» قد ذهب خياله كل مذهب وما إن سمع هذا
الكلام تجلت في عينيه نظرة حزينة.
قال:

- وهل هذا مخالف للقانون؟
- بل وللشريعة!
رفع يده بغضب في وجهه. قال:
- لا تتكلم عن الشريعة أرجوك. ماذا تعرفون عن الشريعة..
وماذا تريدون من رجل هو الآن في رحاب خالقه..
شعر بنبرة «عبد المجيد» الحادة وقال:
- سننقل رفاة أخيك إلى قبر لا أحد يعلمه!!
أدركت الشيخ «عبد المجيد» نوبة من نوبات الجنون. صاح:
- لا يحق لكم نقله.. لم تتمكنوا من إعدامه حيا تريدون إعدامه ميتا؟
- سننقله إلى قبر آخر لمنع زيارة الناس له..
ثم مد يده بورقة قائلاً بلهجة امرأة:
- وقع هنا..
- ما هذه؟
- طلب منكم بنقل رفاة أخيكم..
- ولكن لم أطلب هذا.
- بل قد طلبت للتو.. هيا وقع!
- دعوه يرتاح في قبره..
- وقع يا شيخ «عبد المجيد» هذه أوامر.. ولن يضر النقل في شيء.. كلها
قبور وكلها أرض واحدة..

شعر «عبد المجيد» بنظراتهم الحارقة وهو يجيل الطرف بينهم.
غابت روحه في أعماق الكون وهو يسمع أصواتهم كزئير يصم الأذان.
يرنو من النافذة إلى الريح وهي لا تزال تقصف بالأشجار.
دوى سؤال في فراغ عقله:

هل يمكن أن يكون القدر قد غير مجرى مصير أخي إلى مجرى آخر؟
وقع على الورقة، تملكه شعور بأنه قد وقع في فخ من الفخاخ المنصوبة
في شريعة الغاب.
دارت بداخله هواجس:

- لماذا ينقلونه من قبره؟ آه.. حتى لا يُعرف القبر كما كان يرجو أخي.
ألم يفكروا بأنني سأفشي السر وسأبلغ الناس عن مكان القبر المجهول..
وعندئذ.. أه من الجائز أن يقتلوني بعد أن ينقلوه حتى يظل قبره مجهولاً.. ألا من
سبيل للخروج من هذا المأزق؟

كانت أعمدة الإنارة قد أرسلت ضوءها الخافت الذي يثير كآبة في النفس .
ولا تزال رياح الخريف تعصف بالأشجار، تنتفض أوراقها على أسفلت
الشارع الطويل وهم يستقلون عربة ميري متوجهين صوب المطار .
تنتظرهم طائرة عسكرية مموهة اللون تومض بإشارات ضوئية من
أطرافها وبطنها .

وما زال الشيخ «عبد المجيد» تساوره الشكوك وهو يتردد في أعماق
السكون المظلم .

بدت على وجهه علامات قوة وإيمان .

كان الليل قد انتصف عندما وصلت بهم الطائرة إلى ثكنة قريبة من جامع
«خليل الرحمن» حيث قبر المرحوم «بديع الزمان» .

تبعهم إلى بهو فسيح يفضي إلى باب غرفة محاطة بحاجز حجري متوسط
الارتفاع، كأن على وجوههم نشوة وسرور .

نقوش ... على جدران المنفى

أجلسوه وحده في الغرفة المصبوغة بلون قاتم يزيد من حدة كآبتها الضوء
الشاحب المرسل من لمبة صغيرة تتوسطها. .
تركوه وحده. طافت خواطره جنبات العالم المظلم الكئيب.. من يكونون..
هل هذا هو الإنسان؟

ومن فرط الحيرة والجزع.

جلس - على أريكة عتيقة - يرسل الزفرات الملتهبة، تلظى بنار الذكريات المؤلمة، والأهوال التي حاقت بأخيه المجدد الذي تحصن بالعلم والفضيلة.

هتف الأنين بداخله:

- ها أنت يا أخي سيطرت عليك آلامك حيًا وسيطرت علينا ميتًا.

- أوقظت المعاني الخفية.

- استوحيت لنا آمالاً تشع نورًا.

- انطلقت إلى عمق الكلمات ففاضت على يديك الأسرار أنوارا.

- كان حريًا بهم أن لا يستحلوا حرمة قبرك، ويدعوك هانئًا في سكونك الأبدى.

دلف من باب الغرفة رجل ضخم بين يديه صينية عليها طعام وضعها على منضدة صغيرة وقال:

- من المؤكد بأنك جوعان.. تفضل.

- لا يا أخي.. أشكرك.

خرج الرجل من الغرفة دون أن يعيره اهتماماً.

طفق «الشيخ عبد المجيد» يحملق في الطعام، يستشعر مرارته دون أن يلمسه، يشم فيه رائحة القبور والغدر.

مر عليه الوقت ثقيلاً بارداً، تبيست شفاته، هرب ريقه، جف حلقه، اعتراه خوف ذو ظلال رمادية، تغيرت في عينيه الصور، صارت مشوهة كأنها مسوخ جوفاء، هبت عليه روائح الفجر الكاذب عندما استدعوه وأركبوه عربة لحمل الموتى كبيرة سوداء.

خرجت بهم من الثكنة العسكرية إلى المقابر واستقرت في فناء جامع «خليل الرحمن»، هدأت حدة رياح الخريف، استقرت أشجار السرو التي تلقي بظلها الأسود على الأرض، رأى النجوم وقد زينت وجه السماء وامتلأ الجو بعبق سحري ممزوج برائحة العنبر وروائح ورود شجر الأكاسيا الملونة..

يقف الجنود كالأشباح بأياديهم معاول لحفر القبر وبجوارهم تابوت خشبي.

أعطاهم رئيس شعبة الأمن إشارة فقاموا بالحفر وعلى وجوههم هلع الموت مترددين، لكنهم لا يستطيعون أن يعصوا له أمراً..

تصاعدت الأتربة امتزجت مع الضباب الهابط بضراوة، ملأت حلوقةم، اختلطت ذراتها مع أشعة الضوء المنبعثة من أعمدة الإنارة ومن الكشاف الكبير الذي يمسك به أحدهم.

ظهرت «رعاة» «بديع الزمان» مكفنة كأنه قُبر بالأمس، كشف الطبيب عن وجهه الباسم، أخرجوه، قبلوه، ووضعوه في التابوت.

حملوا التابوت بين أياديهم ووضعوه في جوف العربة واتجهوا جميعاً إلى المطار. نقلوه إلى داخل بطن الطائرة، جلس أخوه بجانبه يملأ الأسى قلبه حتى وصلوا مدينة «أفيون». كانت المدينة خالية عدا أفراد من الشرطة والجيش يقفون متربصين على منعطفات الطرق، وصلوا إلى المطار. نقلوا التابوت من الطائرة إلى عربة أخرى كانت تنتظرهم. خلوا سبيل أخيه، أخذت العربة التابوت وانطلقت خارج المطار كالسهم في المدى حتى ابتلعها الظلام.

تمت ...

المصدر التاريخي :

كتاب (سيرة ذاتية)

تأليف : بديع الزمان سعيد النورسي

المؤلف

(سالم محمود سالم)

- روائي مصري

- روائي / قاص / مجال الكتابة للطفل.
- عضو اتحاد كتاب مصر.
- رئيس نادي أدب قويسنا.
- سكرتير نادى الأدب المركزى بالمنوفية.
- مقرر عام مهرجان المنوفية للشعر.
- مستشار تحرير مجلة هديل بفرع ثقافة المنوفية.
- صاحب مقال دورى بالمجلة تحت عنوان «خارج السياق».
- رئيس تحرير مجلة (عناقيد) هيئة قصور الثقافة-نادى أدب قويسنا.

- صدر له :

١- كتب منشورة

- خفافيش على هامش النار.. قصص.. إيتراك للطباعة والنشر / القاهرة ط١ / ٢٠٠٤.
- محاكمة طير البر.. رواية بلنسية للطباعة والنشر / القاهرة ط١ / ٢٠٠٦.
- قبض الريح.. قصص بلنسية للطباعة والنشر / القاهرة ط١ / ٢٠٠٧.
- الشوارع المغلقة.. رواية مكتبة قطب / ٢٠١١.
- الكنز... رواية بلنسية للطباعة والنشر / القاهرة ط١ / ٢٠٠٩.
- عجاوي - رواية قصيرة الهيئة العامة لقصور الثقافة الإسكندرية ط١ / ٢٠٠٨.
- نقوش على جدران المنفى دار سوزلر للنشر / القاهرة ٢٠١٣.
- رحلة إلى ميدان التحرير - للأطفال - الهيئة العامة للإستعلامات ٢٠١١.

٢- للأطفال قيد النشر

- حكايات المرسلين «قصص الأنبياء» .
- أهل الكهف.
- محمية كهف سنور.

٣- دراسات:

- الرمز وحدود حرية التعبير
- الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٥.
- القصة القصيرة (رؤى وشهادات)
- الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٦.
- قراءة في ديوان البنت إيمان الثانية
- الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٨.

٤- شهادات:

- إشراقة في عمق الكلمات
- مؤسسة نجلاء محمود محرم الثقافية ٢٠٠٥.

٥- مؤتمرات

- مؤتمر أدباء مصر في الأقاليم
- بور سعيد / ٢٠٠٥.
- مؤتمر غرب ووسط الدلتا الثقافي
- الإسكندرية / ٢٠٠٦.
- القصة القصيرة «رؤى وشهادات»
- الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٦.
- مؤتمر غرب ووسط الدلتا الثقافي
- لليوم الواحد / قويسنا ٢٠٠٦.
- مؤتمر غرب ووسط الدلتا الثقافي
- الإسكندرية / ٢٠٠٧.
- مؤتمر غرب ووسط الدلتا الثقافي
- لليوم الواحد / بركة السبع ٢٠٠٧.
- مؤتمر الإقليم
- الإسكندرية - ٢٠٠٨.
- مؤتمر غرب ووسط الدلتا الثقافي
- الإسكندرية / ٢٠٠٩.
- مؤتمر غرب ووسط الدلتا الثقافي
- لليوم الواحد / قويسنا ٢٠٠٩.
- مؤتمر الإقليم
- شبين الكوم - لليوم الواحد - ٢٠١٠.
- مؤتمر الإقليم
- مرسى مطروح - ٢٠١٠.



- مؤتمر الإقليم شبين الكوم - لليوم الواحد ٢٠١١.
- مؤتمر الإقليم شبين الكوم - ٢٠١١.
- أمين عام مؤتمر الرواية والقصة رؤي وشهادات المنوفية ٢٠١٢

٦- جوائز:

- جائزة التميز على مستوى الوطن العربى - مسابقة نجلاء محرم للقصة القصيرة / ٢٠٠٤.
- جائزة المركز الثقافي بالشباب والرياضة - المركز الأول - قصة قصيرة / ٢٠٠٥.
- جائزة مؤتمر غرب ووسط الدلتا الثقافي / ٢٠٠٧.
- المركز الأول - قصة قصيرة - مسابقة الأقليم ٢٠٠٨.
- المركز الأول فى مسابقة النشر - عن رواية الكنز-الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠١٠

٧- قام بالنشر

فى الدوريات الصادرة عن هيئة قصور الثقافة ونوادي الأدب والجرائد والمجلات المصرية والعربية.



تَعَانِي الأُنَيْنَ مَعَ السَّرِّ الأَبَدِي الَّذِي يَبْحَثُ عَنْهُ الْحَقِيقَةُ الْكَامِلَةُ .
فِي عَمَسِ الْأَشْيَاءِ / فِي عَمَسِ الْكَلِمَاتِ / فِي عَمَسِ الْمَعَاتِ .
تَلَاشْتُ الْبِشَاشَةَ مِنْهُ عَلَى وَجْهِ الْأَيَّامِ . وَذَهَبَ الْغَدُ السَّعِيدُ إِلَى مَا وَرَاءَ الشَّفَقِ .
الأَحْمَرُ يَنْتَظِرُ قَدُومَ الْفَارَسِ الَّذِي يَمْتَطِي صَرْوَةَ جَوَادِهِ الأَبْيَضِ ذِي الأُجُنْحَةِ .
تَنْطَايِرُ عِمَامَتُهُ الْبَيْضَاءُ فِي الرِّهَاءِ . وَلَهُو يَشُو الْمَدَى كَالسَّهْمِ .
هَتَفَ الأُنَيْنَ بِدَاخِلِهِ :

- لِمَ هَذَا الْبِزْغُ عَلَى الْحُرُوبِ ؟ وَهَنَّاكَ فِي شَعْوِيهِمْ مِنْهُ لَمْ يَجِدْ تَمَهُ الدَّوَاءَ
وَالْغِذَاءَ ! وَأَطْفَالَهُمْ مَحْرُومُونَ مِنْهُ تَمَهُ لَعِبَةٍ تَفْرَحُهُمْ !
أَلَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِمْ أَنَّ الْأُمَمَاتِ التَّكَلُّفِي سَتَنْفَطِرُ كَهَذَا عَلَى أَوْلَادِهَا الذَّرِيَةِ
سَتَغْطِيهِمُ النَّلُوجُ حَتَّى يَوْمِ الْفَرْعِ الْأَعْظَمِ ؟
هَلْ هَذَا مِنْهُ وَصَايَا آدَمَ لِأَوْلَادِهِ ؟ أَمْ هُوَ إِرْثُ عَنْ قَابِيلَ ذَاكَ الْقَاتِلِ الْعَرَبِيِّ
الَّذِي احْتَارَ فِي أَنْ يُوَارِيَ سُوءَ أَخِيهِ !

سَالِمُ مُحَمَّدٍ سَالِمُ